الدورية التاريخية / العدد الثالث السنة الأول

ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ ⵏ ⵜⵓⵙⵓⵏⵉ ⵏ ⵜⵓⵔⴰⵙⵜ

المركز الليبي للدراسات الأمازيغية

ⵜⵓⵔⴰⵙ ⵏⵏⵖ

ⵜⵓⵙⵓⵏⵉ ⵏ ⵓⵔⴰⵙ ⴰ ⵜⵉⵙⵙⵓⴳⵜ

أمزروي نغ

مجلة التاريخ والجغرافيا

(3)

عدد خاص عن مصادر تاريخ جبل نفوسة

هذه الدورية طبعت في سنة
2026 / 2976
الدورية التاريخية / العدد الثالث السنة الأولى

المركز الليبي للدراسات الأمازيغية
الرقم الوطني للكتاب

000-0000-0000-00

مقدمة

نحو توسيع مصادر تاريخ جبل نفوسة وتجديد مناهج دراسته

يمثل جبل نفوسة واحدًا من المجالات التاريخية المهمة في ليبيا وشمال أفريقيا؛ فقد كان، على امتداد العصور، موطنًا لجماعات بشرية متعاقبة، ومجالًا للزراعة والرعي والتجارة، وحلقة وصل بين الساحل والصحراء وبلاد المغرب، ومركزًا من مراكز العلم والتأليف والنسخ والتعليم الإباضي. ومع ذلك، ما زالت معرفتنا بتاريخ الجبل غير متناسبة مع ثراء تجربته البشرية والحضارية؛ إذ بقيت مراحل طويلة من تاريخه غامضة أو مجزأة، بينما تركزت غالبية الكتابات المتداولة على أحداث وشخصيات محدودة، أو أعادت نقل الأخبار نفسها من عدد قليل من المصادر المعروفة.

ولا ترجع هذه الفجوات دائمًا إلى غياب التاريخ أو انعدام الشواهد، بل ترجع في جانب كبير منها إلى ضيق مفهوم «المصدر التاريخي» الذي اعتمدته بعض الدراسات. فقد انصرف الاهتمام غالبًا إلى كتب البلدان والجغرافيا، وكتب السير والطبقات، والمصادر السياسية والعسكرية، في حين بقيت مواد كثيرة قادرة على الإسهام في كتابة تاريخ الجبل خارج دائرة الاستعمال المنتظم. ومن هنا جاء تخصيص هذا العدد من دورية «أمزروي نّغ/تاريخنا» لمصادر تاريخ جبل نفوسة، لا بقصد تقديم تاريخ شامل ونهائي للجبل، بل للتنبيه إلى أرشيف أوسع من النصوص والوثائق والآثار والمعطيات التي يمكن أن تغير طبيعة الأسئلة المطروحة، وتملأ بعض الفراغات التي تركتها المدونات التقليدية.

ينطلق هذا العدد من فكرة أساسية مفادها أن التاريخ لا يُستخرج من كتب التاريخ وحدها. فقد تختبئ أخبار المجتمع في سؤال فقهي، أو حاشية مخطوط، أو تقييد ناسخ، أو حجة وقف، أو نقش على حجر، أو قطعة نقدية، أو قبر، أو بقايا قرية، أو طريقة بناء، أو اسم موضع، أو رواية شفوية، أو صورة قديمة، أو خريطة، أو نتيجة جينية مدروسة ضمن سياقها السكاني. ولكل واحد من هذه المصادر لغته وحدوده وطرائق نقده، ولا يجوز التعامل معها جميعًا بالمنهج نفسه أو منحها الدرجة نفسها من اليقين.

ولهذا حرصنا في هذا العدد على ألا يقتصر التنبيه على مصادر أخرى لتاريخ جبل نفوسة، بل أن يصاحبه تنبيه إلى المناهج التي ينبغي اتباعها عند استعمال تلك المصادر. فالمشكلة ليست في العثور على المعلومة وحده، وإنما في معرفة زمنها، وسياقها، ودرجة استقلالها، وطريقة انتقالها، وما إذا كانت تصف واقعة حقيقية أو حكمًا نظريًا أو ذاكرة متأخرة أو فرضية قابلة للاختبار. وقد ينتج الخطأ التاريخي عن قراءة المصدر الصحيح بطريقة غير صحيحة، أو عن اقتطاع العبارة من سياقها، أو نسبة خبر متأخر إلى عصر مبكر، أو التعامل مع الاحتمال بوصفه حقيقة قطعية.

يقدم البحث المتعلق بكتاب «مسائل نفوسة» نموذجًا لما يمكن أن يتيحه فقه النوازل من معرفة بالحياة اليومية. فهذا الكتاب لا يُقرأ بوصفه مجموعة أحكام فقهية فحسب، بل بوصفه سجلًا غير مباشر لأنشطة الزراعة والرعي والتجارة، وحقوق المياه، والملكية، واللباس، والزواج، والعادات الأسرية، والأمراض، والقضاء وتسوية النزاعات. غير أن هذه القراءة تتطلب التمييز بين المسألة التي وقعت فعلًا في جبل نفوسة، والمسألة الافتراضية، والمادة الفقهية المنقولة من بيئات أخرى، كما تتطلب الفصل بين لغة السؤال، التي قد تحفظ أثر الواقع المحلي، ولغة الجواب التي تخضع ذلك الواقع للبناء الفقهي العام. فلا يجوز تحويل كل فتوى إلى خبر تاريخي قطعي من دون قرائن مساندة.

ويتناول العدد كذلك الحمض النووي بوصفه أرشيفًا مكمّلًا للتاريخ السكاني، يمكن أن يساعد في دراسة الاستمرارية السكانية، والهجرات، والقرابة بين الجماعات، والتحولات الديموغرافية التي لا تسجلها الوثائق المكتوبة. لكن هذا النوع من الدراسات يحتاج إلى حذر منهجي شديد؛ فلا يجوز مساواة السلالة الجينية بالهوية القومية أو اللغوية أو القبلية، ولا بناء نتائج عامة على عينات تجارية قليلة أو غير متوازنة جغرافيًا. كما أن التشابه الجيني لا يحدد وحده زمن الهجرة أو لغتها أو أسبابها. ومن ثم لا تكون المعطيات الجينية بديلًا عن التاريخ والآثار واللسانيات والرواية الشفوية، بل تصبح أكثر قيمة حين تُقرأ إلى جانبها وضمن مشروع ميداني منظم يراعي أخلاقيات جمع العينات وخصوصية المشاركين.

وفي دراسة «المكتبة النفوسية المنسية» ينتقل الاهتمام من الكتب الباقية وحدها إلى تاريخ التأليف والنسخ والتداول والفقد. فالمكتبة النفوسية لم تكن خزانة واحدة محددة، بل شبكة من المؤلفين والنساخ والطلبة والمكتبات العائلية والمؤسسات التعليمية، امتدت آثارها إلى جربة ووادي مزاب والقاهرة وعدد من الخزائن الأوروبية. ويقتضي البحث في هذا المجال التمييز بين الكتاب الموجود كاملًا، والكتاب المعروف من

نسخة ناقصة، والنص المحفوظ داخل مجموع، والعنوان الذي لم يبق منه إلا ذكر في كتب السير أو الفهارس. كما ينبغي ألا يُختزل تاريخ المعرفة في أسماء المؤلفين وحدهم؛ فالناسخ والمالك والقارئ والمعلّق والواقف على الكتاب جميعهم جزء من تاريخ انتقال المعرفة وحفظها.

أما البحث الأثري، فيقدمه العدد بوصفه وسيلة أساسية لاختبار الروايات المكتوبة وسد الفجوات الممتدة من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور الإسلامية والحديثة. فاللقى الأثرية، والقبور، والنقوش، والفخار، والعملات، وبقايا المساجد والقرى، ومعاصر الزيت، والمساكن الصخرية، ومخازن الحبوب، وأنظمة المياه والزراعة، تستطيع أن تكشف أنماط الاستيطان والاقتصاد والثقافة المادية التي صمتت عنها المصادر المكتوبة. لكن القيمة العلمية للأثر لا تكمن في القطعة وحدها، بل في موضعها وطبقتها وعلاقتها بما يحيط بها. ولذلك فإن استخراج قطعة من مكانها من دون تسجيل سياقها قد يحولها من وثيقة تاريخية إلى جسم فاقد لجزء كبير من معناه.

ولهذا ينبه العدد إلى ما تتعرض له مواقع الجبل من مخاطر الحفر العشوائي، والبحث عن الكنوز، والتوسع العمراني، وشق الطرق، والمحاجر، والاتجار غير المشروع باللقى، فضلًا عن عدم إبلاغ الأهالي أحيانًا عما يعثرون عليه، إما لغياب الوعي بقيمته، أو للخوف من الإجراءات الرسمية، أو لضعف الثقة في المؤسسات المسؤولة. ولا يمكن حماية آثار جبل نفوسة من دون إشراك سكانه في توثيقها، وإنشاء آلية واضحة وسريعة لتلقي البلاغات، وإعادة بناء الثقة بين المجتمع المحلي والباحثين والمؤسسات المختصة.

ويعرض العدد أيضًا ببليوغرافيا موسعة للبحوث الأثرية المتعلقة بالجبل ومدنه وقراه، مبينًا أن البحث لا ينبغي أن يقتصر على الصيغة العربية لاسم «جبل نفوسة». فالمادة العلمية موزعة بين لغات وصيغ كتابية متعددة، منها: Jabal Nafusa وJebel Nafusa وGebel Nefusa وDjebel Nefousa وJebel Gharbi وغيرها. كما ينبغي البحث بأسماء المدن والقرى والمواقع كلٌّ على حدة؛ لأن كثيرًا من الدراسات تذكر يفرن أو جادو أو نالوت أو شروس أو ككلة أو الرحيبات أو وازن وغيرها، من دون أن تضعها تحت الاسم الجامع لجبل نفوسة. إن الانتباه إلى اختلاف الأسماء وطرق كتابتها ليس تفصيلًا شكليًا، بل شرط أساسي للوصول إلى المادة العلمية الموزعة بين الفهارس واللغات والمؤسسات.

وفي دراسة جبل نفوسة في المصادر الإسلامية الوسيطة، جرى التنبيه إلى ضرورة ترتيب المصادر بحسب تاريخ ظهور المعلومة وطبقات انتقالها، لا بحسب تاريخ وفاة

المؤلفين فقط. فقد يبدو لنا، عند جمع أسماء الجغرافيين والمؤرخين، أن لدينا عددًا كبيرًا من الشهادات المستقلة، بينما تكشف المقارنة النصية أن بعض المؤلفين نقلوا عمن سبقهم، أو اختصروا نصوصهم، أو جمعوا بين أخبار تعود إلى أزمنة مختلفة. ومن هنا تأتي أهمية تحديد من زار المنطقة فعلًا، ومن نقل عنها، ومن اعتمد على مصدر مفقود أو سابق، ومقارنة النسخ والترجمات، والانتباه إلى التصحيف واختلاف أسماء المواضع. فذكر جبل نفوسة في عشرين كتابًا لا يعني بالضرورة وجود عشرين شاهدًا مستقلًا على تاريخه.

كما يفتح العدد مجالًا لدراسة العلاقة التاريخية بين الأمازيغية والمذهب الإباضي، بوصفها علاقة تشكلت عبر سياقات دينية واجتماعية وسياسية وتعليمية متراكمة، لا بوصفها تطابقًا بسيطًا بين اللغة والمذهب. وتكشف دراسة الأوقاف والشبكات العلمية، من خلال الوقف الجربي ووكالة الجاموس في القاهرة، عن امتداد الحركة العلمية النفوسية خارج حدود الجبل، وعن أدوار الطلبة والنساخ والعلماء النفوسيين في شبكات التعليم والمخطوطات والهجرة المغاربية. فالتاريخ المحلي لا يُفهم دائمًا داخل حدوده الجغرافية الضيقة، بل قد توجد أجزاء من أرشيفه في المدن التي هاجر إليها أبناؤه أو درسوا وعملوا وأوقفوا الكتب والعقارات فيها.

وتجمع الدراسات المنشورة في هذا العدد جملة من المبادئ المنهجية التي نرى ضرورتها في كتابة تاريخ جبل نفوسة: التمييز بين الدليل والاستنتاج والفرضية؛ وعدم إسقاط الحدود والهويات الحديثة على العصور القديمة؛ ومقارنة المصادر المحلية والخارجية؛ والتحقق من استقلال الروايات؛ وربط النص بالمكان والبيئة؛ وعدم فصل التاريخ السياسي عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي؛ والنظر إلى الرواية الشفوية بوصفها نقطة بدء للبحث لا خاتمته؛ وتوثيق الوثائق واللقى والشهادات قبل ضياعها؛ وإتاحة البيانات للباحثين ضمن الضوابط العلمية والأخلاقية.

إن هذا العدد لا يدعي حسم المسائل الكبرى المتعلقة بتاريخ جبل نفوسة، ولا يقدم مصادره الجديدة بوصفها بدائل مطلقة للمصادر المعروفة. فالنص الفقهي لا يغني عن الأثر، والأثر لا يحدد وحده أسماء أصحابه، والحمض النووي لا يكشف اللغة والهوية من تلقاء نفسه، والرواية الشفوية لا تُقبل بلا نقد، والوثيقة لا تتحدث خارج سياق إنتاجها. وإنما تتكون الصورة التاريخية الأكثر توازنًا عندما تتقاطع هذه الأدلة، ويؤكد بعضها بعضًا، أو يكشف اختلافها عن أسئلة جديدة تستحق البحث.

نأمل أن يكون هذا العدد خطوة أولى نحو مشروع أوسع لجمع مصادر تاريخ جبل نفوسة وفهرستها ونقدها، وإطلاق أعمال ميدانية في الآثار والتاريخ الشفهي والوثائق والمخطوطات والتاريخ السكاني. كما نأمل أن يشجع الباحثين وأبناء المدن والقرى على توثيق ما في حوزتهم من مخطوطات وصور ووثائق وحجج وخرائط وروايات ولقى، والتعاون على حمايتها وإتاحتها للدراسة قبل أن تفقدها الذاكرة أو الإهمال أو العبث.

فتاريخ جبل نفوسة لم يُكتب كاملًا بعد، وما وصل إلينا ليس إلا جزءًا من أرشيف واسع لا يزال موزعًا بين الكتب والأرض والذاكرة والخزائن والجسد البشري. ومن واجب البحث العلمي أن يجمع هذه الشواهد، وأن ينطقها بمنهج نقدي حذر، حتى يستعيد الجبل مكانه المستحق في تاريخ ليبيا وشمال أفريقيا والمجال المتوسطي والأفريقي.

كتاب «مسائل نفوسة»

مصدرًا لفقه النوازل ودراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية في جبل نفوسة

ملخص

يُعدّ كتاب «مسائل نفوسة» المنسوب إلى الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، المتوفى سنة 208هـ، من أقدم المدونات الفقهية التي يمكن توظيفها في دراسة مجتمع جبل نفوسة خلال العصور الأولى للإسلام. فالكتاب لا يقتصر على بيان الأحكام الشرعية المجردة، بل يضم أكثر من ثلاثمائة سؤال وُجّهت من نفوسة إلى الإمام عبد الوهاب، وأُلحق بها عدد من أجوبة ابنه الإمام أفلح بن عبد الوهاب. وقد نشأت هذه الأسئلة من مشكلات واقعية أو محتملة تتصل بالزراعة والرعي والملكية والمياه والتجارة واللباس والزواج والعادات الاجتماعية والقضاء وتسوية النزاعات.

تسعى هذه الدراسة إلى بيان الكيفية التي يمكن بها الانتقال من النص الفقهي إلى قراءة تاريخية وأنثروبولوجية متأنية للمجتمع النفوسي. فالنازلة، وإن صيغت في صورة سؤال عن الحلال والحرام، فهي تحمل في ثناياها معطيات عن المحاصيل المزروعة، وأشكال استغلال الأرض، والحيوانات، وأنظمة الشراكة، والمواد المستعملة في اللباس، وعادات الزواج، ووسائل المبادلة، وحقوق المياه، ومؤسسات القضاء والسلطة. وتخلص الدراسة إلى أن الكتاب يمثل سجلًّا غير مباشر للحياة اليومية، شريطة التمييز بين الواقعة المحلية، والمسألة الافتراضية، والمادة الفقهية المنقولة من بيئات أخرى.

الكلمات المفتاحية: مسائل نفوسة، فقه النوازل، جبل نفوسة، الدولة الرستمية، الزراعة، الرعي، التجارة، اللباس، العادات الاجتماعية، التاريخ الاقتصادي.

مقدمة

يرتبط فقه النوازل ارتباطًا وثيقًا بالحياة اليومية، لأنه لا ينشأ في الغالب عن افتراضات نظرية خالصة، وإنما عن سؤال يواجهه فرد أو جماعة نتيجة تصرف اقتصادي أو نزاع أو عادة

أو حادثة اجتماعية. ولهذا فإن كتب المسائل والفتاوى تمثل، إلى جانب قيمتها الفقهية، مصادر تاريخية واجتماعية غنية، لأنها تحفظ ما لا تحفظه كتب التاريخ السياسي من تفاصيل الزرع والحصاد والرعي واللباس والزواج والبيع والشراء والخصومات.

وقد أدرك محقق كتاب «مسائل نفوسة» هذه القيمة حين وصف كتب النوازل بأنها تجمع الفقه والتاريخ والسيرة والعبرة، وتشير إلى انشغالات المجتمع واهتماماته وتصرفات أفراده وطرائق كسبهم للعيش، مؤكدًا أن القارئ المتبصر يستطيع أن يستخرج منها صورة تتجاوز الحكم الفقهي المباشر إلى أحوال الناس وممارساتهم اليومية (ص 8-7)[1].

ينسب الكتاب إلى الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ثاني أئمة الدولة الرستمية، المتوفى سنة 208هـ. وينقل المحقق عن ابن الصغير أن أهل نفوسة كتبوا إلى الإمام في مسائل أشكلت عليهم، فأجابهم عنها، وأن الكتاب ظل متداولًا بين الإباضية قرنًا بعد قرن (ص 10). ويحتوي الكتاب على أكثر من ثلاثمائة سؤال، صيغ معظمها على نمط: «وذكرت كذا... الجواب كذا»، وغالبًا ما يورد الحكم بإيجاز، مع تعليل أو استدلال في بعض المواضع. كما أن الأسئلة لم تصل إلى الإمام دفعة واحدة، بدليل إحالة بعض الأجوبة إلى أجوبة سابقة، وبقاء آثار مجموعات متعاقبة من المراسلات (ص 11).

ولا تعني نسبة الأسئلة إلى أهل نفوسة أن كل حادثة وردت في الكتاب وقعت داخل الجبل حتمًا؛ فبعض المسائل يذكر تيهرت ومكة وطرابلس، وبعضها قد يكون سؤالًا افتراضيًا أو إعادة لمسألة فقهية متداولة. ولذلك يجب التعامل مع الكتاب على ثلاثة مستويات:

ما يصرح النص بوقوعه في جبل نفوسة،

وما يحتمل أنه مستمد من واقعه الاجتماعي،

وما يمثل أفقًا فقهيًا عامًا وصل إلى المجتمع النفوسي.

هذا التمييز ضروري حتى لا تتحول الفتوى إلى خبر تاريخي قطعي من دون قرينة.

أولًا: منهج الاستفادة من فقه النوازل في كتابة تاريخ جبل نفوسة

تبدأ الاستفادة العلمية من الكتاب بتفكيك كل نازلة إلى عناصرها الأساسية: صاحب السؤال، والأشخاص المشاركون، والمال أو الشيء محل النزاع، والمكان، وطبيعة

1 - كل الإحالات في هذا المقال تشير إلى كتاب مسائل نفوسة، . للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، من تحقيق وترتيب إبراهيم محمد طلاي، بني يزقن، غرداية، 1989.

النشاط، والعادة المشار إليها، والحكم الذي انتهى إليه الإمام. فإذا سأل أحدهم عن بيع زرع قبل نضجه، فالمعلومة التاريخية لا تقتصر على منع البيع أو إجازته، بل تشمل وجود الزرع التجاري، وتحديد مراحل نموه، ووجود سوق يشتري المحصول قبل حصاده. وإذا سألوا عن الشراكة التي يقدم فيها أحد الطرفين البذر ويقدم الآخر الدابة والمحراث، فإن النص يسجل صورة من صور تنظيم العمل الزراعي وتقاسم أدوات الإنتاج.

ويمكن إنشاء قاعدة بيانات لجميع النوازل، بحيث تخصص لكل مسألة حقول تتعلق بالموضوع، والنشاط الاقتصادي، والنبات أو الحيوان المذكور، وأداة العمل، ونوع العقد، والفئة الاجتماعية، ودور المرأة، ووجود السلطة أو القاضي. وبعد تصنيف المسائل يمكن تحديد تواتر موضوعات مثل الأرض والماء والغنم والقمح والصداق والعبيد والديون، ثم مقارنتها بكتب السير والطبقات والآثار والنصوص الجغرافية.

كما ينبغي التمييز بين لغة السؤال ولغة الجواب. فالسؤال يعكس عادةً الواقع المحلي ومصطلحاته، أما الجواب فيعكس البناء الفقهي الذي أخضع ذلك الواقع للقواعد الشرعية. ومن ثم تكون ألفاظ مثل «الجنان»، و«المدرسة»، و«المحصد»، و«الزريعة»، و«الزوج» بمعنى دابتي الحرث، و«الدراع»، و«النحلة»، و«التليس» ذات أهمية لغوية وأنثروبولوجية، لأنها قد تحفظ أسماء مؤسسات أو أدوات أو أعراف كانت شائعة في البيئة المغاربية.

ثانيًا: الزراعة والمحاصيل ونظم استغلال الأرض

تكشف مسائل الزكاة عن تنوع مهم في المحاصيل المعروفة لدى السائلين. فقد سئل الإمام عن القطاني، وعن الثمار التي تجب فيها الزكاة، فذكر التمر والزبيب، وأورد الأنواع الستة المشهورة: البر، وهو القمح، والشعير، والتمر، والزبيب، والذرة، والسلت، مع بيان الخلاف في بقية الحبوب والقطاني (ص 72-71). كما ورد سؤال خاص عن الجلبان والفول والزيت (ص 72)، وهو ما يدل على معرفة مجتمع السائلين بزراعة البقول وإنتاج الزيت، فضلًا عن الحبوب والأشجار المثمرة.

وتكشف هذه القائمة عن اقتصاد زراعي مركب لا يقوم على محصول واحد. فالقمح والشعير يمثلان قاعدة الغذاء، والتمر والزبيب محاصيل قابلة للحفظ والتبادل، والذرة والسلت يوسعان دائرة الحبوب، بينما يشير الزيت إلى الزيتون ومعاصرته واستعماله في الغذاء والمبادلة. ويظهر التين في مسائل البيع بوصفه ثمرة منتشرة في الجنان؛ إذ سئل عن بيع جنان ذي شجر تين بالنسيئة، وعن بيع ثمر الشجرة بعد إطعامها أو ظهورها (ص 133، 137-136).

وتتيح أحكام الزكاة معرفة مقاييس الإنتاج. فقد حُدد نصاب العشر بثلاثمائة صاع، أي خمسة أوسق، والوسق ستون صاعًا (ص 73). ولا ينبغي النظر إلى هذه الأرقام بوصفها أحكامًا دينية فقط، لأنها تشير إلى وجود نظام لقياس المحاصيل، وإلى استعمال وحدات معيارية في تقدير الإنتاج والضرائب الشرعية. كما ورد استعمال «القفيز» في تقدير الحبوب والقطاني، وذُكر إتمام نصاب القمح بالشعير، بما يدل على إدراك فقهي واقتصادي لتقارب الحبوب وإمكان جمعها في حساب المحصول (ص 71، 74).

وتظهر في الكتاب أنواع السقي؛ فالزرع المسقي بالمطر أو العيون الجارية يختلف في مقدار الواجب عما يسقى بالنضح والمعاناة، أي بواسطة رفع الماء وبذل الجهد (ص 69). وهذه الإشارة تساعد على التمييز بين الزراعة البعلية، والزراعة المروية، والزراعة التي تتطلب وسائل بشرية أو حيوانية لاستخراج الماء. كما أن سؤال بيع النهر منفصلًا عن الأرض، أو استسلاف ماء نهر جار، يثبت وجود حقوق مالية مرتبطة بالمياه ومحاولات للتصرف فيها استقلالًا عن الأرض (ص 140).

وتشير مسألة بيع الزرع وهو نبات إلى تقسيم مراحل المحصول؛ إذ منع بيع الزرع قبل أن يطيب، إلا إذا بيع قصيلًا ليُجز أخضر، وأجيز بعد أن يطيب ويبس (ص 141-140). ويكشف ذلك عن استعمال الزرع في صورتين: محصولًا حبيًا عند النضج، وعلفًا أخضر للحيوان قبل النضج. ومن ثم تتداخل الزراعة مع تربية الماشية، ولا تعمل كل واحدة منهما في نطاق منفصل.

أما تنظيم العمل الزراعي فيظهر بوضوح في مسائل المشاركة. ففي إحدى النوازل قدم شخص الزريعة، وقدم الآخر الدابة، فقضى الإمام بأن الزريعة لصاحبها ولصاحب الدابة أجرة دابته (ص 145). وفي مسألة أكثر تفصيلًا اشترك رجلان في الزرع، فجعل أحدهما البذر، وجعل الآخر «الزوج والدراع»، وفسر المحقق الزوج بالثورين أو الدابتين المستعملتين في جر المحراث، بينما يشير «الدراع» إلى أداة العمل أو المحراث. ورأى الجواب أن المشاركة المعتادة ينبغي أن تتعادل فيها عناصر الإنتاج، وإلا كان الزرع لصاحب البذر ولصاحب الدابة والأداة أجر المثل (ص 148-147).

توفر هذه المسائل مادة لإعادة بناء ما يمكن تسميته عقد الإنتاج الزراعي النفوسي: الأرض، والبذر، والحيوان، والمحراث، والعمل، ثم المحصول. وهي تبين وجود تفاوت في ملكية عناصر الإنتاج؛ فقد يمتلك شخص البذور ولا يمتلك دابة الحرث، بينما يمتلك آخر الحيوان والأداة. ومن هنا نشأت الحاجة إلى الشراكة أو الإجارة.

ويذكر الكتاب أيضًا حرث الأرض، وغرس الأشجار، وعمارة الجنان، وبناء الحيطان حول الأرض (ص 146). فالزراعة لم تكن مجرد بذر موسمي، بل شملت إنشاء البساتين وغرس الأشجار وإحاطة الملك بسور أو حائط. وفي نزاع على أرض غير محوطة ولا محازة، رُبطت الأولوية بمن سبق إليها وحازها أو حرثها، وأصبح الحرث دليلًا على الاستيلاء والاستغلال (ص 187-186). وبذلك يمكن توظيف الكتاب في دراسة تطور الملكية الزراعية، والفرق بين الأرض المباحة والأرض المحازة، ودور العمل الزراعي في إثبات الحق.

وتبرز مسألة سرقة الشعير ثم زرعه أهمية التحول الذي يطرأ على المال الزراعي؛ فقد اختلف في حق صاحب الشعير بين تضمين السارق قيمة الحبوب وترك الزرع له، أو أخذ الزرع الناتج كله، واختار الإمام عبد الوهاب الرأي الثاني (ص 150). وهذه النازلة تكشف عن القيمة الاقتصادية للناتج الزراعي، وعن الصلة بين ملكية البذرة وملكية الثمرة المتولدة عنها.

ثالثًا: الرعي وتربية الحيوان

تمثل مسائل زكاة الحيوان سجلًا دقيقًا لأنواع الماشية المعروفة لدى المجتمع: الغنم، والماعز، والبقر، والإبل. ويبدأ نصاب الغنم من أربعين شاة، ثم تتغير الفريضة بتغير العدد، مع استبعاد الهرمة وذات العوار وبعض الأنواع ذات الوظائف الإنتاجية، مثل الأكولة، والربى التي تربي ولدها، والماخض الحامل، والفحل (ص 70-68). وهذه المصطلحات ليست فقهية مجردة، بل تعكس تصنيفًا رعويًا للحيوان بحسب السن والصحة والخصوبة والاستعمال.

وتذكر المسائل الجذعة من الضأن والثنية من المعز، وأولاد الغنم في عامها، والتمييز بين الضأن والماعز عند أخذ الزكاة من النوع الغالب (ص 69، 71، 75). ومن ثم يمكن استخراج معجم كامل لأعمار الحيوانات وصفاتها الإنتاجية. كما يمكن معرفة أن القطيع لم يكن وحدة متجانسة، بل كان يضم الحيوانات المعدة للتكاثر، والحيوانات الحلوب، والفحول، والصغار، والمريضة أو المعيبة.

وتفرق إحدى النوازل بين الجمال المعدة للتجارة والجمال السائمة؛ فإن كانت للتجارة زُكيت باعتبار قيمتها التجارية، وإن كانت سائمة عوملت معاملة ماشية الرعي (ص 76). وهذه التفرقة تكشف عن وظيفتين للإبل: وظيفة رعوية إنتاجية، ووظيفة تجارية بوصفها مالًا معدًا للبيع. وقد تكون لها كذلك وظيفة النقل، وإن لم يكن هذا هو موضوع السؤال المباشر.

وتظهر منتجات الرعي في مواضع متعددة. فقد ورد بيع الصوف وهو لا يزال على الغنم، وأجيز فصله في الحكم عن بيع الحيوان نفسه (ص 137). كما تناولت المسائل اللبن والزبد واللحم والشحم، وميزت بينها في الأيمان والمبادلات (ص 93-92). ويشير سؤال الزوج الذي لا يملك إلا الشعير وبعض أنواع النسيج إلى ارتباط الغذاء اليومي بالحبوب، في حين يظهر اللحم واللبن ضمن موارد القطيع والطعام المتاح (ص 80-79، 110-109).

أما إدارة الحيوان الضال فتظهر في وجوب التعريف به سنة، ثم التصدق به عند تعذر معرفة صاحبه. وأُحيل أمر حلبه وجزه ونفقته إلى السلطة التي تختار ما يحقق المصلحة (ص 169). وتكشف النازلة عن وجود رعاة أو أشخاص يتولون حفظ الحيوان، وعن دور القضاء أو السلطان في إدارة المال الذي غاب مالكه.

وتسجل إحدى القضايا نزاعًا بين صاحب حمل من العلف أو الشعير وراعي غنم رعى القطيع فيه، فساق صاحب الحمل الغنم، وهرب الراعي، ثم تدخل والد الراعي وضرب صاحب الحمل. وانتهى الحكم إلى مؤاخذة كل طرف بما أحدثه من اعتداء (ص 181-180). وتفيد هذه القضية في دراسة الاحتكاك بين المزارعين والرعاة، وحماية الأعلاف والمحاصيل، وردود الفعل العائلية، وتحويل النزاع من الانتقام المباشر إلى القضاء.

رابعًا: اللباس والمنسوجات والثقافة المادية

يمكن استخراج معلومات مهمة عن اللباس من الأسئلة المتفرقة في أبواب الطهارة والنكاح والبيع. فقد وردت ألفاظ الثوب والكساء والخف والقطن والكتان والصوف والتليس. وفي باب النفقة سئل عن رجل لا يستطيع أن يوفر لزوجته ما تأكل وما تلبس من القطن والكتان، لكنه يستطيع توفير لباس من الصوف أو التليس، فقضى الجواب بأن الواجب مرتبط بقدرته، وأن القطن والكتان والصوف والتليس جميعًا مواد يمكن أن يتخذ منها اللباس (ص 110-109).

وتدل هذه النازلة على وجود تدرج اجتماعي ورمزي بين الأقمشة. فالمرأة وُصفت بأنها «منعمة أو مشرفة»، لكنها لا تستطيع إلزام الزوج بما يفوق طاقته. ويمكن قراءة ذلك بوصفه صراعًا بين مستوى اللباس المتوقع اجتماعيًا وبين القدرة الاقتصادية للأسرة. كما أن ذكر القطن والكتان والصوف والتليس يكشف عن تنوع المواد النسيجية، من الأنسجة الألين والأعلى قيمة إلى الأقمشة الخشنة أو الأقل كلفة.

ويظهر الثوب أيضًا في أبواب الطهارة؛ فقد سئل عن الصلاة على الجنازة بثوب غير

طاهر، وعن تطهير الثوب بصب الماء أو بالمطر الغزير (ص 44، 46). وتبين هذه المسائل أن الثياب كانت ممتلكات محدودة القيمة لا يسهل استبدالها دائمًا، ولذلك اهتم الناس بإمكان تطهيرها وإعادة استعمالها.

كما بحث الكتاب حكم صوف الميتة إذا كان مبلولًا، وأشار إلى غسله وتنظيفه والانتفاع به، فضلًا عن حكم الجلود بعد الدباغ (ص 49، 55). وتتيح هذه النصوص دراسة سلسلة إنتاج الملابس والمواد المنزلية، بدءًا من الحيوان، مرورًا بالجز والغسل والدباغ، وصولًا إلى النسيج واللباس.

وفي مسألة تتصل بالصداق اشترى رجل للمرأة ثوبًا بخمسين دينارًا، ثم تبين أنه لا يساوي إلا قدرًا يسيرًا، فحكم بفساد البيع لما فيه من شرط وغبن فاحش (ص 102). وتثبت النازلة أن الثياب قد تؤدي وظيفة مالية داخل معاملات الزواج، وأن قيمتها تخضع للتقدير والمقارنة، وأن التلاعب بقيمتها كان سببًا للنزاع.

خامسًا: الأسواق والتجارة والعقود

يحتل البيع والشراء مساحة واسعة من الكتاب، ويكشف عن سوق نشطة تتداول فيها الحبوب والثمار والحيوان والصوف والزيت والكساء والماء. ومن أوضح النصوص سؤال من ينزل «بموضع مثل جبل نفوسة» فيشتري الطعام من الأندر بقصد بيعه والربح منه: هل يعد محتكرًا؟ فجاء الجواب بأن الاحتكار لا يحل، ولا يسع طلب الضرر بالمسلمين (ص 131). ويفيد النص في إثبات وجود أماكن تجمع فيها الحبوب أو تخزن، ووجود تجار يشترون الطعام لإعادة بيعه.

وتظهر حماية المشتري في مسألة شراء دابة ثم اكتشاف عيب فيها، ومسألة الوكيل الذي يشتري السلعة لغيره؛ فالوكيل لا يستحق ربحًا إلا إذا كان الشراء لنفسه ثم باعها لطالبها بربح معلوم (ص 132). وهذه التفرقة تدل على معرفة المجتمع بالوكالة التجارية والمرابحة وضمان العيب.

وتناول الكتاب بيع ثمار الجنان بالنسيئة، وبيع التين قبل اكتمال صلاحه، وبيع الزرع قبل أن يطيب. والأصل في هذه الأحكام منع الغرر والجهالة، مع إجازة البيع حين تصبح الثمرة معلومة قابلة للتسليم (ص 133، 137-136، 141-140). ومن خلال هذه المسائل يمكن دراسة أسواق المحاصيل المستقبلية، ومحاولات المزارعين الحصول على الثمن قبل الحصاد، وموقف الفقه من المخاطرة الزراعية.

كما تعرضت الفتاوى للمبادلة بين أنواع الطعام: الحوت الطري والمالح، والطير، والحنطة، والثوم والبصل، والزيتون، والزيت، والشحم، والسمن، واللحم، والماء واللبن (ص 135-139). ولا تكشف هذه المواد عن الأحكام الربوية فقط، بل تقدم قائمة بالسلع الغذائية المتداولة، وتبين أن المبادلة العينية ظلت حاضرة إلى جانب النقد.

وتكتسب مسألة مبادلة الماء باللبن أهمية خاصة، لأنها تذكر «أرض العطش» والمواضع التي يباع فيها الماء (ص 138). وهذا يدل على أن الماء قد يتحول إلى سلعة في ظروف الندرة، وأن قيمته تتغير بحسب البيئة. ويتأكد ذلك بالسؤال عن شراء نهر من دون أرض أو استسلاف ماء نهر جار (ص 140). ومن ثم يمكن استخدام الكتاب في دراسة تاريخ حقوق المياه وتسليع الموارد الطبيعية.

وتظهر النقود في صور الدينار والدرهم، والصرف بينهما، وشراء الكساء بدينار إلا درهمين، وما يترتب على جهالة الثمن أو تأخير القبض (ص 139). كما وردت الكتابة والإشهاد في البيع بوصفهما وسيلة لحفظ الحقوق (ص 140)، وكراء المكاييل والموازين، وإقراض الطعام ثم استبداله بالدراهم (ص 143-144). وتكشف هذه النوازل عن أدوات السوق: النقد، والمكيال، والميزان، والدين، والشهادة، والوكالة.

وتمتد شبكة التعامل خارج جبل نفوسة؛ ففي مسألة سُلف الطعام في تيهرت ثم مطالبة المدين به في مكة، فُرق بين الطعام الذي يطالب به في موضع القرض، والدينار الذي يمكن طلبه حيث وجد المدين (ص 144). وتبين هذه المسألة حركة الأشخاص بين مدن المغرب والحجاز، ووجود التزامات مالية ترافق المسافرين والتجار والحجاج.

وتشمل صور الاستثمار المضاربة؛ إذ أجاز الكتاب للعامل أخذ نصيبه من الربح، كما أجاز له أن يأكل قدر قوته من مال المضاربة إذا سافر به للتجارة (ص 145-146). وهكذا كان النشاط التجاري قائمًا على شراكة بين صاحب رأس المال والعامل المسافر، لا على البيع المباشر وحده.

ويبرز التعدد الديني في السوق؛ فقد أجيز شراء الغنم التي يكرهها اليهود ما دامت غير محرمة شرعًا، وأجيز شراء ثمار الجنان التي أوقفها النصارى لكنائسهم، مع العلم بأن أثمانها تنفق على الكنائس (ص 137، 141). ولا يعني ذلك بالضرورة تحديد حجم الجماعات الدينية في الجبل، لكنه يدل على أن السائلين عرفوا معاملات اقتصادية مع اليهود والنصارى، وأن الفقه نظمها ضمن السوق العامة.

سادسًا: الزواج والعادات والتقاليد الأسرية

يقدم باب النكاح مادة ثرية لدراسة العرف الأسري. ومن أبرز المصطلحات «النحلة» التي كان الأب أو الأخ أو الولي يشترطها عند تزويج الفتاة. وقد قرر الجواب أن النحلة إذا أخذها الأب المحتاج كانت له، أما إن أخذها الأخ أو ولي غير الأب فهي للفتاة إلا إذا وهبتها له (ص 98). وتبدو النحلة هنا أداءً ماليًا موازيًا للصداق أو مرتبطًا بإجراءات الزواج، وهو ما يسمح بدراسة الفروق بين الحق الشرعي للمرأة والمبالغ العرفية التي يطالب بها الأولياء.

ويظهر الصداق في صورة عاجل وآجل. فقد امتنعت امرأة عن الدخول على زوجها حتى يدفع لها عاجل صداقها كاملًا، فأثبت الجواب حقها في النفقة والكسوة مع منع الزوج من الوصول إليها حتى يؤدي النقد المتفق عليه (ص 120). وتدل النازلة على أن الدخول لم يكن أثرًا آليًا للعقد، بل ارتبط باستكمال التزامات مالية واضحة.

وتبين مسألة عدم تحديد المهر أن للمرأة صداق مثلها، أي ما يساوي صداق النساء المماثلات لها، مع اعتماد المقدار الأوسط من دون مبالغة (ص 123-124). وهذه القاعدة تتيح للباحث دراسة وجود معيار اجتماعي لقيمة الصداق بحسب الأسرة والمكانة والبيئة.

وتظهر للمرأة قدرة مالية وقانونية معتبرة؛ فهي تستطيع أن تهب زوجها من صداقها، وأن تفتدي نفسها منه، وأن تشتري طلاقها، وأن تمتنع عن الدخول قبل قبض حقها. إلا أن الكتاب قيد ما يأخذه الزوج في الافتداء بألا يزيد على ما سبق أن أعطاها، إلا عند تلفه فيأخذ مقداره (ص 108-109، 121، 123).

كما عالج الكتاب حال المرأة الغريبة التي تبعد عن أوليائها مسيرة أيام، فأجاز أن يعين السلطان أو جماعة المسلمين من يزوجها برضاها (ص 100-101). وتكشف المسألة عن حركة نسائية بين المناطق، وعن وجود نساء بعيدات عن الجماعة القرابية، وعن تدخل مؤسسات المجتمع لسد غياب الولي.

وتتكرر أهمية رضا المرأة؛ فقد اعتبر تزويج الأخ لأخته صحيحًا إذا كان برضاها ثم أجازه الأب، كما جُعل للصغيرة الخيار عند بلوغها في بعض الصور (ص 99، 105، 127-128). ورغم ارتباط الزواج بالولي والأسرة، لم يغب عنصر القبول الشخصي للمرأة.

ويقدم الكتاب كذلك معلومات عن ملكية المرأة داخل المنزل. ففي نزاع بعد وفاة الزوج، قرر أن القول قول الزوجة في الأموال الموجودة في موضع سكناهما ما دامت في

يدها، وعلى الأولاد إثبات أنها كانت لأبيهم (ص 186). وهذه النازلة مهمة في دراسة الاقتصاد المنزلي وملكية النساء للمتاع والثياب والأدوات، وعدم افتراض أن كل ما في البيت ملك للزوج.

أما باب الأيمان والنذور فيحفظ نماذج من العبارات المتداولة، مثل: «الله عليك لتأكل»، و«الحلال علي حرام»، و«سود الله وجهه إن فعل»، والحلف بعدم ركوب دابة شخص، أو عدم شرب لبن غنم معينة (ص 93-90). ويمكن التعامل مع هذه الصيغ بوصفها مادة لدراسة لغة القسم والوعود والضغط الاجتماعي، ومدى حضور الأيمان في تنظيم العلاقات اليومية.

سابعًا: القضاء والسلطة وتنظيم النزاعات

لا تكتمل صورة المجتمع من دون دراسة مؤسساته. فالكتاب يحيل كثيرًا من النزاعات إلى القاضي أو السلطان أو الإمام. وفي مسألة الدين امتنع المدين عن الأداء ورفع السلاح، ففرق الجواب بين حق الدائن وحق السلطة؛ فلا يجوز للدائن أن يقاتل من أجل دينه، وإنما يرفع الأمر إلى السلطان، ويكون استعمال القوة من اختصاص السلطة إذا قاوم المدين تنفيذ الحكم (ص 175-174).

ويظهر السلطان كذلك في تنظيم الحيوان الضال، وتعيين ولي لمال الطفل، وإجبار المتخاصمين على الحضور، وتقدير الحبس بحسب حال الناس، وتعيين من ينظر في الحقوق (ص 69، 169، 172، 183-182، 190). وتدل هذه المواضع على أن المجتمع الذي تكشفه النوازل لم يكن يعتمد فقط على التسوية العائلية، بل عرف قضاءً وسلطة وإجراءات وشهودًا ووكلاء.

كما أن النزاعات الزراعية والرعوية والزوجية لم تعالج باعتبارها أمورًا خاصة تمامًا. فحرث الأرض، وتعدي القطيع، وديون التجارة، وحقوق المرأة، وملكية متاع البيت، كلها أمور يمكن رفعها إلى القضاء. وهذا يجعل «مسائل نفوسة» مصدرًا لدراسة الانتقال من العرف والانتقام الفردي إلى التنظيم المؤسسي للحقوق.

ثامنًا: حدود الاستفادة ومقترحات البحث

على الرغم من غنى الكتاب، فإن استعماله التاريخي يحتاج إلى احتياط. فالفتوى تثبت أن المسألة كانت قابلة للتصور ومعروفة للسائل، لكنها لا تثبت دائمًا شيوعها أو وقوعها مرات كثيرة. كما أن بعض الأجوبة تنقل خلافات فقهية وأخبارًا من المشرق، فلا يجوز نسبة كل تفصيل فيها إلى الواقع النفوسي.

كذلك لا بد من التمييز بين كلام الإمام وتعليقات المحقق المطبوعة في الهوامش. فبعض الشروح والأمثلة تتصل بميزاب أو بواقع لاحق، ولا ينبغي إدخالها في وصف جبل نفوسة في القرن الثاني أو الثالث الهجريين.

ومع ذلك يمكن بناء مشروع بحثي واسع يقوم على فهرسة جميع النوازل بحسب المجالات الآتية: النباتات والمحاصيل، والحيوانات، والمياه، والأرض، والعمل، والنقود، والسلع، واللباس، والزواج، والمرأة، والعبيد، والقضاء. ثم تقارن النتائج بكتاب «السير» للشماخي، وكتب الطبقات، والمصادر الجغرافية، والبحث الأثري، والمعجم الأمازيغي المحلي. وقد تكشف المقارنة استمرار بعض المصطلحات والمؤسسات الزراعية والعرفية حتى العصور المتأخرة.

تاسعًا: الطب والعلاج والصحة

يتيح كتاب «مسائل نفوسة» استخلاص جانب مهم من تصورات المجتمع للمرض والعلاج والصحة، وإن لم يكن مؤلَّفًا طبيًّا بالمعنى المباشر. فالمسائل المتعلقة بالطهارة، واستعمال المواد النجسة في التداوي، والعيوب المرضية المؤثرة في الزواج، والجروح الناجّة عن الاعتداءات، تكشف عن معرفة عملية بالجسد والمرض، وعن الطريقة التي أخضع بها الفقه الممارسات العلاجية والصحية للضوابط الشرعية. وتبرز أهمية هذه المادة في أنها لا تصف النظريات الطبية، وإنما تنقل المشكلات التي واجهها الناس عند المرض أو الإصابة أو البحث عن العلاج.

ومن أوضح هذه المسائل السؤال عن حكم العلاج بالنجس، الوارد في الصفحة 54. فمجرد طرح السؤال يدل على معرفة نوع من التداوي بمواد كانت تُعد نجسة أو يثار خلاف بشأن طهارتها، وعلى أن الحاجة العلاجية قد دفعت الناس إلى الاستفسار عن مدى جواز استعمالها. ويمكن أن تشير هذه المسألة إلى وجود ممارسات علاجية متداولة في الطب الشعبي أو الطب التجريبي، تعتمد مواد حيوانية أو عضوية لم يكن استعمالها مقبولًا في الأحوال العادية. غير أن النص لا يكفي وحده لتحديد طبيعة المادة المستعملة أو نوع المرض الذي عولج بها؛ ولذلك تظل قيمته الأساسية في إثبات وجود التداوي بالمواد المختلف في طهارتها، ووجود وعي فقهي بالتعارض المحتمل بين الضرورة العلاجية وأحكام النجاسة.

وتقدم المسائل المتعلقة بالجنون والبرص والمرض مادة مهمة لدراسة الأمراض التي عدّها المجتمع مؤثرة في الأهلية القانونية والعلاقات الزوجية. فقد ناقش الكتاب أثر الجنون والبرص في النكاح والصداق، وما يترتب على ظهور العيب أو كتمانه، كما تناول

أثر المرض في التصرفات المالية والحقوق المترتبة عليها (ص 107، 109، 151). وتكشف هذه النوازل عن التمييز بين المرض العارض، والمرض المزمن، والعيب الذي قد يؤثر في استمرار الزواج أو في صحة الرضا بالعقد. كما تدل على أن بعض الأمراض لم تكن مسألة شخصية محضة، بل كانت ذات آثار أسرية ومالية وقضائية.

ولا ينبغي فهم ذكر البرص والجنون باعتباره وصفًا طبيًا دقيقًا وفق التصنيفات الحديثة، لأن دلالات هذه المصطلحات في النصوص القديمة أوسع من الاصطلاح الطبي المعاصر. فقد يشمل لفظ الجنون حالات متعددة من اضطراب الإدراك أو السلوك، بينما قد يستعمل البرص لوصف تغيرات جلدية ظاهرة. ومع ذلك، فإن تكرار هذه الأمراض في مسائل الزواج والتصرف يكشف عن حضورها في الوعي الاجتماعي، وعن اعتبارها من الحالات التي تستوجب الإفصاح أو إعادة النظر في بعض الالتزامات. ويمكن مقارنة هذه المادة بما ورد في كتب الطب والفقه والسير لتحديد نظرة المجتمع النفوسي إلى المرض والوصمة الاجتماعية المصاحبة لبعض الحالات.

أما أبواب الجنايات والخصومات فتقدم تفاصيل واسعة عن الجروح والإصابات الجسدية والتعويضات المترتبة عليها (ص 180-176). فالتفريق بين الضرب البسيط والجراحة، وبين الإصابة التي تترك أثرًا وتلك التي تزول، وبين درجات الضرر الواقع على أعضاء الجسم، يدل على معرفة عملية بأوصاف الإصابات ونتائجها. ولم تكن هذه المعرفة طبية مستقلة، بل ارتبطت بتقدير المسؤولية والضمان والدية أو التعويض.

وتساعد هذه المسائل على دراسة العنف اليومي وأنواعه، والأدوات أو الأفعال التي قد تؤدي إلى الإصابة، والطريقة التي كان المجتمع يحدد بها خطورة الجرح. كما تكشف عن دور القاضي أو أهل الخبرة في تقدير الضرر، لأن تحديد مقدار التعويض يتطلب في كثير من الحالات معرفة موضع الإصابة وعمقها وما نتج عنها من عجز أو أثر دائم. وهكذا تتحول أبواب الجنايات إلى مصدر غير مباشر لتاريخ الجراحة والإصابات، وإن كانت غايتها الأصلية بيان الحكم الشرعي لا وصف أساليب العلاج.

وتعد مسائل الطهارة والنظافة الواردة في الصفحات 57-44 من أغنى المواد التي يمكن توظيفها في دراسة الصحة اليومية. فقد تناول الكتاب أحكام المياه، وتلوث الماء، وغسل الثياب والبدن، وتطهير المواضع والأواني، والنجاسات الحيوانية والبشرية، وأثر المطر في تنظيف الثوب، وكيفية إزالة النجاسة بالماء. وتكشف هذه المسائل عن حضور النظافة في الممارسة اليومية، وعن تعدد مصادر الماء وطرائق استعماله، وعن أهمية الأوعية في حفظه ونقله.

كما أن السؤال عن الماء الذي شرب منه الحيوان، والإناء الذي وضعت فيه اليد، والماء الذي أصاب البدن أو الثوب، يبين مدى الارتباط بين أحكام الطهارة وإدارة الموارد المائية. ففي بيئة قد تعاني محدودية الماء، لم يكن غسل الثياب أو البدن عملية منفصلة عن الواقع الاقتصادي والبيئي، بل خضع لتقدير كمية الماء ومدى كفايتها وطهارتها. ويمكن من خلال هذه المسائل التعرف إلى بعض الأواني المستعملة، وطرق صب الماء ورشه، والفرق بين الماء الجاري والماء المحفوظ في القلال وغيرها من الأوعية.

وتقدم مسائل الحيض والنفاس والغسل، الواردة ضمن هذا القسم، مادة لدراسة الصحة النسائية وتصور المجتمع لدورات الجسد والولادة وما بعدها. صحيح أن النص يعالجها من زاوية الطهارة والعبادة، لكنه يحفظ في الوقت نفسه معلومات عن ملاحظة مدة الحيض والنفاس، واختلاف أحوال النساء، والحاجة إلى التمييز بين الدم الطبيعي وغيره. وهي موضوعات تدل على وجود معرفة تراكمية بالجسد الأنثوي، حتى وإن صيغت داخل إطار فقهي.

وعليه، فإن مادة الطب والصحة في «مسائل نفوسة» تكشف عن أربعة مستويات متداخلة: الممارسة العلاجية، وتمثلات المرض، ومعرفة الإصابات، والنظافة اليومية. وهي تؤكد أن دراسة فقه النوازل يمكن أن تسهم في كتابة تاريخ الصحة في جبل نفوسة؛ إذ تبين المواد المستخدمة في العلاج، والأمراض التي أثرت في الزواج والأهلية، ودرجات الجروح التي استوجبت التعويض، وممارسات غسل الجسد والثياب والأواني. غير أن هذه الاستفادة ينبغي أن تظل حذرة، لأن الكتاب لا يقدم أوصافًا طبية مكتملة، وإنما إشارات فقهية يمكن توسيع دلالتها بالمقارنة مع كتب الطب القديمة، والمصادر الاجتماعية، والممارسات الشعبية التي استمرت في المنطقة.

حدود الاستفادة

لا يجوز اعتبار كل سؤال وصفًا مؤكدًا لما وقع في جبل نفوسة؛ فبعض المسائل افتراضي، وبعضها منقول من كتب أقدم، وبعضها يحيل إلى تيهرت أو مكة أو جماعات خارج الجبل. كما أن الكتاب لا يقدم وصفًا مباشرًا للموسيقى والرقص ومواكب الأعراس والعمارة المنزلية أو تفاصيل اللغة الأمازيغية المحكية. ومع ذلك، فإن اجتماع هذه الشواهد وتكرارها يجعل الكتاب أحد أغنى المصادر لإعادة بناء التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لجبل نفوسة في العصر الرستمي.

جدول النوادر التاريخية والفوائد الاجتماعية في "مسائل نفوسة"

رتبتُ الشواهد بحسب الموضوع العام، وأثبتُّ في العمود الثاني مقتطفًا قصيرًا من النص الأصلي، مع حذف بقية العبارة بعلامة (...) وتصحيح بعض أخطاء الطباعة الواضحة فقط. أرقام الصفحات هي أرقام الصفحات المطبوعة داخل الكتاب، لا ترتيب صفحات ملف PDF.

أولًا: اللغة والتعليم والحياة العلمية

الموضوع	النص الأصلي	الفائدة التاريخية	ص
المعلم والمحضرة	«وذكرت ما للمعلم... قبل اتفاق معه بالمحضرة؟»	إثبات وجود المحضرة أو موضع التعليم، ووجود اتفاق مالي بين المعلم وأهل المتعلمين.	148
تعليم القرآن والكتابة	«ما أخذ المعلم على تعليمه القرآن... وإنما يحل له أن يأخذ الأجر على تعليم الرسائل وحبس نفسه»	يدل على تعليم القرآن والكتابة والرسائل، وعلى تفرغ بعض المعلمين للتدريس مقابل أجر.	148
مراسلات	"رجلًا حلف لا يكلّم فلانًا، فكتب إليه كتابًا"	يدل النص على شيوع المراسلات الكتابية بين الأفراد ولا يقتصر على الفقهاء والحكام	139

ثانيًا: الزراعة والمحاصيل والمياه

الموضوع	النص الأصلي	الفائدة التاريخية	ص
أنواع المزروعات	«البر والشعير والتمر والزبيب والذرة والسلت»	يقدم قائمة بالمحاصيل الأساسية، ويثبت تنوع الإنتاج بين الحبوب والثمار المجففة.	71-72
البقول والزيت	«وذكرت الجلبان والفول والزيت إن كان فيهن العشر أم لا؟»	إثبات زراعة أو تداول الجلبان والفول، وإنتاج الزيت أو تداوله ضمن الاقتصاد المحلي.	72
مقاييس المحاصيل	«إن العشر يجب من ثلاثمائة صاع، وهي خمسة أوساق، والوسق ستون صاعًا»	يفيد في معرفة وحدات قياس الحبوب وتقدير الإنتاج الزراعي والفائض القابل للزكاة.	73
طرق السقي	«ما سُقي بماء السماء أو العيون الجارية... وما سُقي بنحو النضح والمعاناة فنصف العشر»	التمييز بين الزراعة المطرية، والسقي بالعيون، والسقي الذي يحتاج إلى رفع الماء والعمل أو الدواب.	73
القمح والشعير	«إن القمح والشعير يتم بعضها بعضًا»	يدل على زراعتهما معًا، وعلى تقاربهما في نظام القياس والتقدير الاقتصادي.	74

الأنادر وتجارة الحبوب	«من نزل بموضع مثل جبل نفوسة فيشتري الطعام من الأندر، وإنما يريد البيع والربح»	نص مباشر على وجود الأنادر، أي مواضع جمع الحبوب ودرسها، ووجود تجار يشترون المحصول من المنتجين.	131
بساتين التين	«وذكرت رجلًا باع جنانًا له شجر... التين، فباعه بنسيئة إلى أجل»	إثبات وجود بساتين التين وبيع ثمارها بالأجل، بما يدل على اقتصاد بستاني وائتمان زراعي.	133
ملكية الماء	«وذكرت رجلًا ابتاع نهرًا بلا أرض»	شاهد على إمكان التعامل مع حق الماء بوصفه حقًا ماليًا مستقلًا عن الأرض.	140
استسلاف المياه	«أو تسلف ماء قوم وهو نهر جار»	يدل على وجود معاملات مرتبطة بحصص المياه، وعلى محاولة تنظيم إقراض الماء أو الانتفاع به.	140
الزرع الأخضر	«إذا لم يطب الزرع فلا يجوز بيعه إلا من يريد بيعه قصيلًا فيجذه أخضر»	إثبات استعمال الزرع الأخضر علفًا للحيوانات، وتكامل النشاط الزراعي مع الرعي.	141
عناصر الإنتاج الزراعي	«لأحدهما الزريعة وللآخر الدابة»	يدل على شراكات يقدم فيها طرف البذر ويقدم الآخر حيوان الحرث، بسبب تفاوت امتلاك أدوات الإنتاج.	145
المحراث وحيوانات الجر	«للواحد منهما الزريعة وللآخر الزوج والدراع»	يكشف عن عناصر الحرث: البذر، والثوران أو دابتا الجر، وأداة الحرث المسماة «الدراع».	147
الأخطار المناخية	«ثم إن البرد كسر طائفة من الزرع فأخلف قابلًا»	تسجيل أثر البَرَد في المحاصيل، وهو من المخاطر المناخية التي واجهت الزراعة الجبلية.	147
ملكية البذور	«وذكرت رجلًا سرق شعيرًا فزرعه»	يوضح القيمة الاقتصادية للبذور، والخلاف حول ملكية المحصول الناتج من حبوب مسروقة.	150
حيازة الأرض	«إن كانت أرضًا لم يحطها حائط ولم يحزها حائز فهي لمن سبق إليها وحازها»	يفيد في دراسة نشأة الملكية العقارية ودور الحيازة والعمل في إثبات الحق في الأرض.	186-187
الحرث دليل الملكية	«وإن كان هذا المدعي هو الذي حرثها فهي له»	اعتبار الحرث قرينة على الاستغلال والحيازة، لا مجرد عمل زراعي.	187

ثالثًا: الرعي والثروة الحيوانية

الموضوع	النص الأصلي من الكتاب	الفائدة التاريخية والاجتماعية	ص
أنواع الماشية	«وذكرت زكاة الغنم من كم؟... وزكاة الإبل والبقر»	إثبات تربية الغنم والإبل والبقر ضمن الثروة الحيوانية في البيئة التي صدرت منها الأسئلة.	68
حجم قطعان الغنم	«إن السنة في زكاة الغنم من أربعين شاة، حتى تبلغ عشرين ومائة»	يسمح بتقدير أحجام القطعان، ويشير إلى إمكان امتلاك بعض الأسر أعدادًا كبيرة من الأغنام.	69
معجم الرعاة	«لا تؤخذ منهم الأكولة والربى والماخض والفحل»	يقدم تصنيفًا رعويًا للحيوانات: المسمنة، والمرضعة، والحامل، وفحل التناسل.	69-70
أعمار الحيوان	«ولا تؤخذ منها جذعة ولا هرمة ولا ذات عوار»	معرفة تصنيف الحيوان بحسب السن والصحة والعيوب المؤثرة في قيمته.	69
الضأن والماعز	«إذا استوت الضأن والمعز... فإن للمصدق أن يأخذ صدقته من الأكثر منهما»	يدل على وجود قطعان مختلطة من الضأن والماعز، وعلى معرفة النوع الغالب داخل القطيع.	75
الإبل التجارية	«إن كانت الجمال للتجارة فإن فيها زكاة الأموال... وإن كانت سائمة...»	التمييز بين الإبل المعدة للرعي والإبل التي تمثل رأس مال تجاريًا.	76
بيع الصوف	«وذكرت بيع الصوف وهو على الغنم؟ الجواب: بيع الصوف غير بيع الغنم فلا بأس»	إثبات تداول الصوف منتجًا مستقلًا قبل جزه، واتصاله بصناعة الملابس والمنسوجات.	137
الحيوان الضال	«وذكرت الضالة من الحيوان... وهل يجوز لراعيها حلبها أو جزها؟»	الكشف عن نظام حفظ الحيوان المفقود، والتعامل مع لبنه وصوفه ونفقته.	169
دور السلطة	«أما ما ذكرت من لبنها ونفقتها فإن ذلك يرجع إلى السلطان»	يدل على تدخل السلطة في إدارة الحيوان الضال وحماية حقوق مالكه الغائب.	169
الرعاة والخدم	«له غنم وإبل وله من يرعاها من خدمه»	إثبات وجود رعاة أو خدم مخصصين للعناية بالقطعان، وربما وجود أسر ثرية تجمع التجارة والرعي.	64

رابعًا: الطعام والشراب والعادات الغذائية

الموضوع	النص الأصلي من الكتاب	الفائدة التاريخية والاجتماعية	ص
الحبوب الغذائية	«البر والشعير... والذرة والسلت»	تحديد أهم الحبوب التي قام عليها النظام الغذائي والإنتاج الزراعي.	27-17
التمر والزبيب	«الثمار التي تقع عليها الزكاة... التمر والزبيب»	يدل على أهمية الفواكه المجففة القابلة للتخزين والنقل والتجارة.	17
الشعير غذاء يومي	«وشعير تعيش به»	شاهد على اعتماد بعض الأسر، وخاصة محدودة الموارد، على الشعير غذاءً أساسيًا.	901
اللبن والزبد	«حلف... لا يشرب لبن هذه الغنم فأكل زبدها»	إثبات تصنيع الزبد من اللبن، والتمييز بين منتجات الألبان في الاستعمال اليومي واللغوي.	39-29
اللحم والشحم	«من أكل شحمًا فإنه لم يأكل لحمًا... والشحم غير اللحم»	يدل على حضور اللحم والشحم بوصفهما مادتين غذائيتين منفصلتين.	39
السمك الطازج والمملح	«يبيع الحوت الطري بالحوت المالح نسيئة»	إثبات تداول السمك المملح، وهو أسلوب حفظ يسمح بوصوله إلى المناطق الداخلية.	531
الطيور والسمك	«يبيع الحيتان بالطير نسيئة»	يبين دخول الأسماك والطيور في المبادلات الغذائية والأسواق.	531
الثوم والبصل	«ويكره الثوم بالبصل... والبصل بالحنطة»	إثبات تداول الثوم والبصل والحنطة، واستعمالها سلعًا قابلة للمبادلة.	631
الزيت والسمن	«وذكرت الزيت بالسمن نسيئة»	يدل على استعمال الدهون النباتية والحيوانية، ودخولها في المبادلات التجارية.	831
بيع الماء	«الماء باللبن في أرض العطش أو حيث يباع الماء واللبن»	من أوضح الشواهد على قيمة الماء الاقتصادية وتحوله إلى سلعة في البيئات الجافة.	138
النبيذ والأواني	«الآنية: الأقداح والقصاع، دخلها النبيذ وهو حلو»	يقدم معلومات عن المشروبات، وعن استعمال الأقداح والقصاع في الحفظ والتقديم.	45

لحوم الوحوش والطيور	«ما يؤكل أكله من الطير والسبع»	يدل على معرفة المجتمع بأنواع الحيوانات البرية وإمكان صيدها أو أكلها.	55
الغذاء والعلاج	«هل يصح للرجل أن يعالج بلبن امرأته أو يشربه؟»	شاهد على استعمال اللبن في العلاج عند الضرورة، وعلى ممارسات طبية منزلية.	57

خامسًا: اللباس والمنسوجات والزينة

الموضوع	النص الأصلي من الكتاب	الفائدة التاريخية والاجتماعية	ص
مواد الملابس	«تأكل وتلبس من القطن والكتان... إلا أنه يقدر على تليس»	إثبات استعمال القطن والكتان والتليس، وتفاوت قيمة وجودة الأقمشة.	109
الصوف في اللباس	«إن عليه قدر ما يجد من قطن أو كتان أو صوف أو تليس»	يقدم قائمة مباشرة بمواد اللباس التي عرفها المجتمع.	109
مكانة التليس والصوف	«لأن التليس والصوف قد يلبسها الصالحون»	يدل على أن التليس والصوف لم يكونا مقصورين على الفقراء، بل عُدا لباسًا مقبولًا اجتماعيًا ودينيًا.	109
اللباس والمكانة	«وهي منعمة أو مشرفة»	يكشف عن اختلاف توقعات النساء في اللباس بحسب الأصل الاجتماعي ومستوى المعيشة.	109
ثمن الثياب	«ابتاع لك ثوبًا بخمسين دينارًا... ثم ظهر أن ما باع لها... لا يساوي قيراطًا»	شاهد على ارتفاع قيمة بعض الثياب، وعلى إمكان الغبن والتلاعب بأسعارها في معاملات الزواج.	102
الكساء والنقود	«بعتك هذا الكساء بدينار إلا درهمين»	يربط تجارة الملابس باستعمال الدينار والدرهم وتحديد السعر بالنقدين.	139
الخف	«في وجوب خلع الخف للوضوء»	إثبات استعمال الخفاف الجلدية ضمن اللباس اليومي.	52
غسل الثياب	«إن الثوب إذا سكب عليه الماء وبلغ مبلغًا يطهر بمثله... فهو طاهر»	يبين طرق تنظيف الثوب والمحافظة عليه وإعادة استعماله.	46
صوف الميتة	«وذكرت صوف الميتة إذا كانت مبلولة»	يفيد في دراسة غسل الصوف وتنظيفه والاستفادة منه في صناعة النسيج.	49
دباغ الجلود	«قد جاء أن دباغها طهورها»	إثبات ممارسة دباغ الجلود والانتفاع بها بعد معالجة جلد الحيوان.	55

الحلي	«زكاة الذهب والفضة من حلي وغير ذلك»	يدل على امتلاك الحلي الذهبية والفضية بوصفها زينة ومدخرًا ماليًا.	68-71

سادسًا: الزواج والأسرة والمرأة

الموضوع	النص الأصلي من الكتاب	الفائدة التاريخية والاجتماعية	ص
النحلة	«وذكرت النحلة إذا شرطها الأب أو الأخ»	الكشف عن مال عرفي يُشترط عند الزواج، إلى جانب الصداق المستحق للمرأة.	89
حق المرأة في النحلة	«إن كان إنما أخذها أخ أو ولي غير الأب فليس له فيها شيء، وهي للجارية»	يدل على محاولة حماية المال المخصص للمرأة من استيلاء الأولياء عليه.	89
زواج الصغيرة	«نكح جارية لم تبلغ وابتنى بها... فإذا بلغت وأجازت النكاح فهو جائز، وإن كرهت انتقض النكاح»	يبين وجود تزويج الصغيرات، مع إقرار حقهن في الاختيار عند البلوغ في هذه الصورة.	99
المرأة الغريبة	«امرأة غريبة ليس لها ولي في الموضع الذي هي فيه، وبينها وبين أوليائها مسيرة أيام»	دليل على انتقال النساء بين المناطق وبعد بعضهن عن جماعة القرابة.	001
تدخل الجماعة في الزواج	«اجتمعت جماعة المسلمين فيوقفون لها رجلًا فيزوجها من أحبت برضاها»	يكشف عن وظيفة اجتماعية وقضائية للجماعة عند غياب الولي والسلطة.	001-101
الصداق والملابس	«ابتاع لك ثوبًا بخمسين دينارًا... وأخذت صداقك»	يدل على إدخال الثياب في التسويات المالية المرتبطة بالزواج والصداق.	201
نفقة الزوجة	«رجل لا يقدر لامرأته على ما تأكل وتلبس من القطن والكتان»	يقدم صورة عن مسؤولية الزوج في توفير الطعام والكسوة بحسب قدرته.	901
الصداق العاجل	«لا أصير في يد هذا الرجل إلا أن يأتي بعاجل صداقي كله»	إثبات حق المرأة في الامتناع عن الانتقال إلى بيت الزوج حتى تقبض الجزء العاجل من مهرها.	021
النفقة قبل الدخول	«إن أرادت المرأة أن تطلب منه نفقتها وكسوتها كان لها ذلك واجبًا عليه»	يدل على أن الحقوق المالية للزوجة قد تثبت قبل الدخول، مع استمرار منع الزوج منها حتى يؤدي الصداق.	021
الخلع	«وذكرت رجلًا افتدت منه امرأته بالمال»	إثبات ممارسة الافتداء أو الخلع وسيلةً لإنهاء الزواج.	321
حدود مال الخلع	«لا يجوز له أن يأخذ منها إلا ما أعطاها... ولا يأخذ منها أكثر»	حماية المرأة من استغلال الزوج ماليًا عند طلبها الفراق.	123

ملكية متاع البيت	«كل المال مما في يد الرجل والمرأة... وفي موضع سكناهما... القول فيه قول المرأة»	نادرة مهمة تثبت إمكان ملكية المرأة للأثاث والمتاع الموجود في بيت الزوجية.	186
السيف والسراج	«ترك سيفًا وترك سراجًا... القول قول المرأة لأنه مما كان في يدها»	يبين أن المرأة قد تملك أدوات منزلية ومتاعًا ذا قيمة، ولا تنتقل تلقائيًا إلى الورثة.	187
المرأة أمام القضاء	«امرأة ادعى عليها رجل بحق فدعاها إلى القاضي»	إثبات أن المرأة كانت طرفًا مباشرًا في الخصومات والدعاوى القضائية.	182

سابعًا: الولادة والصحة والموت

الموضوع	النص الأصلي من الكتاب	الفائدة التاريخية والاجتماعية	ص
النفاس	«امرأة نفست... ولم تر الطهر حتى مضت عليها أربعون ليلة»	معرفة التصورات المتعلقة بمدة النفاس والعناية بالمرأة بعد الولادة.	53
العلاج بالخمر	«وذكرت من يعالج بخمر أو بلحم خنزير»	يدل على وجود علاجات شعبية أو طبية تستعمل مواد محرمة، وحاجة الناس إلى السؤال عن مشروعيتها.	54
موت المرأة بين الرجال	«امرأة توفيت بين رجال وليس معهم امرأة... أو رجل هلك بين النساء»	يكشف عن حالات وفاة أثناء السفر أو العزلة، وعن التقسيم الجندري لمهمة غسل الموتى.	51
وفاة النصرانية في النفاس	«رجلًا نكح نصرانية فحضرها النفاس وخرج رأس الولد... ثم إن المرأة هلكت»	نادرة عن الزواج المختلط ومخاطر الولادة، وعن معالجة وفاة الأم والطفل المختلفين في الانتماء الديني.	68
مقابر منفصلة	«يدفن في مقبرة المسلمين... وتدفن أمه مع أهل دينها في مقابرهم»	إثبات وجود مقابر منفصلة للمسلمين وأتباع الديانات الأخرى.	68

ثامنًا: الديانات والتعايش بين الجماعات

الموضوع	النص الأصلي من الكتاب	الفائدة التاريخية والاجتماعية	ص
الزواج الإسلامي المسيحي	«رجلًا نكح نصرانية»	شاهد صريح على وقوع أو تصور الزواج بين المسلم والمسيحية في المجتمع أو محيطه.	68
اليهود والأسواق	«وذكرت شراء الغنم التي يكره اليهود»	يدل على معرفة المسلمين بالعادات الغذائية اليهودية، وعلى وجود تعامل اقتصادي معهم.	137

النصارى والصابئون	«ثمار الأجنة التي يضعها النصارى والصابئون لكنائسهم»	إثبات حضور جماعات دينية غير مسلمة، ووجود أملاك أو ثمار تخصص عائداتها لمؤسساتها الدينية.	141
اقتصاد الكنائس	«جعلوها للكنائس وتنفق أثمانها على الكنائس»	يدل على وجود موارد اقتصادية مخصصة للكنائس واندماج منتجاتها في السوق المشتركة.	141
طرابلس والاختلاف الفقهي	«قول أهل طرابلس: هي لمن أحرز أهلها»	إثبات تبادل الآراء الفقهية والمؤسسية بين جبل نفوسة وطرابلس.	77-78

تاسعًا: التجارة والأسواق والنقود والسفر

الموضوع	النص الأصلي من الكتاب	الفائدة التاريخية والاجتماعية	ص
تجّار الحبوب	«يشتري الطعام من الأندر، وإنما يريد البيع والربح»	إثبات وجود تجّار وسطاء يشترون الحبوب من مواضع الدرس ثم يعيدون بيعها.	131
الاحتكار	«إن الاحتكار لا يحل ولا يسع لأحد أن يطلب الضرر»	يدل على وعي المجتمع بخطر احتكار الغذاء ورفع أسعاره.	131
البيع بالنسيئة	«باعه بنسيئة إلى أجل»	إثبات استعمال البيع المؤجل والائتمان في تجارة المحاصيل الزراعية.	133
المبادلات العينية	«الزيت بالسمن... والماء باللبن»	يدل على بقاء المقايضة إلى جانب الاقتصاد النقدي.	138
الدينار والدرهم	«الكساء... بدينار إلا درهمين»	إثبات تداول الدينار والدرهم، وإمكان تركيب الثمن من أكثر من نوع نقدي.	139
توثيق الحقوق	«أمر بالإشهاد تحصينًا للحقوق»	يدل على أهمية الشهود وتوثيق عمليات البيع لحماية حقوق الأطراف.	140
انتقال الديون	«أما الدينار... يحكم عليه بأخذ دينار حيثما لقيه»	يدل على بقاء الالتزامات المالية مع انتقال المدين بين البلدان.	144
المضاربة	«أعطى ماله مضاربة... أن يأخذ من الربح شيئًا»	إثبات وجود استثمار يقوم على رأس المال من طرف والعمل التجاري من طرف آخر.	145
طلب الرزق	«خرج من عند أبيه يطلب رزق الله فأصاب مالًا كثيرًا»	إشارة إلى سفر الأفراد بحثًا عن العمل والثروة بعيدًا عن الأسرة.	145

الحوانيت	«رجلًا له دور وحوانيت... وله غنم وإبل»	يدل على إمكان جمع بعض الأثرياء بين ملكية العقارات والحوانيت والماشية.	64
البناء والصهاريج	«له فيها بناء وقصر وصهاريج وأشجار مثمرة»	يقدم معلومات عن عناصر الملكية الريفية أو شبه الحضرية: القصر، والصهاريج، والأشجار.	64

عاشرًا: العادات والتقاليد والترفيه

الموضوع	النص الأصلي من الكتاب	الفائدة التاريخية والاجتماعية	ص
الشطرنج	«رجلًا يلعب بالشطرنج والقداح[2] والتداسر»[3]	إثبات معرفة المجتمع بالشطرنج وألعاب أخرى، ووجود نشاط ترفيهي خارج العمل والعبادة.	38
الكعاب	«وذكرت رجلًا يلعب بالشطرنج والتيداس والكعاب[4]...»	يدل على انتشار اللعب بالكعاب، وربما استعمال عظام الحيوانات أو قطع مشابهة في اللعب.	38
القمار	«وذكرت الميسر ما هو؟ الميسر هو القمار»	يبين ارتباط بعض الألعاب بالمراهنة والقمار، ومراقبة المجتمع لها أخلاقيًا.	38
اللعب الجماعي للأطفال	«جماعة صبيان يلعبون وهم أطفال... حتى نزعت عين واحد منهم»	شاهد نادر على لعب الأطفال في جماعات، وعلى معالجة الحوادث التي تقع أثناء اللعب.	176
نبش قبور القدماء	«رجلًا ينبش قبور الأولين مشركين... لرجاء ما يجد فيها من المال»	يدل على وجود بحث عن أموال أو مقتنيات في المدافن القديمة، شبيه بنهب القبور أو البحث عن الكنوز.	166

الحادي عشر: القضاء والسلطة والملكية والأمن

الموضوع	النص الأصلي من الكتاب	الفائدة التاريخية والاجتماعية	ص
سلطة القاضي	«وذكرت إن كان يسجن القاضي أم لا، وإلى متى يسجن ويخرج؟»	إثبات استعمال الحبس أداةً قضائية، ووجود نقاش في مدة السجن وحدوده.	182

2 - أعواد أو سهام صغيرة معلَّمة كانت تستعمل في الميسر وإجراء القرعة والقمار وهي موجودة في جبل نفوسة إلى اليوم باسم تيسياگ ⵜⵉⵙⵉⴳ

3 - في الغالب يقصد تيداس ⵜⴹⴰⵎⵙ حيث ذكر في السؤال الموالي «وذكرت رجلًا يلعب بالشطرنج والتيداس والكعاب...» تيداس هي اللعبة الأمازيغية المعروفة وربما يكون هذا أقدم ذكر للعبة في نص مكتوب في جبل نفوسة أو في كل إفريقيا الشمالية

4 - الكعاب: لعبة بعظام الكعاب الصغيرة، تشبه ألعاب النرد أو الـknucklebones، وقد عُرفت في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي.

تقدير العقوبة	«القاضي هو الناظر في مثل هذه الأمور على قدر ما يجري من فجور الناس»	يدل على امتلاك القاضي سلطة تقديرية تراعي ظروف المجتمع وخطورة المخالفة.	183
المدين الممتنع	«فأمره القاضي بغرم ذلك الدين فأبى وامتنع»	يبين إجراءات إلزام المدين بأداء الحقوق عن طريق القضاء.	172-173
استعمال السلاح	«وإن كابر السلطان ودافعه بالسلاح كان على السلطان مدافعته وقتاله»	يدل على اختصاص السلطة بمواجهة الخارج على الحكم ومنع الأفراد من استعمال القوة لاستيفاء الديون.	173
اختيار المسؤولين	«رجلًا استعمله قومه، أكان له أن ينظر في الحقوق؟»	يشير إلى محاولة الجماعة اختيار شخص للنظر في الخصومات، مع تأكيد سلطة الإمام في التعيين.	190
حقوق المرأة القضائية	«امرأة ادعى عليها رجل بحق فدعاها إلى القاضي»	يدل على خضوع الرجال والنساء معًا لإجراءات القضاء.	182
حرمة منزل المرأة	«إنما هي في بيتها موضع حرمتها فلا تخرج من موضعها»	يكشف عن مفهوم حرمة المسكن، ولا سيما مسكن المرأة، مع تنظيم حضورها أمام القضاء.	184
إثبات ملكية الأرض	«الأرض... لمن سبق إليها وحازها»	يوضح طرق إثبات الملكية في الأراضي التي لم تكن محاطة أو محددة الحدود.	186-187
المرأة والاعتداء	«رجلًا ضرب امرأة فأضر وجهها أو عينها أو جسدها»	يدل على الاعتراف بحق المرأة في التعويض عن الاعتداء البدني.	176
قياس الجروح	«بلغ قياس جرحه كاملًا في الطول والعرض»	يكشف عن طرق دقيقة لتقدير الجراح والتعويضات، باستعمال القياس المادي للإصابة.	190

الثاني عشر: الرق والمراتب الاجتماعية

الموضوع	النص الأصلي من الكتاب	الفائدة التاريخية والاجتماعية	ص
الاشتراك في ملك الجارية	«رجلين اشتركا في وصيفة»	يدل على اعتبار الإماء جزءًا من الممتلكات القابلة للاشتراك والبيع، وهو جانب أساسي من البنية الاجتماعية للمرحلة.	133
المكاتبة	«إن المكاتبة عندنا عتق والمكاتب حر»	إثبات وجود نظام المكاتبة الذي يدفع فيه العبد مالًا مقابل حريته.	150

العبيد والملكية	«العبيد وجميع أموالهم... فعلى المولى أن يزكي ذلك كله»	يكشف عن الوضع القانوني والاقتصادي للعبد وارتباط أمواله بملكية السيد.	74
شهادة العبيد	«لا تجوز شهادة العبيد»	يبين التفاوت القانوني بين الحر والعبد في نظام الإثبات القضائي.	185
خدم الرعي	«له من يرعاها من خدمه»	يدل على وجود فئات من الخدم أو التابعين يعملون في رعاية قطعان الأثرياء.	64

ملاحظة مهمة: لا يعني ورود المسألة أنها وقعت حتمًا في جبل نفوسة؛ وإن كنا حريصين على إيرادها مع القرائن. فبعض الأسئلة قد يكون افتراضيًا، وتزداد القيمة التاريخية عندما يصرح النص باسم جبل نفوسة أو يذكر عادة محلية أو أداة أو محصولًا أو مؤسسة تتكرر في أكثر من مسألة. والكتاب برمته مخصص لمسائل نفوسة مما يعزز أهميته وقيمته في فقه النوازل.

الحمض النووي بوصفه أرشيفًا مكمّلًا للتاريخ

التحولات الديموغرافية في نفوسة[5]

أهمية الدراسات الجينومية في سد فجوات أصول الساكنة

الملخص

تواجه كتابة تاريخ سكان جبل نفوسة فجوات مصدرية جوهرية؛ فالمدونات التاريخية والوثائق الإدارية والأنساب الشفوية تسجل عادةً أحداث السلطة والجباية والحرب والانتساب السياسي. لكنها نادرًا ما تتيح قياس الاستمرارية السكانية أو حجم الهجرات أو التزاوج بين الجماعات أو الفروق بين انتقال اللغة وانتقال البشر. يناقش هذا المقال القيمة المعرفية لدراسات الحمض النووي القديم والحديث بوصفها مصدرًا مكمّلًا- لا بديلًا-للوثيقة والآثار واللسانيات والتاريخ الشفوي. ويعرض الفروق بين الحمض النووي المتقدري، وكروموسوم Y، والبيانات الجينومية الجسمية، ثم يقيّم ما هو متاح عن ليبيا وشمال أفريقيا مع تركيز خاص على جبل نفوسة. تكشف المراجعة أن الأدلة المباشرة ما تزال قليلة وغير متوازنة: فبعض الدراسات الليبية واسعة النطاق جغرافيًا ضمّت أعدادًا محدودة أو غير محددة الموقع، بينما قدمت أطروحة دكتوراه سنة 2019 عينة من 42 فردًا من نفوسة ضمن دراسة للخطوط الأمومية والأبوية؛ كما توفر مشاريع الأنساب التجارية عينات متفرقة من بلدات الجبل، لكنها عينات تطوعية ذات تحيزات اختيارية ولا تصلح لتقدير التواترات السكانية. ومع ذلك، توضح هذه المواد الأولية وجود تغاير محلي يستحق الدراسة، وتبيّن أن التصنيفات اللغوية «عربي/أمازيغي» لا ينبغي افتراض تطابقها مع وحدات وراثية مغلقة. ويقترح المقال مسحًا جينوميًا دقيقًا على المستوى المحلي، يوازن بين البلدات الناطقة بالعربية والأمازيغية، ويربط البيانات الجينومية بسلاسل النسب المكاني والتاريخ الشفوي والآثار، مع حوكمة مجتمعية صارمة للعينات والبيانات. والنتيجة الرئيسة هي أن مشروعًا منظمًا في جبل نفوسة يستطيع اختبار فرضيات الاستمرار والتحول اللغوي والهجرة والتزاوج والعزلة، لكنه لا يستطيع إثبات «نقاء» عرقي أو إسناد هوية اجتماعية إلى سلالة مفردة.

الكلمات المفتاحية: جبل نفوسة؛ ليبيا؛ الحمض النووي القديم؛ الجينوم السكاني؛ الهجرة؛ التحول اللغوي؛ الأمازيغية؛ التعريب؛ الأنساب الجينية.

5 - مقال مراجعة نظرية نقدية مع أمثلة تطبيقية وبرنامج بحث مقترح

1. المقدمة: حين تصمت الوثيقة

يمثل جبل نفوسة مجالًا مناسبًا بامتياز لدراسة العلاقة بين الجغرافيا واللغة والقرابة والحركة السكانية. فهو ليس وحدة بشرية بسيطة، بل فضاء جبلي متصل بالسهل الساحلي وطرابلس شرقًا، وبالحدود التونسية غربًا، وبالممرات المؤدية إلى فزان والصحراء جنوبًا. وقد تعاقبت عليه موجات سياسية واقتصادية ودينية ولغوية، بينما ظلت بلداته متفاوتة في درجة الاتصال والعزلة. ومع ذلك، فإن تاريخ السكان لا يُقرأ بسهولة من المصادر المكتوبة: فالوثيقة قد تحدد اسم قبيلة أو بلدة أو قائد، لكنها لا تخبرنا تلقائيًا إن كان التحول السياسي قد صاحبه استبدال سكاني، أو اندماج محدود، أو تغير لغوي داخل جماعة محلية مستمرة.

لا يعني صمت الوثائق انعدام التاريخ، بل يعني أن أنواعًا من الوقائع لم تكن من موضوعات التدوين أصلًا. فالنساء، وصغار الجماعات، والتنقل الموسمي، والزواج بين القرى، وحركات اللجوء القصيرة، والأسر التي غيّرت لغتها أو انتسابها، قد تترك آثارًا ضعيفة أو غير مباشرة في السجل المكتوب. كما أن الأنساب الشفوية ذات قيمة عالية لفهم الذاكرة والهوية وشبكات القرابة، لكنها تخضع للانتقاء وإعادة البناء، وقد تختزل سلسلة اجتماعية معقدة في جد جامع واحد. هنا تظهر فائدة علم الوراثة السكاني: فهو لا يعيد كتابة التاريخ منفردًا، لكنه يضيف طبقة مستقلة من الأدلة قابلة للاختبار الكمي والمقارنة بين الأمكنة والأزمنة.

تتمثل فرضية هذا المقال في أن دراسة جينومية محكمة لعموم جبل نفوسة تستطيع سد ثلاث فجوات مترابطة: فجوة الاستمرارية، أي مقدار بقاء السكان المحليين عبر التحولات السياسية؛ وفجوة الحركة، أي اتجاهات الهجرة والتزاوج والعزلة؛ وفجوة التحول الثقافي، أي مدى ارتباط انتشار العربية أو استمرار الأمازيغية بحركة أشخاص فعلية أو بتحول لغوي واجتماعي. ويعتمد المقال مراجعة نقدية انتقائية للدراسات المحكّمة والأطروحات الجامعية والموارد الجينية العامة المتاحة حتى 6 أغسطس/آب 2026، مع الفصل الصريح بين الدليل السكاني القابل للتعميم والبيانات الاستكشافية غير الممثلة.

2. أهداف الدراسة وأسئلتها

يهدف المقال إلى تأسيس إطار نظري ومنهجي يوضح لماذا يحتاج تاريخ سكان جبل نفوسة إلى دراسة الحمض النووي، وكيف يمكن استخدام النتائج القليلة المتاحة دون

تضخيم دلالتها. وينطلق من خمسة أسئلة: ما الذي تستطيع العلامات الأمومية والأبوية والجسمية كشفه؟ ما مستوى تمثيل جبل نفوسة في الأدبيات الليبية الحالية؟ ماذا تعني الفروق الأولية بين المجموعات المحلية؟ كيف تُستخدم مشاريع الأنساب العامة استخدامًا مسؤولًا؟ وما التصميم البحثي القادر على تحويل القرائن المتفرقة إلى معرفة تاريخية قابلة للتحقق؟

3. الحمض النووي مصدر تاريخي: إمكاناته وحدوده

الجينوم ليس سجلًا للأسماء والأحداث، بل سجل احتمالي للقرابة والتباعد والتزاوج وحجم الجماعات عبر الزمن. وتزداد قيمته عندما تصاغ الفرضية التاريخية قبل التحليل، وتُقارن نماذج بديلة بدل البحث عن نتيجة تؤيد رواية جاهزة. فإذا اشتركت بلدتان في مقاطع جسمية طويلة متطابقة بالنسب، كان ذلك قرينة على أسلاف مشتركين أو تزاوج حديث نسبيًا؛ وإذا ارتفعت مساحات التماثل الزيجوتي داخل بلدة، فقد يشير ذلك إلى زواج قرابي أو حجم سكاني فعال صغير أو حدث مؤسس؛ وإذا اختلف نمط كروموسوم Y عن نمط الحمض المتقدري، فقد يكشف ذلك حركة منحازة بحسب الجنس أو نظام إقامة أبوي/أمومي. لكن كل استنتاج يظل مشروطًا بالعينة والمراجع والنموذج الزمني.

الجدول 1. أنواع البيانات الجينية والأسئلة التاريخية التي يمكن اختبارها

أهم قيد تفسيري	ما الذي يضيفه؟	نمط الوراثة	نوع الدليل
يمثل موضعًا واحدًا ولا يساوي مجمل الأصل الجيني	تاريخ السلالات الأمومية والهجرات المنقولة عبر النساء	خط أمومي واحد	mtDNA
ذكوري فقط وشديد التأثر بالمؤسس والانجراف	القرابة الأبوية، التوسع الذكوري، البنية العشائرية المحتملة	خط أبوي واحد لدى الذكور	كروموسوم Y
يتطلب مراجع مناسبة وعينات كبيرة ونماذج متعددة	البنية الدقيقة، الاختلاط، IBD، ROH، وتقدير تواريخ تقريبية	موروث من جميع الأسلاف	الجينوم الجسمي
الحفظ صعب، والعينات قليلة، والأسئلة الأخلاقية مركزية	اختبار الاستمرارية أو الاستبدال في زمن ومكان محددين	عينة مؤرخة مباشرة	DNA قديم

يقتضي هذا التمييز عدم الخلط بين السلالة الأحادية النسب وبين الأصل الكلي. فالرجل يحمل كروموسوم Y من خط أبوي واحد، لكنه بعد عشرة أجيال ينحدر نظريًا من مئات الأسلاف الآخرين الذين لا يمثلهم ذلك الكروموسوم. وبالمثل، تعكس مجموعة mtDNA أمًا واحدة في كل جيل. لذلك لا يجوز اعتبار E-M81 مرادفًا لـ«أمازيغي خالص»، ولا

J-M304 أو أحد فروع J دليلًا آليًا على هجرة عربية في القرن السابع أو الحادي عشر؛ فالفرع الدقيق، وعمر السلف المشترك، وتوزيعه المقارن، والسياق الجينومي الكامل هي التي تحدد التفسير الممكن. كما أن تصنيف السلالات إلى «أوراسية» أو «شمال أفريقية» هو اصطلاح جغرافي-تطوري لمسار بعيد، لا بطاقة هوية حديثة ولا دليلًا على انتماء ثقافي.

4. لماذا يحتاج جبل نفوسة إلى منظور دقيق جغرافيًا؟

أظهرت الدراسات الجينومية في شمال أفريقيا أن التشابه اللغوي لا ينتج بالضرورة كتلة وراثية واحدة. فقد خلص Arauna وزملاؤها (2017)، باستخدام بيانات جسمية عالية الكثافة، إلى أن المجموعات الناطقة بالعربية والمجموعات الناطقة بالأمازيغية لا تنتظم ببساطة في عنقودين منفصلين؛ إذ تتدخل الجغرافيا والتاريخ المحلي والانجراف والاختلاط بدرجات مختلفة. وأكدت دراسة Vilà-Valls وزملائها (2024) على 276 فردًا من مجموعات أمازيغية أن التغاير قد يظهر على مستوى ميكروجغرافي داخل منطقة صغيرة، وأن تمثيل بلد أو هوية لغوية بعينة واحدة قد يحجب الفروق المحلية.

هذه النتيجة مهمة لجبل نفوسة لأن المقارنة الصحيحة ليست «العرب في مقابل الأمازيغ» على مستوى ليبيا كلها، بل شبكة من المقارنات المحلية: بلدات متجاورة تختلف في اللغة؛ بلدات متباعدة تشترك فيها؛ مجتمعات جبلية وأخرى عند السفح؛ وأسر ذات أصول محلية موثقة مقابل أسر حديثة الانتقال. فإذا كانت القربى الجينية تتبع المسافة أكثر من اللغة، رجح أثر الحركة المحلية والتحول اللغوي. وإذا ظهرت فروق واضحة بعد ضبط المسافة والقرابة، أمكن اختبار أثر العزلة أو الهجرة أو الزواج الداخلي. أما أخذ عينة واحدة من «نفوسة» أو «العرب» فلا يكفي للإجابة.

5. خريطة الأدلة المتاحة: من ليبيا العامة إلى نفوسة

المشكلة الأساسية في الأدبيات ليست غياب ليبيا الكامل، بل ضآلة التمثيل الموضعي وقلة البيانات الجينومية الكاملة. وتوضح الدراسات الآتية كيف يمكن لاختلاف نوع العينة أن يغير قوة الاستنتاج.

الجدول 2. أبرز الأدلة المتاحة وصلتها بتاريخ سكان جبل نفوسة

القيد بالنسبة إلى نفوسة	القيمة التاريخية	البيانات	العينة الليبية	المصدر
لا يحدد البنية داخل الجبل	تدرج شرق-غرب وانقطاع نسبي عند ليبيا/مصر	mtDNA	269 من عموم ليبيا	Fadh-laoui-Zid et al., 2011
قوة ضعيفة للاستدلال المحلي	تعدد المكونات وعدم تجانس شمال أفريقيا	نحو 730 ألف SNP	17 فقط بعد الضبط	Henn et al., 2012
عينة عامة، ذكورية، بلا تفصيل نفوسي	صورة أبوية ومقارنة إقليمية	Y-SNP 55 وY-STR 17	215 رجلًا	Fadh-laoui-Zid et al., 2013
تمثل طرابلس لا جبل نفوسة	J-M304: 33.7%؛ E-M81: 27.4%	Y-SNP 22	175 رجلًا من طرابلس	Triki-Fendri et al., 2015
أطروحة غير محكّمة، وعينة تجمع الجبل كوحدة	أول مثال مباشر ذي تسمية نفوسية واضحة	mtDNA؛ و Y-STR في جزء من الدراسة	42 من نفوسة ضمن 375	Madour, 2019
الموقع المحلي غير مبين	رفع الدقة الأمومية ضمن 733 حديثًا شمال أفريقيًا	ميتوكوندريا كاملة	60 من السكان العامين	Colombo et al., 2025
تطوعي وغير عشوائي ولا يعطي تواترات	فرضيات عن فروع أبوية وقرابة حديثة	اختبارات تجارية متفاوتة	584 عضوًا بالمجموعة؛ جزء فقط ليبي/نفوسي	مشروع ليبيا-FTDNA
فزان وزمن قديم؛ ليس دليلًا مباشرًا على نفوسة	برهان ليبي مباشر على قوة الجينوم القديم	DNA قديم واسع الجينوم	امرأتان من تاكاركوري، نحو 7000 سنة	Salem et al., 2025

5.1. الدراسات الليبية العامة: مفيدة للسياق، محدودة للمكان

قدمت دراسة Fadhlaoui-Zid وزملائها (2011) أول مسح متقدري للسكان الليبيين العامين بإضافة 269 تسلسلًا إلى قاعدة شمال أفريقية أوسع. ووجدت تدرجات في السلالات بين غرب شمال أفريقيا وشرقه، مع انقطاع وراثي نسبي بين ليبيا ومصر. تكمن أهمية النتيجة في رفض تصور شمال أفريقيا ممرًا متجانسًا، لكنها لا تسمح بإسناد نمط بعينه إلى جبل نفوسة لأن مصدر العينات الليبية لم يُفصل إلى بلدات الجبل.

أما Henn وزملاؤها (2012) فحللوا نحو 730 ألف موقع SNP في سبع عينات شمال أفريقية. وبعد ضبط الجودة والقرابة بقي 125 فردًا فقط، منهم 17 ليبيًا. كشفت الدراسة تاريخًا مركبًا يضم ما لا يقل عن خمسة مكونات سلفية على مستوى الإقليم، وأكدت أن سكان شمال أفريقيا ليسوا جماعة متجانسة. غير أن سبعة عشر فردًا لا يستطيعون تمثيل التغاير بين نالوت وكاباو وجادو ويفرن وغريان وغيرها، فضلًا عن التغاير بين الناطقين بالعربية والأمازيغية.

وفي الجانب الأبوي، درست Fadhlaoui-Zid وزملاؤها (2013) 215 رجلًا من عموم ليبيا باستخدام 55 علامة SNP و17 علامة STR على كروموسوم Y، مع تسجيل النسب الأبوي لجيلين على الأقل. ودرست Triki-Fendri وزملاؤها (2015) 175 رجلًا من منطقة طرابلس، فكان E-M81 الأكثر تواترًا (33.7%)، تلاه 27.4%) M304-(xJ1a,J2)J). هذه الأرقام مهمة بوصفها خط أساس لغرب ليبيا، لكنها لا يجوز نقلها إلى جبل نفوسة؛ كما أن ربط E-M81 مباشرةً بالأمازيغ وربط J مباشرةً بالعرب، كما شاع في بعض الأدبيات القديمة، تبسيط يتجاهل قِدم السلالات وفروعها واختلاط السكان والتحول اللغوي.

5.2. عينة نفوسة في أطروحة مدور: أهميتها وما لا تثبته

تعد أطروحة علي مدور (2019) المادة الأوضح اتصالًا بجبل نفوسة حتى الآن. فقد جمعت 375 عينة ليبية: 175 من مجموعات صُنفت أمازيغية، منها 42 من نفوسة و77 من زوارة و56 من غدامس؛ و168 من مجموعات صُنفت عربية، منها 125 من غرب ليبيا و43 من شرقها؛ إضافة إلى 32 من أصول أفريقية. أُنتجت 375 سلسلة للمنطقة المتغيرة من mtDNA، واختيرت 199 عينة لتسلسل الميتوكوندريا كاملة، كما أُنتج 219 ملفًا لـ23 علامة Y-STR. وقد جُمعت موافقات مكتوبة ومعلومات عن مكان مولد المشاركين ووالديهم.

في عينة نفوسة المتقدرية البالغ حجمها 42، سجلت الأطروحة H بنسبة 26.2%، وK بنسبة 21.4%، وL3 بنسبة 14.3%، وHV بنسبة 9.5%، وU5 بنسبة 7.1%، بينما ظهرت L0 وL2 وR0a وM1 بنسبة 4.8% لكل منها، وU6 بنسبة 2.4%. كما بلغ تنوع النمط الفرداني H = 0.8238، وهو منخفض نسبيًا مقارنة بعدد من العينات الإقليمية في الجدول المقارن، وفسرت الأطروحة ارتفاع K وانخفاض التنوع بإمكان تأثير الانجراف والعزلة. الأهم من النسب نفسها هو أن زوارة ونفوسة وغدامس لم تُظهر التوزيع ذاته رغم جمعها تحت تصنيف لغوي-ثقافي واسع؛ وهذه قرينة عملية على أن «الأمازيغ» ليسوا مخزونًا جينيًا موحدًا، وأن لكل مجتمع تاريخه الديموغرافي.

لكن هذه النتيجة لا تثبت أن سكان نفوسة ينحدرون حديثًا من أوروبا أو المشرق، ولا تحدد زمن وصول H أو K إلى الجبل. فالتصنيف التقليدي لهاتين السلالتين ضمن فروع واسعة الانتشار في غرب أوراسيا لا يساوي هجرة تاريخية قريبة، وقد يكون الفرع المحلي قد وصل في عصور أقدم بكثير ثم تضخم بالانجراف. كما أن 42 فردًا، من دون تقسيم واضح إلى بلدات ومن دون تحليل جسمي عالي الكثافة، لا يفصل بين أثر المؤسس والزواج الداخلي والهجرة. ولأن المصدر أطروحة دكتوراه لا مقالة محكّمة مخصصة لنفوسة، يلزم تكرار النتائج بعينات مستقلة وتحليل جينومي واسع قبل تعميمها.

5.3. الميتوجينومات الحديثة: دقة أعلى، لكن الموقع ما يزال عامًا

قدمت دراسة Colombo وزملائها (2025) ستين ميتوجينومًا ليبيًا جديدًا من «السكان العامين»، ودمجتها في تحليل 733 فردًا حديثًا و43 فردًا قديمًا من شمال أفريقيا. وفي العينة الليبية المحددة لهذه الدراسة بلغت الفروع المصنفة تقليديًا «غرب أوراسية» 88.7%، بينما بلغت فروع L جنوب الصحراء 3.2%. هذه النتيجة لا تناقض بالضرورة الدراسات الأخرى، لأن نوع العينة وحجمها ومكانها وتفصيل الفروع يغير التواترات. كما لا تعني أن 88.7% من الأصل الكلي لسكان ليبيا «أوروبي»؛ فهي نسبة خطوط أمومية فقط داخل عينة من ستين فردًا، والتسميات فيلوغرافية ولا تمثل نسب الجينوم الجسمي. وبغياب تحديد مواقع المشاركين لا يمكن استخدامها بدل عينة نفوسية.

6. مشاريع الأنساب على الإنترنت: قيمة استكشافية لا مسح سكاني

توجد على الإنترنت مشاريع ومجموعات تبحث أصول الليبيين، وأبرز مثال عام هو «مشروع ليبيا للسلالات» في FamilyTreeDNA. تعرض صفحة المشروع 584 عضوًا وقت الاطلاع في 6 أغسطس/آب 2026، وتظهر في سجل نتائج Y-DNA أمثلة معلنة ذات أصول من نالوت ويفرن وغيرها من بلدات جبل نفوسة، إلى جانب عينات من مناطق ليبية أخرى. وتعكس أوصاف الأصل المنشورة ذاتيًا مشاركين من أوساط ناطقة بالأمازيغية وأخرى ناطقة بالعربية، من غير أن تكون الفئتان محددتين ببروتوكول موحد. كما تظهر فروع أبوية متعددة داخل E-M81 وغيره، وبعضها محدد باختبارات تسلسل عميقة. هذه البيانات مهمة لأنها قد تكشف تجمعات أبوية لم تنتبه إليها الدراسات الأكاديمية، وتساعد في اختيار فرضيات قابلة للاختبار، مثل اشتراك أسر من بلدتين مختلفتي اللغة في فرع حديث نسبيًا، أو وجود أكثر من مؤسس أبوي داخل البلدة الواحدة.

لكن عدد أعضاء المشروع لا يساوي عدد الليبيين المستقلين ولا عدد سكان نفوسة،

والصفحة العامة ليست إطار معاينة. فالمشاركة تطوعية وتتأثر بالقدرة الاقتصادية والاهتمام بالأنساب؛ والاختبارات متفاوتة من عدد قليل من STR إلى تسلسل Big Y؛ والمكان والجد الأعلى معلومات ذاتية؛ والرجال ممثلون أكثر من النساء؛ وقد تشمل البيانات أقارب قريبين أو أفرادًا من خارج ليبيا انضموا للمقارنة. لذلك لا يجوز حساب نسبة سلالة في جبل نفوسة من هذه الصفحة، ولا مقارنة الناطقين بالعربية والأمازيغية كأن كل فئة عينة عشوائية.

الاستخدام العلمي السليم لهذه المشاريع يمر بثلاث خطوات: أولًا، إزالة أي معرفات شخصية والاكتفاء بالفروع والمواقع الإجمالية؛ ثانيًا، التحقق من الفروع النهائية باختبارات SNP عميقة بدل تنبؤ STR وحده؛ ثالثًا، اختبار الأنماط المقترحة بعينة أكاديمية مستقلة ذات بروتوكول واضح. ويمكن عندئذ استخدام تقديرات عمر السلف المشترك مع فترات عدم يقين واسعة لمقارنة سيناريوهات، لا لتعيين شخصية تاريخية أو قبيلة بعينها من دون سلسلة وثائقية مستقلة.

7. مثال ليبي حاسم: ما الذي غيّره الحمض النووي القديم؟

يقدم موقع تاكاركوري في تدرارت أكاكوس بفزان مثالًا عمليًا على قدرة الحمض النووي القديم على حل سؤال لم تحسمه الأدلة المادية وحدها. فقد حددت دراسة Vai وزملائها (2019) في خطين أموميين قديمين فرعًا قاعديًا غير مألوف من N. ثم نشرت Salem وزملاؤها (2025) بيانات واسعة الجينوم من المرأتين نفسيهما، المؤرختين تقريبًا إلى 7158-6796 و6555-6281 سنة قبل الحاضر. ورغم سوء الحفظ، استعاد الباحثون 881,765 موقع SNP من إحداهما و23,317 من الأخرى.

أظهر أفضل نموذج في الدراسة أن نحو 93% من أصل تاكاركوري يعود إلى سلالة شمال أفريقية عميقة لم تكن موصوفة سابقًا، ونحو 7% إلى مصدر مشرقي قديم، مع قرابة جينية لسكان شمال غرب أفريقيا من العصر الحجري. وبذلك رجّحت النتائج أن انتشار الرعي إلى الصحراء الخضراء حدث بدرجة كبيرة عبر انتقال ثقافي، لا عبر إحلال واسع لمهاجرين مشرقيين. ليست تاكاركوري دليلًا مباشرًا على سكان جبل نفوسة، لكنها تثبت أن عينة قديمة مؤرخة يمكن أن تميّز بين «انتقال فكرة» و«انتقال سكان»-وهو بالضبط نوع السؤال المطروح عند دراسة التعريب أو انتشار أنماط اقتصادية ودينية في الجبل.

8. الفرضيات التاريخية التي يمكن اختبارها في جبل نفوسة

8.1. الاستمرارية أم الاستبدال؟

يمكن مقارنة الجينومات الحديثة في بلدات الجبل بعينات قديمة من مواقع مؤرخة، وبمراجع قديمة وحديثة من تونس والساحل وفزان. إذا ظهرت استمرارية واسعة في المكونات والقرابة مع إضافات محدودة، رجح نموذج الاستمرار المحلي مع اختلاط. وإذا ظهر تحول مفاجئ في فترات محددة، أمكن اختبار ارتباطه بهجرة أو إعادة توطين. ولا ينبغي اختزال النتيجة في ثنائية «محلي/وافد»، لأن أكثر السيناريوهات واقعية هو تراكم طبقات من الاستمرار والاختلاط والانجراف.

8.2. التعريب: حركة سكان أم تحول لغوي؟

يمكن اختبار ما إذا كانت البلدات الناطقة بالعربية في الجبل أقرب جينيًا إلى جيرانها الناطقين بالأمازيغية أم إلى عينات عربية بعيدة. القرب المحلي مع فروق طفيفة سيدعم دور التحول اللغوي والتزاوج المتبادل؛ أما ظهور مقاطع مشتركة حديثة مع مصادر خارجية محددة فقد يدعم هجرة إضافية. لكن لفظ «عربي» نفسه يجمع هويات وتواريخ مختلفة، ولا توجد عينة مرجعية واحدة تمثل «العرب الأصليين». لذلك يجب أن تُبنى النماذج من مجموعات زمنية وجغرافية مناسبة، وأن تُعرض أكثر من فرضية بدل فرض أصل واحد.

8.3. التغاير بين الرجال والنساء

المقارنة بين mtDNA وكروموسوم Y والجينوم الجسمي قد تكشف إن كانت الهجرة منحازة للرجال، كما يحدث في بعض التوسعات العسكرية أو الرعوية، أو للنساء عبر شبكات الزواج. وقد يكون التشابه الأمومي بين بلدتين أكبر من التشابه الأبوي إذا كانت النساء ينتقلن أكثر بين المجتمعات بينما تبقى الخطوط الأبوية محلية. مثل هذا الاستنتاج لا يمكن الوصول إليه من سلالة واحدة أو من مشروع تجاري يركز على الرجال.

8.4. العزلة وأحداث المؤسس

تسمح مقاطع ROH والقرابة IBD وحجم السكان الفعال بكشف آثار العزلة والزواج الداخلي والانخفاضات السكانية. وقد تساعد في تفسير ارتفاع فرع أمومي أو أبوي داخل بلدة بوصفه تضخمًا اتفاقيًا لسلالة مؤسس، لا دليلًا على أن جميع السكان

ينحدرون من أصل قومي واحد. وتكتسب هذه النقطة أهمية خاصة في المجتمعات الجبلية الصغيرة، حيث يمكن للانجراف أن ينتج فروقًا كبيرة بين بلدات متجاورة.

8.5. الممرات والحدود

يمكن رسم أسطح الهجرة الفعالة لاختبار ما إذا كانت حافة الجبل، وممرات الساحل، والطريق نحو جربة وتونس، والاتصال بفزان، قد عملت كممرات أو حواجز في فترات مختلفة. ويتيح الدمج مع نظائر السترونشيوم في العظام-حين تتاح عينات قديمة بصورة قانونية وأخلاقية-التمييز بين أصل جيني بعيد وحركة الفرد نفسه في حياته.

9. تصميم بحث مقترح لعموم جبل نفوسة

لكي يسد المشروع الفجوات بدل أن يعيد إنتاجها، يجب أن يكون ميكروجغرافيًا وتشاركيًا وقابلًا للتكرار. ويقترح هذا المقال التصميم الآتي:

• الشراكة والحوكمة: تشكيل مجلس استشاري من باحثين ليبيين وممثلين عن البلدات ومتخصصين في التاريخ والآثار واللسانيات والأخلاقيات، مع اتفاق مسبق على ملكية العينات ومستويات الوصول والنتائج التي لا ينبغي نشرها.

• المعاينة الطبقية: اختيار نحو 12-15 بلدة عبر المحور الغربي-الشرقي والمرتفعات-السفوح، بما يشمل مثلًا نالوت وكاباو وجادو والقلعة ويفرن وككلة والرجبان والزنتان وغريان ومناطق مجاورة، مع تسجيل اللغة الفعلية والتعريف الذاتي بدل فرض هوية من اسم البلدة.

• الحجم والقرابة: استهداف 30-50 بالغًا غير قريبين حتى الدرجة الثانية من كل موقع، بإجمالي تقريبي 500-700 مشارك، وتوازن بين الجنسين، وتوثيق أماكن ولادة الأجداد الأربعة والهجرات الحديثة. الحجم النهائي يحدد بتحليل قدرة إحصائية مسبق.

• البيانات: مصفوفة SNP عالية الكثافة أو تسلسل جينومي منخفض التغطية لجميع المشاركين، مع ميتوكوندريا كاملة، وتسلسل كروموسوم Y عالي الدقة لعينة الذكور؛ ولا تُستخدم حاسبات النسب التجارية الملونة بوصفها التحليل الرئيس.

• التحليل: PCA وADMIXTURE للاستكشاف فقط، ثم طرق قائمة على المقاطع مثل ChromoPainter/fineSTRUCTURE وIBD، وتحليل ROH، واختبارات f-statistics و qpAdmm للمفاضلة بين النماذج، وأدوات تأريخ الاختلاط مثل DATES أو GLOBETROTTER مع فترات ثقة وحساسية لمجموعات المراجع.

• التكامل التاريخي: جمع روايات هجرة وزواج وتأسيس بلدات وفق بروتوكول موحد، وربطها بالوثائق والعمارة واللقى واللغة، ثم اختبار مواضع الاتفاق والتعارض. لا تُعامل الرواية الشفوية كخطأ إذا خالفت الجينوم؛ فقد تصف هوية سياسية أو قرابة اجتماعية لا نسبًا بيولوجيًا صرفًا.

• الحمض القديم: عند وجود سياق أثري قانوني وموافقة مجتمعية صريحة، تُؤخذ عينات قليلة عالية القيمة مع التأريخ بالكربون المشع والتحقق من التلوث. الأولوية للسؤال العلمي ولأقل تدخل ممكن، لا لأكبر عدد من الهياكل.

• الشفافية: تسجيل خطة التحليل مسبقًا، ونشر الشيفرات والنتائج التجميعية منزوعة الهوية، وإتاحة البيانات الفردية الحساسة عبر وصول مضبوط فقط، مع إعادة النتائج للمجتمعات بلغة مفهومة.

10. الأخلاقيات ومخاطر إساءة التفسير

تتعامل دراسات الأصول مع معلومات لا تخص الفرد وحده؛ فهي تمس أقاربه وجماعته وقد تؤثر في سرديات الهوية والملكية والانتماء. لذلك لا تكفي الموافقة الفردية التقليدية. يجب شرح إمكان اكتشاف قرابات غير متوقعة، وحدود السرية، وإمكان إعادة استخدام البيانات، ومن يملك حق الانسحاب، وكيف تُعالج العينات بعد نهاية المشروع. وتؤكد توصيات الأكاديميات الوطنية الأمريكية (NASEM, 2023) ضرورة التمييز بين الأصل الجيني والعرق والإثنية، واختيار أوصاف السكان الملائمة للسؤال بدل استخدام فئات اجتماعية فضفاضة كبدائل للجينات.

في حالة جبل نفوسة ينبغي تجنب نشر أسماء الأسر أو أرقام مجموعات الاختبار أو الخرائط الدقيقة للفروع النادرة؛ فقد تجعل إعادة التعرف ممكنة. كما ينبغي منع استخدام النتائج لنفي هوية لغوية أو قبلية أو لإثبات امتياز جماعة. فالهوية نتاج تاريخ ولغة وذاكرة ومؤسسات، بينما الجينوم يصف أنماط قرابة واحتمالات سلفية. أفضل مشروع هو الذي يوسّع معرفة السكان بتاريخهم المشترك والمتنوع، لا الذي يحول الفروق الاحتمالية إلى حدود اجتماعية صلبة.

11. حدود الدراسة الحالية

هذه المراجعة نظرية نقدية وليست مراجعة منهجية شاملة وفق PRISMA، ولم تُنتج بيانات جينية جديدة. كما أن أبرز عينة موسومة باسم نفوسة وردت في أطروحة جامعية، لا في مقالة محكّمة مستقلة، وأن تفاصيل توزيعها بين بلدات الجبل ليست

كافية لبناء استنتاج ميكروجغرافي. أما المشاريع التجارية فتتغير باستمرار وتعتمد على الإفصاح الذاتي. لذلك تُعرض الأرقام الحالية لإثبات الحاجة إلى البحث وصياغة فرضيات، لا لإعلان نسب نهائية لأصول السكان.

12. الخاتمة

تملك دراسات الحمض النووي القدرة على تحويل بعض مناطق الصمت في تاريخ جبل نفوسة إلى أسئلة قابلة للاختبار: هل كان التعريب تحوّلًا لغويًا واسعًا مع استمرار محلي، أم صاحبته هجرات متفاوتة؟ هل تشكلت الفروق بين البلدات بفعل الحواجز والمصاهرات وأحداث المؤسس؟ ما اتجاه الاتصال بالساحل وتونس وفزان؟ وهل اختلفت حركة الرجال عن النساء؟ تظهر الأدلة القليلة المتاحة أن الإجابة لن تكون رواية أصل واحد: فالتغاير بين عينات ليبيا، وبين نفوسة وزوارة وغدامس، يحذر من مساواة اللغة بالجينوم أو البلد بالعينة.

المطلوب إذن ليس تجميع مزيد من السلالات التجارية فحسب، بل تأسيس «أطلس جينومي تاريخي لجبل نفوسة» يجمع عينة ممثلة، وتحليلًا جسميًا عالي الدقة، وخطوطًا أمومية وأبوية، وحيث أمكن حمضًا نوويًا قديمًا، ضمن شراكة مجتمعية وحوكمة صارمة. عندئذ يصبح DNA أرشيفًا مكمّلًا يختبر الوثيقة والرواية والأثر، ويملأ بعض فراغاتها، مع بقاء الإنسان وتاريخه أكبر من أي سلالة جينية مفردة.

المراجع

Arauna, L. R., Mendoza-Revilla, J., Mas-Sandoval, A., et al. (2017). Recent Historical Migrations Have Shaped the Gene Pool of Arabs and Berbers in North Africa. Molecular Biology and Evolution, 34(2), 318-329. doi:10.1093/molbev/msw218. https://doi.org/10.1093/molbev/msw218

Colombo, G., Moroni, E., Raveane, A., et al. (2025). The origin of modern North Africans as depicted by a massive survey of mitogenomes. Scientific Reports, 15, 27025. doi:10.1038/s41598-025-12209-x. https://doi.org/10.1038/s41598-025-12209-x

Coudray, C., Olivieri, A., Achilli, A., et al. (2009). The complex and diversified mitochondrial gene pool of Berber populations. Annals of Human

Genetics, 73(2), 196-214. doi:10.1111/j.1469-1809.2008.00493.x. https://doi.org/10.1111/j.1469-1809.2008.00493.x

Fadhlaoui-Zid, K., Rodríguez-Botigué, L., Naoui, N., et al. (2011). Mitochondrial DNA structure in North Africa reveals a genetic discontinuity in the Nile Valley. American Journal of Physical Anthropology, 145(1), 107-117. doi:10.1002/ajpa.21472. https://doi.org/10.1002/ajpa.21472

Fadhlaoui-Zid, K., Haber, M., Martínez-Cruz, B., et al. (2013). Genome-Wide and Paternal Diversity Reveal a Recent Origin of Human Populations in North Africa. PLOS ONE, 8(11), e80293. doi:10.1371/journal.pone.0080293. https://doi.org/10.1371/journal.pone.0080293

FamilyTreeDNA. (2026). LIBYA Project – Project overview and public Y-DNA results. Accessed 6 August 2026. https://www.familytreedna.com/groups/libya/about

Henn, B. M., Botigué, L. R., Gravel, S., et al. (2012). Genomic Ancestry of North Africans Supports Back-to-Africa Migrations. PLOS Genetics, 8(1), e1002397. doi:10.1371/journal.pgen.1002397. https://doi.org/10.1371/journal.pgen.1002397

Madour, A. M. (2019). Characterisation of Mitochondrial DNA and Y-STR Variation in the Libyan Population [Doctoral thesis, University of Hudders-/field]. https://eprints.hud.ac.uk/id/eprint/34901

National Academies of Sciences, Engineering, and Medicine. (2023). Using Population Descriptors in Genetics and Genomics Research: A New Framework for an Evolving Field. Washington, DC: The National Academies Press. doi:10.17226/26902. https://doi.org/10.17226/26902

Ottoni, C., Martínez-Labarga, C., Loogväli, E.-L., et al. (2009). First genetic insight into Libyan Tuaregs: A maternal perspective. Annals of Human

Genetics, 73, 438-448. doi:10.1111/j.1469-1809.2009.00526.x. https://doi.org/10.1111/j.1469-1809.2009.00526.x

Ottoni, C., Larmuseau, M. H. D., Vanderheyden, N., et al. (2011). Deep into the roots of the Libyan Tuareg: A genetic survey of their paternal heritage. American Journal of Physical Anthropology, 145(1), 118-124. doi:10.1002/ajpa.21473. https://doi.org/10.1002/ajpa.21473

Salem, N., van de Loosdrecht, M. S., Sümer, A. P., et al. (2025). Ancient DNA from the Green Sahara reveals ancestral North African lineage. Nature, 641, 144-150. doi:10.1038/s41586-025-08793-7. https://doi.org/10.1038/s41586-025-08793-7

Triki-Fendri, S., Sánchez-Diz, P., Rey-González, D., et al. (2015). Paternal lineages in Libya inferred from Y-chromosome haplogroups. American Journal of Physical Anthropology, 157(2), 242-251. doi:10.1002/ajpa.22705. https://doi.org/10.1002/ajpa.22705

Vai, S., Sarno, S., Lari, M., et al. (2019). Ancestral mitochondrial N lineage from the Neolithic 'green' Sahara. Scientific Reports, 9, 3530. doi:10.1038/s41598-019-39802-1. https://doi.org/10.1038/s41598-019-39802-1

Vilà-Valls, L., Abdeli, A., Lucas-Sánchez, M., et al. (2024). Understanding the genomic heterogeneity of North African Imazighen: from broad to micro-geographical perspectives. Scientific Reports, 14, 9979. doi:10.1038/s41598-024-60568-8. https://doi.org/10.1038/s41598-024-60568-8

الملحق (أ): النتائج الأولية لعينات كروموسوم Y المنسوبة إلى جبل نفوسة في مشروع ليبيا[6]

أ1-. المصدر وإجراءات الاستخراج

أُعد هذا الملحق من صفحة النتائج العامة لمشروع ليبيا في FamilyTreeDNA ومن ملف Excel المنزّل منها في 6 أغسطس 2026. يعرض المصدر نتائج كروموسوم Y، وأرقام STR، ومسمى السلالة الأبوية، وبيانات الأصل الأبوي التي أدخلها المشاركون أو مديرو المشروع. ويبيّن الموقع أن اللون الأخضر في خانة Haplogroup يعني تصنيفًا مؤكدًا باختبار SNP، بينما يدل الأحمر على تصنيف متنبأ به. كما أن المشروع تديره إدارة تطوعية، والانضمام إليه لا يتم وفق تصميم معاينة سكانية عشوائية؛ ولذلك تُعامل النتائج الآتية بوصفها وصفًا للعينة العامة المتاحة لا تقديرًا لتردد السلالات بين سكان الجبل.

اشتمل ملف Excel على ورقتين متطابقتين في البيانات الأساسية، مع اختلاف صف تذييل واحد فقط. فحُللت الورقة الأولى دون تكرار. وبعد استبعاد صفوف MIN و MAX وMODE وعناوين المجموعات، بلغ عدد صفوف الفحوص الفعلية 436 صفًا، منها 234 موسومة في خانة البلد بليبيا. ثم استُخرجت الفحوص التي يذكر حقل الأصل الأبوي فيها موضعًا صريحًا داخل النطاق الواسع لجبل نفوسة. واعتمد هذا النطاق يفرن وغريان وجادو وككلة ونالوت وكاباو والقلعة والرياينة ومزدة. لم تُستخدم الأسماء أو أرقام الفحوص في الجداول المنشورة، بل استُبدلت برموز تحليلية.

ملاحظة منهجية حاسمة: وحدة العد هنا هي «الفحص المنشور» لا «أسرة مستقلة» ولا «فردًا اختير عشوائيًا». وقد يكون بعض المفحوصين أقرباء أبويين، وقد يزيد تمثيل الأسر المهتمة بالأنساب الجينية. كما أن كروموسوم Y يمثل خط الأب المباشر وحده، ولا يختصر الأصل الجينومي الكامل ولا الهوية اللغوية أو الاجتماعية.

6 - يمكن مقارنة هذه الدراسة بموقع مشروع ليبيا أو Libyan project
https://www.familytreedna.com/public/Libya?iframe=ydna-results-overview&srsltid=AfmBOorz2FVIzKrAVk-2LqNTNphE3lH9XGg4bAOiIl6i2Vq4hkpZfQNy

أ2-. تكوين العينة وتغطيتها الجغرافية

أسفر معيار الموضع الأبوي الصريح عن 35 عينة. تركزت 21 عينة، أي 60.0% من المجموع، في يفرن وغريان وحدهما؛ وهذا التركز يجعل التوزيع الجغرافي غير متوازن. كما لم تظهر في الملف عينات صريحة من بلدات مهمة مثل الزنتان والرجبان وتيجي وغيرها، فلا يجوز تعميم النسب على كامل الجبل.

الجدول م1-. توزيع العينات بحسب الموضع الأبوي الصريح

الموضع	عدد العينات	النسبة من العينة
يفرن	11	31.4%
غريان	10	28.6%
جادو	3	8.6%
ككلة	3	8.6%
نالوت	3	8.6%
كاباو	2	5.7%
الرياينة	1	2.9%
القلعة	1	2.9%
مزدة	1	2.9%

المصدر: حساب المؤلف من ملف Libyan DNA project.xlsx؛ النسب تخص العينة المجمعة فقط.

أ3-. السلالات المجمعة ونسبها

على المستوى الأعلى، ظهرت السلالة E في 33 من 35 عينة (94.3%)، في حين ظهرت G في عينة واحدة (2.9%) وT في عينة واحدة (2.9%). غير أن هذا التجميع الواسع يخفي فرقًا مهمًا بين السلالة المؤكدة بالـSNP والتصنيف المتنبأ به من STR. فمن أصل 35 عينة كانت 20 نتيجة باللون الأخضر (57.1%) و15 باللون الأحمر (42.9%).

الجدول م2-. التجميع الأبوي للعينة مع التمييز بين المؤكد والمتنبأ به

ملاحظة	متنبأ	مؤكد	%	ن	التجميع الأبوي
المؤكدات تحمل تحورات أدق؛ والمتنبأ بها معروضة E-M35 داخل المجموعة	13	18	88.6%	31	E-M81 بحسب مجموعة المشروع

ملاحظة	متنبأ	مؤكد	%	ن	التجميع الأبوي
عينة الرياينة؛ التصنيف الظاهر E-M35 متنبأ به	1	0	2.9%	1	E-V65 بحسب مجموعة المشروع
عينة من غريان في قسم النتائج غير المجمعة	0	1	2.9%	1	E-Y17446
عينة من غريان	0	1	2.9%	1	G-CTS7045 / G-M201
عينة من جادو	1	0	2.9%	1	T-M70
لا يمثل نسبة سكان جبل نفوسة	15	20	100.0%	35	المجموع

المصدر: التصنيف كما يظهر في صفحة المشروع؛ الأخضر = مؤكد باختبار SNP، والأحمر = متنبأ به.

أما مسميات Haplogroup الظاهرة قبل التجميع فكان أكثرها E-M35 في 14 عينة (40.0%)، وجميعها متنبأ بها وليست تحورات نهائية دقيقة. وظهر كل من E-MZ21 و E-MZ7 في عينتين، بينما ظهرت سبعة عشر تسمية أخرى مرة واحدة لكل منها. وبين العشرين نتيجة المؤكدة وُجد ثمانية عشر مسمى مختلفًا، وهي قرينة أولية على تنوع داخلي داخل الخطوط الأبوية E، لكنها لا تعني تلقائيًا وجود ثمانية عشر مؤسسًا مستقلًا؛ إذ تختلف دقة الاختبارات وتواريخ تحديث شجرة السلالات.

الجدول م3-. التوزيع المكاني للتجمعات الأبوية

التجمعات الظاهرة	ن	الموضع
E-M81 11	11	يفرن
E-M81 8؛ E-Y17446 1؛ G-CTS7045 1	10	غريان
E-M81 2؛ T-M70 1	3	جادو
E-M81 3	3	ككلة
E-M81 3	3	نالوت
E-M81 2	2	كاباو
E-M81 1	1	القلعة
E-V65 1	1	الرياينة
E-M81 1	1	مزدة

المصدر: إعداد المؤلف؛ E-M81 وE-V65 في هذا الجدول هما عنوانا المجموعتين في صفحة المشروع.

أ4-. القراءة السكانية الأولية

أولًا، تكشف العينة عن حضور قوي لخطوط أبوية شمال أفريقية من السلالة E، ولا سيما المجموعة التي صنفها المشروع تحت E-M81. وهذه النتيجة منسجمة من حيث الاتجاه العام مع الأدبيات التي تصف E-M183/E-M81 بأنه أكثر الخطوط الأبوية شيوعًا في شمال أفريقيا، لكنها لا تسمح بتحويل 88.6% إلى نسبة سكانية لجبل نفوسة. فالنسبة تجمع نتائج مؤكدة وأخرى متنبأ بها، كما أن 60% من الفحوص جاءت من بلدتين فقط.

ثانيًا، لا يبدو هذا الحضور نتاج خط أبوي واحد في البيانات المنشورة؛ فالنتائج المؤكدة داخل مجموعة E-M81 موزعة على مسميات متعددة، منها BY9999 وBY9992 وBY8950 وCTS12227 وPF2546 وMZ39 وBY81966 وM81 وBY8940 وBY8945 وMZ7 وMZ16 وMZ22 وMZ21 وMZ5 وMZ89. وهذا يفتح فرضية تعدد الخطوط الأبوية القديمة داخل الجبل، غير أن اختبارها يتطلب شجرة SNP موحدة، ومقارنة المسافات بين الفروع، واستبعاد الأقارب القريبين.

ثالثًا، يظهر احتمال للتكتل المحلي في غريان، إذ تكرر E-MZ21 مرتين وE-MZ7 مرتين ضمن أرباع أو مواضع غريانية مختلفة. قد يعكس ذلك أثر مؤسس أو توسع أسر أبوية محلية، وقد يعكس ببساطة مشاركة أقارب أو انتقائية الاختبار. ولا يمكن الفصل بين الاحتمالين من الجدول العام وحده.

رابعًا، لم تظهر السلالة J في العينات الخمس والثلاثين، مع أنها بلغت 27.4% في دراسة محكمة شملت 175 ذكرًا من منطقة طرابلس، مقابل 33.7% لـ-Tri) E-M81 ki-Fendri et al., 2015). هذا التباين مهم لتوليد فرضية عن اختلاف البنية الأبوية بين بعض مجتمعات الجبل والعينة الساحلية، لكنه لا يثبتها؛ فقد يكون ناشئًا عن الانحياز التطوعي، أو اختيار أسر بعينها، أو اختلاف تعريف المكان، أو تفاوت عمق الفحص.

خامسًا، وجود عينة واحدة من G-CTS7045 في غريان وعينة متنبأ بها من T-M70 في جادو يثبت وجود تنوع أبوي خارج E داخل البيانات، لكنه لا يحدد زمن وصول هذين الخطين ولا مسار الهجرة ولا الهوية التاريخية لحامليهما. ولا يجوز إسناد كل فرع إلى جماعة تاريخية مسماة من دون قرائن زمنية وجينومية وأثرية مستقلة.

سادسًا، لا يتيح الملف مقارنة الناطقين بالأمازيغية والناطقين بالعربية، لأن اللغة والهوية الذاتية ليستا متغيرين منظّمين فيه. كما أن السلالة الأبوية لا تساوي اللغة:

قد تنتقل اللغة أو تتبدل مع استمرار خطوط أبوية محلية، وقد تشترك جماعات مختلفة لغويًا في خطوط أبوية بعيدة واحدة.

أ5-. اختبار الحساسية للحالات الجغرافية المحتملة

عُثر على فحصين إضافيين يذكران الانتساب إلى بني يفرن أو بطون مرتبطة بهم من غير أن يذكرا مدينة يفرن أو موضعًا آخر صراحة؛ لذلك استُبعدا من الحساب الأساسي. وإذا أُدرجا في سيناريو توسعي يصبح الحجم 37 فحصًا، وتظل السلالة E في 35 منها (94.6%) مقابل فحص واحد لـG وفحص واحد لـT. ومن ثم لا يتغير الاستنتاج الوصفي العام، بينما تظل مشكلة التمثيل وعدم استقلال القرابة قائمة.

أ6-. قائمة العينات المرمزة

يعرض الجدول التالي جميع الفحوص الداخلة في الحساب الأساسي بعد إخفاء الاسم ورقم الفحص والنسب العائلي. الرمز JN مخصص لهذا الملحق ولا يقابل معرفًا منشورًا جديدًا.

الجدول م4-. الفحوص المشمولة في التحليل الأساسي بعد الترميز

الاختبار	الحالة	Haplogroup	التجميع	الموضع	الرمز
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-BY9999	E-M81 (تجميع المشروع)	نالوت	JN-01
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-BY9992	E-M81 (تجميع المشروع)	نالوت	JN-02
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	يفرن	JN-03
Y-DNA37	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	مزدة	JN-04
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-BY8950	E-M81 (تجميع المشروع)	يفرن	JN-05
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	يفرن	JN-06
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	ككلة	JN-07
CTS12227	مؤكد (أخضر)	E-CTS12227	E-M81 (تجميع المشروع)	يفرن	JN-08
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	يفرن	JN-09
Genographic 2.0 Transfer	مؤكد (أخضر)	E-PF2546	E-M81 (تجميع المشروع)	يفرن	JN-10
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	القلعة	JN-11
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	جادو	JN-12
E - L19 SNP Pack	مؤكد (أخضر)	E-MZ39	E-M81 (تجميع المشروع)	يفرن	JN-13

الاختبار	الحالة	Haplogroup	التجميع	الموضع	الرمز
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-BY81966	E-M81 (تجميع المشروع)	ككلة	JN-14
Y-DNA111	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	يفرن	JN-15
Deep Clade-E	مؤكد (أخضر)	E-M81	E-M81 (تجميع المشروع)	يفرن	JN-16
Y-DNA37	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	يفرن	JN-17
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-BY8940	E-M81 (تجميع المشروع)	ككلة	JN-18
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	جادو	JN-19
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-BY8945	E-M81 (تجميع المشروع)	يفرن	JN-20
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	غريان	JN-21
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-MZ7	E-M81 (تجميع المشروع)	غريان	JN-22
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	غريان	JN-23
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-MZ16	E-M81 (تجميع المشروع)	نالوت	JN-24
MZ22	مؤكد (أخضر)	E-MZ22	E-M81 (تجميع المشروع)	غريان	JN-25
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-MZ21	E-M81 (تجميع المشروع)	غريان	JN-26
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-MZ21	E-M81 (تجميع المشروع)	غريان	JN-27
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-MZ7	E-M81 (تجميع المشروع)	غريان	JN-28
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-MZ5	E-M81 (تجميع المشروع)	غريان	JN-29
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-M81 (تجميع المشروع)	كاباو	JN-30
Big Y-500	مؤكد (أخضر)	E-MZ89	E-M81 (تجميع المشروع)	كاباو	JN-31
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	E-M35	E-V65 (تجميع المشروع)	الرياينة	JN-32
Y-DNA12	متنبأ به (أحمر)	T-M70	T-M70	جادو	JN-33
Big Y-700	مؤكد (أخضر)	E-Y17446	E (غير مجمّعة)	غريان	JN-34
Family Finder	مؤكد (أخضر)	G-CTS7045	G-M201	غريان	JN-35

ملاحظة: ترتيب الرموز تحليلي فقط؛ لم تُعد نشر الأسماء أو أرقام الفحوص أو الأنساب العائلية.

أ7-. ما الذي يلزم لتحويل الملحق إلى نتيجة سكانية؟

يُستفاد من هذا الملحق في صياغة الفرضيات واختيار مواقع الدراسة، لا في إعلان نسب نهائية. ولتحويل الإشارات الحالية إلى نتائج سكانية قابلة للتحكيم يلزم: معاينة طبقية مستقلة من كل بلدة؛ حد أدنى معلوم من الأسر غير القريبة؛ توثيق مواضع ولادة

الأجداد؛ اختبار SNP عالي الدقة أو Big Y للعينات المتنبأ بها؛ فحص القرابة؛ دمج mtDNA والبيانات الجسمية؛ ثم مقارنة النتائج بالوثائق والهجرات المسجلة واللغة والتاريخ الشفوي. وينبغي نشر النسب مع أعدادها الخام، وفواصل الثقة في العينات الاحتمالية فقط، وتحليلات حساسية لتعريف حدود الجبل والانتماء المكاني.

أ8-. خلاصة الملحق

تُظهر العينات العامة المتاحة سيادة واضحة للسلالة الكبرى E (94.3%)، ووضع 31 من 35 فحصًا ضمن مجموعة E-M81 في صفحة المشروع (88.6%)، مع وجود فرعين أقل تمثيلًا من G وT. إلا أن الرقم الأقوى علميًا ليس 88.6% وحده، بل اقترانه بحقيقة أن 18 فقط من هذه المجموعة مؤكدة باختبار SNP، وأن التغطية منحازة إلى يفرن وغريان، وأن العينة تطوعية وقد تضم أقارب. وعليه تُقرأ البيانات بوصفها قرينة قوية لتصميم بحث سكاني ممثل، لا بديلًا عن ذلك البحث.

مراجع الملحق

Cruciani, F., La Fratta, R., Trombetta, B., et al. (2007). Tracing Past Human Male Movements in Northern/Eastern Africa and Western Eurasia: New Clues from Y-Chromosomal Haplogroups E-M78 and J-M12. Molecular Biology and Evolution, 24(6), 1300–1311. https://doi.org/10.1093/molbev/msm049

FamilyTreeDNA. (2026a). LIBYA Project – Y-DNA Results Overview. Accessed 6 August 2026. https://www.familytreedna.com/public/Libya?iframe=ydna-results-overview

FamilyTreeDNA. (2026b). Introduction to Group Projects. Accessed 6 August 2026. https://help.familytreedna.com/hc/en-us/articles/4503173806351-Introduction-to-Group-Projects

Solé-Morata, N., García-Fernández, C., Urasin, V., et al. (2017). Whole Y-chromosome sequences reveal an extremely recent origin of the most common North African paternal lineage E-M183 (M81). Scientific Reports, 7, 15941. https://doi.org/10.1038/s41598-017-16271-y

Triki-Fendri, S., Sánchez-Diz, P., Rey-González, D., et al. (2015). Paternal lineages in Libya inferred from Y-chromosome haplogroups. American Journal of Physical Anthropology, 157(2), 242–251. https://doi.org/10.1002/ajpa.22705

المكتبة النفوسية المنسية

التأليف الإباضي في جبل نفوسة

بين النص الباقي والكتاب المفقود

الملخص

تبحث هذه الدراسة في تاريخ المؤلفات الإباضية المنسوبة إلى جبل نفوسة، لا بوصفها قائمة عناوين فحسب، بل بوصفها مكتبة تاريخية موزعة بين التأليف والحفظ والنسخ والهجرة والضياع. وتنطلق من بيبليوغرافيا الإباضية، قسم المغرب، مع مقابلة أخبارها بما يورده كتاب السير للشماخي، والاستفادة من فهارس ودراسات حديثة عن خزائن مزاب وجربة ونابولي وكراكو والمجموعات الخاصة في الجبل. وتقترح الدراسة تعريفاً إجرائياً للمكتبة النفوسية يميز بين أربعة مستويات: مؤلف نفوسي نسباً، ومؤلف محلي من قرى الجبل، ونص أُلّف أو دُرّس فيه، وكتاب نسخه أو تملكه نفوسي وإن لم يكن مؤلفه منه. وتبين النتائج أن أقدم طبقات هذا التراث كانت عربية أمازيغية معاً، وأن ضياع النثر العقدي والشعر التاريخي الأمازيغيين أحدث فجوة لا تعكس الحجم الحقيقي للإنتاج. كما تكشف أن القرن الخامس الهجري شهد الانتقال إلى التأليف المؤسسي الجماعي، وأن القرنين السابع والثامن شهدا نضج الموسوعات والمنظومات، بينما يبرز في القرون اللاحقة عمل النساخ وشبكات التداول أكثر من العناوين الأصلية. وتخلص الدراسة إلى أن «فقد المكتبة» لم يقع في حادث واحد: منه حرق وسلب موثق، ومنه ترجمة أزاحت الأصل الأمازيغي، ومنه تشتت بين خزائن الأسر والمدارس، ومنه غياب الفهرسة. لذلك لا يصح عد كل كتاب غير حاضر مفقوداً، ولا عد كل عنوان مختلف مصنفاً مستقلاً. وتقترح الدراسة فهرساً اختادياً وصفياً، ومسحاً ميدانياً للمكتبات الخاصة، وتحقيقاً كوديكولوجياً يعتمد بيانات النسخ والتملك قبل إعادة كتابة تاريخ نفوسة العلمي.

الكلمات المفتاحية: جبل نفوسة؛ الإباضية؛ المخطوطات؛ التأليف الأمازيغي؛ سير الشماخي؛ ديوان الأشياخ؛ النساخ؛ المكتبات المفقودة.

1. إشكالية الدراسة وحدودها

يصعب الحديث عن «مكتبة جبل نفوسة» بصيغة المفرد. فالجبل لم يترك لنا - في حدود المادة المفهرسة - مؤسسة مركزية مستمرة حفظت نسخاً أصلية متصلة منذ القرون الأولى، بل خلّف شبكة من حلقات العلم والمساجد والمدارس وخزائن الأسر. وانتقلت كتب هذه الشبكة إلى جربة ووادي مزاب وتونس والقاهرة وأوروبا، ثم عادت بعض عناوينها إلى التداول عن طريق التحقيق والطباعة. من هنا فالمكتبة النفوسية مفهوم تاريخي مركب: هي مجموع ما ألّفه النفوسيون، وما نشأ في قرى الجبل، وما نسخه أهله، وما بقيت عليه آثار ملكيتهم وقراءتهم، لا مجرد ما يوجد اليوم داخل الحدود الجغرافية لنفوسة.

السؤال المركزي هو: ما الذي نعرفه حقاً من مؤلفات الجبل، وما الذي نعرف أنه ضاع، وما الذي لم يُعثر عليه بعد، وكيف غيّرت شبكات النسخ والهجرة صورة هذا التراث؟ ويتفرع عنه سؤال نقدي: هل تعكس كثافة المؤلفات في عصر وندرتها في عصر آخر حركة التأليف نفسها، أم تعكس فرصة البقاء والفهرسة؟ ويقتضي الجواب رفض معادلتين شائعتين: الأولى مساواة اختلاف العنوان باختلاف الكتاب، والثانية مساواة عدم ورود النسخة في فهرس واحد بالضياع النهائي.

2. المادة والمنهج: من السيرة إلى الفهرس والكولوفون

المصدر الجامع الأول هو أم. أتش. كاسترس، بيبليوغرافيا الإباضية، المجلد الأول: قسم المغرب، ترجمة موحمد ؤمادي وخديجة كارتر، الطبعة الأولى 1433هـ/2012م. وتكمن قيمته في جمع المداخل المتناثرة وإثبات مواضع النسخ والعناوين البديلة؛ غير أن مقدمته نفسها تنبه إلى إمكان السهو والخطأ وعدم الاستيعاب (ص 7-5). لذلك استعمل بوصفه خريطة إحالات لا حكماً أخيراً.

أما كتاب السير للشماخي فيوفر شاهداً داخلياً على كيفية تصور الإباضية لوظيفة المؤلف. فهو يقرن مهدي الويغوي ونفاث وعمروس بطبقة الجدل والتأسيس (ج2، ص 19)، ويصف محمد بن بكر بأنه «أسس فيهم قواعد السيرة» وأن له في كل فن تآليف كثيرة (ج2، ص 61). ويذكر أن مقرّين البغطوري صنف سيرة من تقدمه من أشياخ نفوسة وأتمها في ربيع الآخر سنة 599هـ بجناون (ج2، ص 189)، ثم يسجل منظومات أبي نصر وكتب الجيطالي في القواعد والقناطر والفرائض والمناسك وشرح النونية (ج2، ص 190،

196). وهذه الأخبار لا تعطي فهرساً مادياً للنسخ، لكنها تكشف منطق الانتقال من الرواية إلى التقعيد ثم إلى الموسوعة والمنظومة.

أُنشئ الحصر على أربع طبقات مستقلة: نسبة الشخص؛ مكان التأليف أو التدريس؛ تاريخ أقدم ذكر أو وفاة؛ وتاريخ النسخة الباقية. كما فُصل دور المؤلف عن الجامع والمرتب والشارح والناسخ. فالذي يرتب «لقط أبي عزيز» لا يصبح مؤلف المتن، والذي ينسخ تفسير هود بن محكم لا يُنسب إليه التفسير. واعتمدت التواريخ المدى الزمني حين تختلف المصادر، وأثبتت صيغ الاحتمال بدل تسويتها.

3. ما المقصود بالنسبة النفوسية؟

النسبة ليست بطاقة مكانية بسيطة. قد يدل «النفوسي» على الأصل القبلي، وقد يدل اسم القرية - الجناوني واليفرني والجادوي واللالوتي والتندميرتي والملوشائي والبارواني - على منشأ محلي، وقد يقيم العالم في جربة أو مزاب زمناً أطول من إقامته في الجبل. وتبين دراسة بول لوف في ثلاثين فهرساً أن النسب المحلية نفسها قد يستعملها أفراد مستقرون في جربة، وأن أكثر المادة المفهرسة اليوم يوجد خارج نفوسة لأن المسوح المنهجية داخل الجبل ظلت نادرة. لذلك رُمزت النسبة في الملحق إلى: صريحة؛ محلية صريحة؛ مرجحة؛ أو ملتبسة.

المثال الأوضح هو علي بن رمضان الذي يصفه قيد النسخ سنة 1321هـ/1903م بأنه «المزابي نسباً، النفوسي وطناً، الفرسطائي بلداً» في نسخة القسمة وأصول الأرضين (كاسترس، ص 700). لو اكتفينا بلقب واحد لأخفينا مساراً علمياً عابراً للأقاليم. والمطلوب في الفهرس المستقبلي حقول منفصلة للنسب، والمولد، والإقامة، ومكان النسخ، ومكان الحفظ الحالي.

4. خريطة كرونولوجية للتأليف

الفترة	السمة	الأعلام/البيئات	الأجناس الغالبة
2-3هـ/9-8م	**التأسيس والجدل**	أبو صالح، مهدي الويغوي، نفاث، عمروس	عقيدة وسيرة وردود؛ عربية وأمازيغية؛ فقد مرتفع
4هـ/10م	**الفتوى والشبكة**	بكر الفرسطائي، سليمان الملوشائي، محمد بن بكر	مسائل ومراسلات وتقعيد الحلقة
5-6هـ/11-12م	**المؤسسة والتجميع**	الجناوني، الفرسطائي، مؤلفو الديوان، البغطوري	فقه موسوعي، أرض وقسمة، ديوان جماعي، سير محلي

الفترة	السمة	الأعلام/البيئات	الأجناس الغالبة
7-8هـ/13-14م	**الموسوعة والمنظومة**	أبو نصر الجيطالي، عامر الشماخي، أبو عزيز	أصول وفقه وأخلاق؛ منظومات وشروح وترتيبات
9-10هـ/15-16م	**التأريخ والاختصار**	أحمد الشماخي، محمد بن زكرياء البارواني	سير وطبقات وأجوبة ومختصرات
11-14هـ/17-20م	**النسخ والطباعة**	نساخ لالوت وتندميرة وجادو وكباو والبارونيون	كولوفونات، حواش، انتقال إلى القاهرة وتونس والطباعة

المصدر: تركيب من كاسترس، بيبليوغرافيا الإباضية، ص 14-13، 23، 57-51، 223-194، 262-239، 306-303، 397-354، 479-461، 620-614، 719-660، ومن سير الشماخي، ج2، ص 19، 61، 196-189.

4.1 المرحلة المؤسسة: النص الأمازيغي والجدل العقدي

أقدم ظهور مؤرخ في الحصر هو أبو صالح النفوسي الذي لقيه ابن سلام بتوزر سنة 240هـ/854م، غير أن عنوان أثره لم يبق (كاسترس، ص 23). وفي الطبقة نفسها يبرز مهدي الويغوي النفوسي صاحب رد نثري بالأمازيغية على النفاثية، ونفاث بن نصر الذي وضع مذهبه في كتاب يرجح أنه موضوع الرد (ص 719-718). قيمة الخبر هنا مزدوجة: فهو يثبت أن الأمازيغية كانت لغة حجاج عقدي مكتوب، لا وعاء شفهياً فحسب؛ ويبين أن الانقسام المذهبي أنتج كتابة متقابلة ضاع طرفاها أو كادا.

يمثل عمروس بن فتح المساكني النفوسي (ت 283هـ/896م) أول مشروع وصلتنا منه عناوين ونصوص أوضح: أصول الدينونة الصافية، والعمروسي، وكتاب الحكم والمعارف، وعناوين في الأصول والفقه (ص 620-614). ويجب الاحتراز من عد جميع الصيغ كتبا مستقلة؛ فالعمروسي قد يكون اسماً تداولياً لمجموعة، والعناوين الوصفية قد تحيل إلى أجزاء أو روايات. لكن بقاء أصول الدينونة في نسخ مزابية وأوراق ضمن مجموعة البارواني يسمح بوصفه من أقدم الشواهد الباقية على التأليف العقدي الإباضي المغاربي، لا «أول كتاب» بإطلاق.

4.2 من الفتوى إلى نظام الحلقة

في القرن الرابع الهجري تتقدم المسائل والمراسلات: بكر بن أبي بكر الفرسطائي، وسليمان بن موسى الملوشائي، وسعد بن يفاو، وغيرهم. لكنها تصل غالباً بلا عنوان مستقر أو من خلال اقتباس في مصنف لاحق. ثم يظهر محمد بن بكر الفرسطائي في قلب تحول مؤسسي؛ تنسب إليه سيرة الحلقة أو السيرة البكرية و«تآليف كثيرة»،

بينما بقيت قواعد السيرة بالنقل والاستعمال أكثر مما بقيت في أصل مؤرخ (كاسترس، ص 715-713؛ الشماخي، ج2، ص 61). فالمؤسسة هنا هي أيضاً وسيط حفظ: قد يضيع الكتاب المادي وتبقى أحكامه في نظام العزابة.

4.3 القرن الخامس والسادس: الكتاب الجماعي ومشكلات العنوان

تبلغ الكتابة الفقهية كثافة جديدة مع أبي زكرياء يحيى الجناوني وكتبه في الأحكام والوضع والنكاح والصوم، ومع أحمد بن محمد بن بكر الفرسطائي (ت 504هـ/1111م) الذي تنسب إليه المصادر عشرين أو خمساً وعشرين مصنفاً، منها أبو مسألة/الجامع، والقسمة وأصول الأرضين، وتبيين أفعال العباد، والجنائز والديات (كاسترس، ص 354-369، 710-689). غير أن الأرقام الإجمالية لا ينبغي أن تتحول إلى إحصاء قطعي؛ فبعض «الكتب» أبواب داخل جامع، وبعضها مختصر أو تلخيص أو عنوان بديل.

أشد حالات الالتباس ديوان الأشياخ وديوان العزابة. تجمع بيبليوغرافيا الإباضية أخباره في ص 549-542، لكن الدراسة الحديثة لمخطوطات دار إروان تميز بين ديوان الأشياخ المؤلف في غار أمجماج بجربة في اثني عشر جزءاً، وديوان العزابة المؤلف في وادي أريغ في خمسة وعشرين كتاباً، مع مشاركة نفوسيين في كليهما. إذن فلفظ «الديوان» اسم تقليد فقهي تراكمي، لا توقيع مؤلف واحد ولا بالضرورة كتاب واحد. والتحقيق المطلوب ينبغي أن يقارن ترتيب الأبواب وأسانيد النسخ لا العناوين وحدها.

وفي نهاية هذه المرحلة ينجز مقرّين البغطوري سير مشايخ نفوسة سنة 599هـ/1203-1202م بجناون. وتظهر قيمة السيرة في بناء ذاكرة مكانية للعلم: قرى وشيوخ وتلاميذ ومسائل، لا تراجم معزولة. وقد عُد الكتاب مفقوداً زمناً ثم عثر سالم بن يعقوب على نسخة منه في قيزن بجربة، ومنها نسخ لاحقة، بينها نسخة بدار إروان (كاسترس، ص 262-259). هذه الحالة تعلمنا أن «المفقود» وصف تاريخي قابل للتغير بالاكتشاف والفهرسة.

4.4 القرنان السابع والثامن: الموسوعة والمنظومة

يظهر أبو نصر فتح بن نوح الملوشائي في النصف الأول من القرن السابع الهجري بوصفه صانع تقليد تعليمي: نونية في التوحيد، ورائية في الصلاة، وحائية لتحريض الطلبة، ورسالة المسترشد، ونونية في الرد على نفي خلق القرآن، إلى جانب كتاب النيل وشفاء العليل وعمل يسمى ديوان الإمام أبي نصر (كاسترس، ص 671-660؛ الشماخي، ج2، ص 190). المنظومة اختزال قابل للحفظ، لكنها تولد شروحاً وحواشي، ولذلك

تضاعف حضور أبي نصر في خزائن متأخرة حتى لو لم تبق نسخة المؤلف.

أما إسماعيل الجيطالي (ت 730 أو 750هـ) فيمثل النزوع الموسوعي: قواعد الإسلام، وقناطر الخيرات، وشرح النونية، والفرائض والحساب، والحج والمناسك، وأجوبة الأئمة، وعقيدة التوحيد، ومقاييس الجروح، والمرصاد (كاسترس، ص 397-373؛ الشماخي، ج2، ص 196). ولا يعني طول القائمة أن حالة النصوص واحدة؛ بعضها مطبوع مشهور، وبعضها محفوظ بنسخ متعددة، وبعض العناوين أقرب إلى أبواب أو مجموعات أجوبة. وقد أحصت دراسة دار إروان تسعاً وعشرين منسوخة لأعمال الجيطالي في الخزانة، مقابل ثلاثين لأبي نصر وأربع وعشرين لعامر الشماخي؛ وهو دليل على كثافة الاستقبال لا على عدد المؤلفات الأصلية.

4.5 من السيرة إلى الطباعة

يربط عامر الشماخي (ت 792هـ/1390م) بين الفقه المدرسي وموسوعة الإيضاح، ثم يجمع أحمد بن سعيد الشماخي اليفرني (ت 928هـ/1522م) السيرة والأصول والفقه واللغة في كتاب السير وحواشي مقدمة التوحيد ومختصر العدل والإنصاف وحل الرموز (كاسترس، ص 239، 479-471). وتصبح السيرة نفسها خزينةً لتعويض أصول مفقودة: تنقل أسماء الكتب ووقائع الفراغ منها وسلاسل التعليم، لكنها تعيد ترتيب الماضي من منظور متأخر، فلا تغني عن نقد النسخ.

وفي القرن التاسع/العاشر الهجري ثم العصر الحديث تقوى الأسر العلمية والمدارس العابرة للمدن. كتب محمد بن زكرياء الباروني في الطبقات والتاريخ والعقيدة، ثم قاد البارونيون في القرن التاسع عشر وبدايات العشرين انتقالاً إلى القاهرة ووكالة الجاموس والطباعة والصحافة. ومن الشواهد اللافتة كتاب إبراهيم بن سليمان الشماخي المنشور سنة 1885م بالأمازيغية بعنوان جبل نفوسة: ئغاسرا د ئبريدن د ئدرار ن ئنفوسن (كاسترس، ص 471)، وهو يثبت استمرار الأمازيغية المكتوبة، وإن كان قد وصل في سياق استشراقي/طباعي مختلف عن مؤلفات القرن الثالث.

5. المعلوم الباقي: درجات لا حالة واحدة

يتوزع «المعلوم» على ثلاث درجات. الأولى نصوص مطبوعة أو محققة ذات تقليد مخطوط معلوم، مثل أصول الدينونة الصافية، وقواعد الإسلام، وقناطر الخيرات، والإيضاح، وكتاب السير. والثانية نصوص بقيت في نسخة أو بضع نسخ ولم تستقر دراستها، مثل بعض رسائل العقيدة والنوازل والأجوبة. والثالثة عناوين نعرفها من

اقتباس أو ترجمة أو ترتيب متأخر. فيكون الباقي أثراً من الكتاب لا الكتاب نفسه. ومن الخطأ وضع الدرجات الثلاث في خانة «موجود» بلا بيان.

وتكشف بيانات الخزائن أن البقاء لا يتبع موطن التأليف. فأصول الدينونة الصافية عرفت من نسخ مزابية ومن أوراق في مجموعة الباروني (كاسترس، ص 620-614)، والعمروسي وصف في مكتبة أسرة بغطور وفي خبر عن نسخة عند عزابي بجناون/جادو نحو 1969، والقسمة وأصول الأرضين توزعت بين مجموعة الباروني ومكتبات مزاب ونسخ نسبت إلى مالكين في مرساون/الرحيبات وجادو (ص 705-698). هذه أخبار بالغة القيمة، لكنها عناوين تاريخية للنسخ لا ضماناً لمكانها سنة 2026.

6. المؤلفات المفقودة، ولا سيما الأمازيغية

صاحب/بيئة	العنوان أو الوصف	الفترة	دليل المعرفة	حكم الحالة	ص
أبو صالح النفوسي	مؤلف غير مسمى	240هـ/854م	ذكر المؤلف بلا عنوان أو نسخة	مفقود العنوان	23
مهدي الويغوي	رد على النفاثية بالأمازيغية	3هـ/9م	خبر صريح عن نثر عقدي أمازيغي	لا نسخة معروفة	718
نفاث بن نصر	كتاب مذهبه	3هـ/9م	يرجح أنه موضوع رد مهدي	العنوان والنسخة مفقودان	719
أبو سهل الفارسي	ديوان أمازيغي و12 كتاباً في التاريخ والفقه	3هـ/9م؟	سلب بعضه وحرق باقيه سنة 440هـ؛ أعيد جمع الشعر من الذاكرة	فقد موثق؛ بقايا محتملة	711-713
سليمان بن زرقون	ديوان وكتب عدة	4هـ/10م	لا يعرف ما بقي منها	غير معثور عليه	689
محمد بن بكر	تآليف كثيرة وسيرة الحلقة	4-5هـ/10-11م	بقيت القواعد بالنقل	الأصول غير معروفة	713-715
عمرو بن جميع/تقليد العزابة	الأصل الأمازيغي لمقدمة التوحيد	8-9هـ/14-15م	النص العربي ترجمة عن الأمازيغية	الأصل غير معروف	51-57
مجهول	سيرة مشايخ أهل المغرب من أهل نفوسة	6هـ/12م؟	رسالة توحيد مترجمة من الأمازيغية	الأصل الأمازيغي غير معروف	578

المصدر الأساس: كاسترس، ص 23، 57-51، 578، 689، 719-711. الأحكام هنا ببليوغرافية مؤقتة، لا إعلانات نهائية بانعدام النسخ.

6.1 كارثة أبي سهل: نموذج للفقد المركب

تقدم ترجمة أبي سهل الفارسي النفوسي أوضح قصة لفقد مكتبة شخصية. تنسب إليه قصيدة أو ديوان طويل بالأمازيغية واثنا عشر كتاباً في التاريخ والفقه. وتذكر الرواية أن النكّار سلبوا بعض آثاره، ثم احترق ما بقي في قلعة بني درجين قرب قسطيلية سنة 440هـ/1048م، وأن شعره أعيد جمعه من أفواه الحفظة في أربعة وعشرين باباً (كاسترس، ص 713-711). نحن أمام ثلاثة انتقالات: من المكتوب إلى المحروق، ومن الذاكرة إلى الجمع الجديد، ومن الأمازيغية المحلية إلى خبر عربي متأخر. لذلك لا يمكن أن يعامل الديوان المعاد جمعه - إن عثر عليه - بوصفه نسخة حرفية من الأصل من غير نقد رواياته.

وتنبه البيبليوغرافيا إلى أن آثاراً من المؤلفات الأمازيغية قد تظهر بفحص خزائن مزاب وجربة ونفوسة. هذا ليس دليلاً على وجودها، لكنه برنامج بحث معقول: كثير من الفهارس القديمة يصف المجموع بعنوان أوله أو بأشهر نص فيه، وقد تختبئ أوراق أمازيغية غير معرفة في آخر مجاميع عربية أو في دفاتر تعليمية عائلية.

6.2 الترجمة بوصفها حفظاً ومحوًا

يحفظ نقل مقدمة التوحيد من الأمازيغية إلى العربية تعليماً عقدياً كان يمكن أن يضيع، لكنه في الوقت نفسه يحجب لغة الأصل ومصطلحاته وبنيته. وكذلك الرسالة المجهولة في التوحيد المنسوبة إلى مشايخ نفوسة، الموصوفة بأنها مترجمة من الأمازيغية (كاسترس، ص 57-51، 578). لا ينبغي وصف الترجمة بأنها «الكتاب الأمازيغي الباقي»؛ هي شاهد على الأصل وطور جديد من النص. ومن ثم يحتاج تاريخ الأمازيغية الإباضية إلى تعقب آثار الترجمة: الألفاظ الدخيلة، والتراكيب غير المألوفة، والنسخ ثنائية اللغة، والشروح الشفوية المدونة على الحواشي.

7. النسخ: التاريخ الثاني للكتاب

إذا كان التأليف يجيب عن سؤال «من أنشأ النص؟» فإن الكولوفون يجيب عن سؤال «من أبقاه حياً؟». يبدأ الحصر المؤرخ للنسخ النفوسي المتاح هنا بسليمان بن أبي القاسم بن سليمان النفوسي، الذي فرغ سنة 1002هـ/1594م من تفسير هود بن محكم الهواري (كاسترس، ص 725)، ويمتد إلى نساخ القرن الرابع عشر الهجري. وتشمل المواضع لالوت وجادو وكباو وتندميرة ويفرن، كما تشمل تونس والقاهرة ووكالة الجاموس؛ وبذلك يرسم النسخ جغرافيا التعليم والهجرة.

أحصت دراسة عبد الفتاح عمي سعيد وإلياس حسين بابا نجار تسعة عشر ناسخاً نفوسياً في دار إروان، وكانت موضوعات ما نسخوه: الفقه 22، والعقيدة 6، واللغة العربية 4، والتاريخ 3، والسيرة النبوية 3، والوعظ 3، وغيرها 2 (ص 300). لا تمثل هذه الأرقام كل الجبل، بل خزانة واحدة وتاريخ اقتنائها، لكنها تصحح صورة التراث بوصفه عقدياً وفقهياً فقط. وتظهر أن اللغة والتاريخ والوعظ جزء من برنامج النسخ.

كما يحذر السجل من الخلط بين النساخ المتشابهين ومن الاستنتاج الزمني السريع. كثافة النسخ بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الهجريين لا تثبت أن التأليف انخفض؛ فالورق الأحدث أبقى، والكولوفونات أوضح، والخزائن الحديثة فهرست تلك النسخ أكثر من أوراق القرون الأولى. إنها فجوة بقاء وفهرسة بقدر ما هي ظاهرة تاريخية.

8. أين توجد المخطوطات اليوم؟ خريطة خزائن لا عنوان واحد

الخزانة	المكان	نوع المادة النفوسية	قيمة الإحالة وحدودها
جبل نفوسة - خزائن خاصة	تندميرة وغيرها	مشروع UCLA يوثق مجموعتين للتندميرتي؛ أوراق محلية ونسخ حديثة	قيد المسح؛ الملكية خاصة؛ لا فهرس اتحادي مكتمل
الخزانة البارونية	حومة السوق، جربة	مخطوطات فقه وعقيدة وسير؛ ضمت مكتبة موسى بن علي البارواني النفوسي	مؤسسة قائمة؛ أعيد فهرستها منذ 1982 وتوفر خدمات حفظ ورقمنة
مكتبة أسرة بغطور	والغ، جربة	العمروسي، مسائل توحيد، الرد على المخالفين	إحالات تاريخية في البيبليوغرافيا؛ يلزم تحقق راهن
دار إروان	غرداية، مزاب	كتل كبيرة لأبي نصر والجيطالي وعامر الشماخي والجناوني والفرسطائي	خزانة عامة قديمة؛ دراسة كمية حديثة متاحة
خزائن مزاب الأخرى	العطف وغرداية وغيرها	أصول الدينونة، القسمة وأصول الأرضين، شروح وحواش	أسماء متعددة في المداخل؛ تحتاج إلى توحيد أرقام الحفظ
دار الكتب المصرية/ مجموعات القاهرة	القاهرة	نسخ بارونية وكباوية ونفوسية؛ أثر وكالة الجاموس	مؤسسة عامة؛ يلزم ربط القيود الحديثة بأسماء الفهارس القديمة
جامعة نابولي الشرقية	نابولي	مخطوطات وصلت من جبل نفوسة 1911-1913؛ منها سير ومجاميع	مفهرسة؛ سياق الخروج مرتبط بالغزو الإيطالي
مكتبة جامعة ياغيلونيا	كراكو	ثلاث نسخ من سير أبي زكرياء؛ بينها نسخة كاملة ونسخة نفوسية سنة 1926	مؤسسة عامة؛ تفاصيل النسخ عند كاسترس ص 735-731

الخزانة	المكان	نوع المادة النفوسية	قيمة الإحالة وحدودها
المكتبة البريطانية	لندن	تفسير هود Or. 9460 من ملك محمد بن يوسف البارواني سابقاً	شاهد ملكية وتداول نفوسي، لا تأليف نفوسي

المصادر: كاسترس، ص 383، 620-614، 705-698، 735-731، 789؛ موقع الخزانة البارونية؛ مشروع UCLA-MEAP؛ Paul Love, Catalog of Ibadi Manuscripts at Naples؛ ودراسة دار إروان (2024).

8.1 الجبل نفسه: الحضور الغائب في الفهارس

المفارقة أن المادة المنسوبة إلى نفوسة أوضح في فهارس جربة ومزاب وبعض المؤسسات الأوروبية منها في فهرس شامل للجبل. ويعالج مشروع برنامج الأرشيفات الحديثة المهددة في UCLA جزءاً من هذه الفجوة بمسح مجموعات خاصة في جبل نفوسة. وقد وثق مجموعتين: مكتبة الشيخ أمحمد علي التندميرتي، التي بدأت منذ عشرينيات القرن العشرين ويرجح أن قسماً كبيراً منها صودر بعد اعتقال صاحبها في عهد القذافي؛ ومكتبة محمد أحمد علي التندميرتي، الذي جمعها منذ ستينيات القرن العشرين مع إقامته في طرابلس. وتضم المجموعتان نسخاً محلية وتواريخ للقرن العشرين. هذه أخبار عن مكتبات حديثة نسبياً، لكنها تثبت استمرار نمط الخزانة العائلية وهشاشتها أمام المصادرة والنقل.

8.2 جربة ومزاب: مركزا الحفظ اللاحق

تأسست الخزانة البارونية في جربة سنة 1235هـ/1819م على يد سعيد بن عيسى البارواني الفساطوي الأصل، وضمت مكتبة قريبه موسى بن علي البارواني النفوسي. ويذكر موقعها المؤسسي إعادة تنظيمها وفهرستها منذ 1982 وانتقالها إلى مبنى في حومة السوق، مع خدمات للحفظ والرقمنة. وهي لذلك ليست مجرد «موقع نسخة» بل ذاكرة هجرة تعليمية من نفوسة إلى جربة والقاهرة.

وفي مزاب تمثل دار إروان دليلاً عددياً على إعادة توطن التراث النفوسي. فالدراسة الحديثة تحصي في الخزانة ستة عشر نصاً/نسخة للجناوني، وثمانية لأحمد الفرسطائي، وواحداً للبغطوري، وثلاثين لأبي نصر، وتسعة وعشرين للجيطالي، وأربعة وعشرين لعامر الشماخي، وستة لعبد الله بن يحيى البارواني، وأعداداً أقل لغيرهم (ص 295-293). والأدق تسمية هذه الأرقام «منسوخات» بحسب الدراسة، لا عناوين مستقلة.

8.3 أوروبا والقاهرة: خروج المخطوط وإعادة تعريفه

يذكر فهرس بول لوف أن مجموعة جامعة نابولي الشرقية جاءت من جبل نفوسة بين 1911 و1913، زمن الحرب الإيطالية العثمانية والغزو الإيطالي. وفيها، مثلاً، نسخة من كتاب السير (ARA 30) نسخها سليمان بن موسى بن عيسى النفوسي سنة 1187هـ/1773م، ومجاميع فقهية وعقدية أخرى. أما كراكو فتحفظ ثلاث نسخ من سير أبي زكرياء، إحداها كاملة، وأخرى نسخها ناسخ مجهول من جبل نفوسة سنة 1345هـ/1926م عن نسخة إبراهيم الشماخي المؤرخة 1302هـ/1885م بطلب من سموغورزسكي (كاسترس، ص 735-731). هذه القيود تربط الاستشراق الأوروبي مباشرة بشبكات النسخ المحلية.

وتقدم المكتبة البريطانية مثال ملكية لا مثال تأليف: تفسير هود بن محكم الهواري Or. 9460 كان في ملك محمد بن يوسف الباروني ثم اقتنته المكتبة سنة 1924 من إسحاق بنيامين يهودا. وفائدته أنه يكشف مساراً من الملكية البارونية والطباعة/التجارة في القاهرة إلى مؤسسة أوروبية، ولا يصح إدراجه بين «مؤلفات نفوسة» لمجرد صلته بمالك نفوسي.

9. المكتبات النفوسية المفقودة: تصنيف أسباب الفقد

لا تسند المادة المتاحة رواية مكتبة نفوسية واحدة أحرقت بكاملها، بل تسند وقائع متعددة ينبغي فصلها. أولها التدمير المباشر، كما في كتب أبي سهل التي جمعت بين السلب والحريق سنة 440هـ. وثانيها ضياع مكتبة عالم من غير خبر آليتها، كما في ديوان سليمان بن زرقون وكتبه. وثالثها التشتت الطبيعي بين الورثة والمدارس والهجرة؛ وهو ما تفسره إحالات بغطور والباروني ومزاب. ورابعها المصادرة السياسية المحتملة أو الموثقة حديثاً، كما في مجموعة التندميرتي. وخامسها الفقد المعرفي: وجود أوراق مادية لم تدخل فهرساً أو وصفت بعنوان جامع يحجب النصوص الصغيرة.

ويضاف إلى ذلك «فقد الأصل ببقاء التحويل»: حين تبقى ترجمة عربية أو ترتيب لاحق أو مختصر، بينما يزول الأصل الأمازيغي أو النسخة الأولى. هذا النوع لا يظهر في سجلات الحرائق، لكنه أخطر على دراسة اللغة وبنية الحجاج. ومن ثم تقترح الدراسة استعمال أوصاف دقيقة: محروق، مسلوب، مشتت، مصادر، غير مفهرس، غير محدد المكان، أو باق بواسطة ترجمة؛ بدلاً من كلمة مفقود وحدها.

10. تقويم نقدي للصورة الببليوغرافية

10.1 تضخم عدد المؤلفات

تجمع الفهارس أحياناً بين اسم الكتاب، واسم الباب، واسم المختصر، واللقب التداولي. أبو مسألة هو أيضاً الجامع في بعض السياقات؛ والقسمة وأصول الأرضين له تلخيص؛ وسير البغطوري يحمل صيغ سير نفوسة القديم وسير مشايخ نفوسة؛ ولقط أبي عزيز له ترتيبات لاحقة. لذلك يجب أن تبنى وحدة العد على تطابق الافتتاح والخاتمة وترتيب الأبواب، لا على اختلاف العنوان وحده.

10.2 تحيز البقاء

يبدو القرن الثالث غنياً في أخبار المؤلفين وفقيراً في الأصول، بينما يبدو القرن الثالث عشر غنياً في النسخ. والسبب ليس بالضرورة خلواً من الإبداع إلى التقليد؛ فالنسخة الأحدث أقدر على البقاء، وتواريخها أوضح، وعناية الجامعين الأوروبيين بها أوثق. لهذا ينبغي فصل منحنى التأليف عن منحنى أقدم الشواهد الباقية.

10.3 المؤلف الجماعي

نظام الحلقة والعزابة ينتج نصاً قابلاً للزيادة والترتيب. وهو نموذج تأليف لا يناسب مفهوم المؤلف الفرد الحديث. ديوان الأشياخ، والنوازل، والسؤالات، والتقييدات، كلها قد تحمل طبقات. والمطلوب وصف كل شاهد مخطوط كوحدة لها ناسخ وورق وترتيب وزيادات، ثم بناء شجرة نصية، لا رد المجموعة بأكملها إلى اسم مشهور.

10.4 صمت الفهرس عن اللغة

قد يصنف الفهرس مخطوطاً تحت موضوع العقيدة من غير وصف لغته أو حروفه أو وجود تعليقات أمازيغية. وهذا يفاقم اختفاء التراث الأمازيغي. كل مسح جديد ينبغي أن يسجل اللغة الأساسية والثانوية، ونظام الكتابة، والكلمات بين السطور، وتعليقات الهوامش، وأسماء الأعلام والأماكن بصورتها الأصلية.

11. برنامج عمل لإعادة بناء المكتبة النفوسية

المرحلة	المشروع	المخرج العلمي
1	فهرس الخادي	جمع قيود نفوسة وجربة ومزاب والقاهرة ونابولي وكراكو ولندن في قاعدة واحدة، مع معرّف لكل شاهد لا لكل عنوان فقط.

المرحلة	المشروع	المخرج العلمي
2	مسح ميداني	توثيق الخزائن الخاصة بإذن أصحابها، وتصوير المجاميع كاملة، بما في ذلك الأوراق البيضاء والحواشي والوثائق الملحقة.
3	قاموس استنادي	فصل النسب والوطن والإقامة ومكان النسخ، وربط صيغ الأسماء الأمازيغية والعربية والمتصحفة.
4	نقد مادي	وصف الورق والمقاييس والملازم والخط والتجليد والتملكات والسماعات؛ فهذه البيانات قد تعيد نسخة إلى الجبل ولو غاب لقب الناسخ.
5	مدونة للأمازيغية	فحص المجاميع العربية بحثاً عن نصوص أو هوامش أمازيغية، ومقارنة الترجمات العربية بالمصطلح المحلي.
6	تحقيق شبكي	اختيار ملفات نموذجية - أصول الدينونة، الديوانان، سير البغطوري، لقط أبي عزيز - ومقارنة جميع الشواهد قبل إصدار حكم في عدد الكتب ونسبتها.
7	تاريخ التداول	بناء خط زمني للكولوفونات والتملكات والوقف والإعارة والطباعة، ليصبح الناسخ والمالك جزءاً من تاريخ النص.

الأولوية العملية: تصوير المجموعات المهددة وفهرستها أولاً، ثم الانتقال إلى المقابلة النصية والتحقيق.

الخاتمة

تكشف المؤلفات الإباضية في جبل نفوسة تاريخاً علمياً أطول وأغنى من صورة «الكتب الباقية» وحدها. ففي القرن الثالث الهجري نجد جدلاً عقدياً بالأمازيغية والعربية، وفي القرن الرابع تنظيماً للحلقة، وفي الخامس والسادس فقهاً جماعياً وذاكرة سيرية محلية، وفي السابع والثامن موسوعات ومنظومات وشروحاً، ثم تتقدم في العصور اللاحقة طبقة النساخ والأسر العلمية والطباعة. وما يبدو فراغاً بين هذه المراحل كثيراً ما يكون فراغاً في الشاهد أو الفهرس.

أهم نتيجة تقييمية أن المكتبة النفوسية لم تختف دفعة واحدة، ولم تبق في مكان واحد. لقد أعيد توزيعها: احترق بعضُها وسُلب، وترجم بعضُها فضاع أصله الأمازيغي، وانتقل بعضُها إلى جربة ومزاب والقاهرة، وخرج بعضُها إلى أوروبا في سياق الاستعمار والاقتناء، وبقي قسم في خزائن عائلية لم تكتمل فهرستها. لذلك فإن كتابة تاريخ نفوسة العلمي لا تبدأ بإحصاء المؤلفين فقط، بل بإعادة وصل النص بصاحبه وناسخه ومالكه ومكانه المتغير.

وعليه، فإن أي حكم نهائي في ضياع كتاب أو نسبته ينبغي أن يؤجل إلى ما بعد فهرس الحادي ومسح ميداني ومقابلة كوديكولوجية. وفي حدود المادة المتاحة، يُرجح

أن أضخم خسارة نوعية هي خسارة الطبقة الأمازيغية المبكرة، وإن أفضل سبيل إلى استعادتها ليس انتظار العثور على مجلد كامل، بل فحص المجاميع والحواشي والترجمات وذاكرة العائلات بوصفها شظايا مكتبة واحدة موزعة.

المصادر والمراجع

الشماخي، أحمد بن سعيد. كتاب السير، الجزء الثاني، ص 19، 61، 189-190، 196. النسخة المصورة المعتمدة في هذه الدراسة.

كاسترس، أم. أتش. بيبليوغرافيا الإباضية، المجلد الأول: قسم المغرب (مصر وليبيا وتونس والجزائر). ترجمة موحمد وُمادي وخديجة كارتر، مراجعة سليمان بن إبراهيم بابزيز الوارجلاني. سلطنة عمان: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ط1، 1433هـ/2012م.

عبد الفتاح عمي سعيد، وإلياس حسين بابا نجار. «المخطوطات النفوسية في مكتبات وادي مزاب: دار إروان بغرداية أنموذجاً»، ص 302-290، 2024.

Love, Paul M. "Nisba & Knowledge in the Jebel Nafusa." Ibadi Studies, 4 August 2024.

Love, Paul M. Catalog of Ibadi Manuscripts at the Universita degli Studi di Napoli L'Orientale in Naples.

UCLA Modern Endangered Archives Program. "A Survey of Endangered Manuscript Libraries in the Jebel Nafusa, Libya".

الخزانة البارونية. «تاريخ المكتبة وترجمة المؤسس».

Jagiellonian Library. "Manuscripts".

Love, Paul M. "An Ibadi Tafsir at the British Library." Ibadi Studies, 5 July 2024.

الملحق 1

الحصر الكرونولوجي للمؤلفين[7]

تعني «درجة النسبة» مقدار اليقين في صلة الشخص بالجبل، لا صحة نسبة كل عنوان إليه. أرقام الصفحات هي صفحات الكتاب المطبوعة في بيبليوغرافيا الإباضية، لا عداد ملف PDF.

التاريخ	المؤلف	المؤلفات/الأثر	ملاحظة ودرجة النسبة	ص
240هـ/854م	أبو صالح النفوسي	مؤلَّف غير مسمّى؛ لا يحفظ الكتاب عنوانه.	أقدم ظهور مؤرّخ في الحصر: لقيه ابن سلام بتوزر. النسبة صريحة، لكن أثره مفقود العنوان. ا صريح	23
النصف الأول 3هـ/9م	مهدي الويغوي النفوسي	الرد على النفاثية - نثر أمازيغي.	يرجّح تأليفه بعد العودة إلى نفوسة؛ تاريخ الوفاة 196هـ الذي تنقله بعض السير يشكك فيه الكتاب. ا صريح/التاريخ مرجّح	718
نحو منتصف 3هـ/9م	نفاث بن نصر النفوسي	كتاب في مذهبه، غير محفوظ العنوان.	مؤسس النفاثية؛ يرجح أنه الكتاب الذي رد عليه مهدي الويغوي. ا صريح/العنوان مفقود	719
ت 283هـ/896م	أبو حفص عمروس بن فتح المساكني النفوسي	أصول الدينونة الصافية؛ العمروسي؛ كتاب الحكم والمعارف؛ كتاب أعلام الملة؛ وكتابان في الأصول والفقه.	قاضي جبل نفوسة وأحد كبار علماء المغرب؛ تعدد العناوين قد يشير إلى صيغ أو أجزاء متداخلة. ا صريح	620-614
ت 283هـ/896م	أبو معروف ماطوس بن هارون الشروسي	كتاب ماطوس.	من شروس في جبل نفوسة، قُتل في معركة مانو؛ لا يقدم الكتاب وصفاً لمحتوى المؤلَّف. ا محلي صريح	519
بعد 283هـ/896م	أبو الربيع سليمان بن ماطوس الشروسي	كتب في أصول الدين؛ فتاوى.	من علماء الجبل الذين نجوا من معركة مانو؛ العناوين التفصيلية غير محفوظة. ا محلي صريح	469

7 - هذا عدد وإحصاء للعلماء الذين وصلنا مؤلفاتهم، يقول الدكتور محمد حسن محقّق كتاب السير للشمّاخي: «تعد الجبال الواقعة غرب طرابلس البؤرة الرئيسيّة للمذهب الإباضي ببلاد المغرب، ونقطة انطلاق الدعاة في اتجاه الواحات، وبلاد السودان جنوبا وإفريقيّة شمالاً ...، وبدراسة رقمية لعدد علماء الإباضية نجد أن عددهم قد بلغ في الغرب الإسلامي (550) خمسين وخمسمائة عالم، منهم (238) ثمان وثلاثون ومائتا عالم من جبل نفوسة، وهو ما يناهز نصف العلماء المغاربة الإباضية.

التاريخ	المؤلف	المؤلفات/الأثر	ملاحظة ودرجة النسبة	ص
3هـ/9م؟	أبو سهل الفارسي النفوسي	ديوان أمازيغي؛ اثنا عشر كتاباً في التاريخ والفقه بحسب الرواية.	مترجم وشاعر ومؤرخ؛ يورد الكتاب خلافاً زمنياً، ويقرر ضياع آثاره بالحرق أو السلب. ا صريح/التاريخ مختلف فيه	713-711
300-350هـ/912-961م	أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي	ديوان أبي الربيع؛ كتب أخرى ضائعة.	من تابديوت في جبل نفوسة؛ لا يعرف ما بقي من ديوانه. ا صريح	689
4هـ/10م	بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي	مسائل وفتاوى فقهية، دون عنوان محفوظ.	من أريغ، وتلقى عن ابن ماطوس في نفوسة؛ يرجح أنه والد محمد بن بكر. ا صريح/العنوان مفقود	716
4هـ/10م	أبو الربيع سليمان بن موسى الملوشائي	مراسلات فقهية وفتاوى.	أصيل تملوشايت وعاش في إبناين؛ حفظت آراؤه بالنقل في كتاب النكاح للجناوني. ا محلي صريح	660
أواخر 4هـ-440هـ/10م-1048م	أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي	سيرة الحلقة/السيرة البكرية؛ وكتب أخرى ضائعة.	مؤسس نظام العزابة في صيغته المنظمة؛ وصلتنا السيرة بطريق النقل لا بأصل مؤرخ. ا صريح	715-713
4-5هـ/10-11م	أبو عبد الله محمد بن أبي بكر النفوسي «السائح»	لا عنوان مستقل محفوظ.	نشط بين سدراتة وأريغ؛ يحتمل التباسه بمحمد بن بكر الفرسطائي. ا صريح/هوية ملتبسة	713
5هـ/11م	سعد بن يفاو النفوسي	كتاب سؤالات وأجوبة وأخبار، بلا عنوان ثابت.	يعكس اتصال الفقه بالتراجم والأخبار، لكن بيانات النسخ مفقودة. ا صريح/العنوان مفقود	716
450-500هـ /1058-1106م	محمد بن صالح المسناني النفوسي	كتاب الوصايا، ضمن ديوان العزابة.	من طبقة علماء مسنان في جبل نفوسة؛ المؤلَّف باقٍ داخل بنية جماعية. ا صريح	717
2/5هـ-1/6هـ / 11-12م	أبو سعيد يخلفتن بن أيوب الزنزفي المسناني	كتاب النكاح؛ مسائل الخلاف؛ مساهمة في ديوان العزابة/الأشياخ.	عالم من أمسنان؛ يهتم بالسير والفقه، ونسبة أجزاء الديوان إلى الأفراد ليست دائماً فاصلة. ا صريح	711-710
5-6هـ/11-12م	أبو العزيز النفوسي	كتاب اللقط؛ نوازل نفوسة.	الشخصية غير معرّفة تعريفاً كافياً، والعنوانان قد يكونان ضمن تقاليد تجميعية لاحقة. ا صريح/هوية غامضة	710

التاريخ	المؤلف	المؤلفات/الأثر	ملاحظة ودرجة النسبة	ص
5هـ/11م أو 1/6هـ/12م	أبو زكرياء يحيى بن الخير الجناوني	كتاب الأحكام؛ عقيدة التوحيد/عقيدة نفوسة؛ الديوان؛ كتاب اللمع المعروف بالوضع؛ كتاب النكاح؛ كتاب الصوم.	من إجناون/جادو؛ أحد أكبر مشاريع الفقه النفوسي، مع خلاف في طبقته وتداخل بين الديوان وأبوابه. ا محلي صريح/التاريخ مختلف فيه	369-354
نحو 5-6هـ/11-12م	أبو موسى عيسى بن عيسى النفوسي	نسخ وجمع كتاب السؤالات مع زيادات؛ ونُسب إليه التأليف في بعض الروايات.	الأدق اعتباره ناقلاً/جامعاً في نص تراكمي متعدد الأيدي. ا صريح/الدور ملتبس	462-461
ت 504هـ/1111م	أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي	أبو مسألة/الجامع؛ الألواح؛ الأموات/الجنائز؛ الدماء والديات؛ تبيين أفعال العباد؛ مسائل التوحيد؛ القسمة وأصول الأرضين؛ تلخيص القسمة؛ مجموعة مسائل.	تنسب إليه المصادر عشرين أو خمساً وعشرين مصنفاً. تعدد الصيغ والعناوين البديلة يمنع عدّها آلياً مؤلفات مستقلة. ا صريح	710-689
ازدهر 599هـ/1202-1203م	مقرين بن محمد البغطوري النفوسي	سير مشايخ نفوسة/سيرة أهل نفوسة/كتاب سير نفوسة القديم؛ وعمل فقهي غير مسمّى.	الأسماء المتعددة أقرب إلى نسخ عنوانية لعمل واحد؛ فرغ منه في ربيع الآخر 599هـ. ا صريح	262-259
6هـ/12م	أبو يحيى توفيق بن يحيى الجناوني	شرح مسائل الطهارات وغيرها؛ التقييدات.	من جبل نفوسة وأستاذ لمقرين؛ «التقييدات» ذات قيمة في التأريخ الطبقي. ا محلي صريح	372-370
1/7هـ/13م	أبو نصر فتح بن نوح الملوشائي النفوسي	ديوان الإمام أبي نصر؛ الحائية/تحريض الطلبة؛ المنظومة النونية في التوحيد؛ الرائية في الصلاة؛ رسالة المسترشد؛ كتاب النيل وشفاء العليل؛ نونية الرد على نفي خلق القرآن؛ قصائد أخلاقية.	ولد بتملوشايت؛ أحدثت منظوماته تقليداً واسعاً من الشروح والحواشي. ا صريح	671-660
ت 730 أو 750هـ/1329 أو 1349م	أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي	أجوبة الأئمة؛ عقيدة التوحيد؛ الفرائض؛ الحج والمناسك؛ مقاييس الجروح؛ المرصاد؛ قناطر الخيرات؛ قواعد الإسلام؛ شرح النونية؛ شرح الأصول الدينية؛ رسائل وقصائد.	من إيجيطال، درّس بمزغورة وعاش بفرسطاء ثم جربة؛ الخلاف في سنة وفاته مثبت في الكتاب. ا صريح	397-373

التاريخ	المؤلف	المؤلفات/الأثر	ملاحظة ودرجة النسبة	ص
ت 746هـ/1345-1346م	أبو العزيز بن إبراهيم الباروني «أبو غالي»	كتاب اللفظ؛ كتاب اللقط/لقط أبي عزيز.	من الأسرة البارونية بالجبل؛ اللقط مجموعة مسائل وفتاوى ونوازل، وله ترتيبان لاحقان. ا محلي صريح	196-194
8هـ/14م	أبو عبد الله محمد بن الشيخ الباروني	ترتيب كتاب لقط أبي عزيز.	تلميذ أبي العزيز وابن أخيه؛ توفي على الأرجح أواخر القرن الثامن الهجري. ا محلي صريح	196-194
8هـ/14م	أبو يحيى زكرياء بن عيسى الأبدلاني النفوسي	كتاب المناسك؛ ويَرِد أيضاً كتاب في الفصول.	من أبدلان في جبل نفوسة؛ احتمال اتحاد الاسمين/العنوانين قائم. ا صريح/العنوان ملتبس	14-13
ت 792هـ/1390م	أبو ساكن عامر بن علي الشماخي	كتاب الإيضاح في الأحكام؛ أصول الديانات/العقيدة؛ كتاب الجنائز؛ كتب البيوع والوصايا والشفعة والهبة ضمن الإيضاح.	مدرس في يفرن؛ الإيضاح مشروع فقهي موسوعي في أربعة أجزاء بحسب الطبعة الحديثة. ا محلي صريح	239، 243، 733
أواخر 8هـ أو أوائل 9هـ/14-15م	أبو حفص عمرو بن جميع	مقدمة التوحيد/عقيدة التوحيد/عقيدة العزابة.	يرجح الكتاب أصله من جبل نفوسة؛ نقل العقيدة من الأمازيغية إلى العربية، وتكاثرت شروحها. ا الانتساب مرجّح	57-51
ت 894هـ/1488م	أبو زكرياء يحيى بن عامر بن إبراهيم النفوسي	قصيدة في الزكاة.	من جبل نفوسة؛ عنوان واحد صريح في الفهرس. ا صريح	62
ت 928هـ/1522م	أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي اليفرني	كتاب السير؛ شرح/حاشية مقدمة التوحيد؛ مختصر العدل والإنصاف وشرحه؛ أجوبة فقهية؛ حل الرموز ومفاتيح الكنوز؛ إعراب القرآن.	توفي في قرية من يفرن؛ يجمع إنتاجه بين السيرة والأصول والفقه واللغة. ا محلي صريح	479-471
حيّ 916هـ/1510م	أبو يوسف يعقوب بن صالح التندميرتي النفوسي	أجوبة فقهية لسلامة النفوسي؛ جواب في اختلاف الناس في القرآن؛ رسائل وأسئلة عقدية وفقهية.	من شبكة تندميرة-جربة؛ لا يحمل معظم النصوص عناوين تأليفية مستقرة. ا صريح	306-305

التاريخ	المؤلف	المؤلفات/الأثر	ملاحظة ودرجة النسبة	ص
قبل 10هـ/16م	سلامة الجناوني النفوسي	مسائل في أحكام الفقه؛ تقييد مسائل؛ سؤال وجواب مع يعقوب التندميرتي.	من إجناون؛ المادة تبدو تجميعاً للفتاوى والأسئلة أكثر من كتاب محرر العنوان. ا صريح	716-717
بعد 10هـ/16م	موسى بن عامر بن يحيى بن زكرياء النفوسي	شرح أرجوزة أبي يحيى زكرياء بن أفلح في القواعد اللغوية؛ كتاب مهم في العقائد وأعمال أخرى غير مسماة.	ينبّه الكتاب إلى احتمال التباسه بموسى بن عامر الشماخي صاحب اللقط. ا صريح/هوية ملتبسة	718-719
ت 997هـ/1589م	أبو عبد الله محمد بن زكرياء الباروني القلعاوي	نسبة دين المسلمين؛ طبقات علماء الإباضية؛ تاريخ استيلاء النصارى على وهران وجربة؛ جواب عقدي؛ رسالة لأهل عمان؛ مسائل ملتقطات؛ قصائد ومراثٍ.	نشأ بيفرن؛ من أهم الجسور بين التأليف التاريخي والفقهي في القرن العاشر الهجري. ا محلي صريح	200-203
قبل 1034هـ/1624م	سليمان بن أبي القاسم الجادوي النفوسي	سيرة من أهل المغرب صادرة عن الشيخ القاضي سليمان؛ رسالة إلى أهل عمان.	يستدل الكتاب على تاريخها من عدم ذكر إمامة ناصر بن مرشد؛ العنوان أقرب إلى رسالة/سيرة عقدية. ا صريح	342-343
1/11هـ/17م	أبو عثمان سعيد اللالوتي النفوسي	أرجوزة في حساب الشهور وأيام السنة العربية والأعجمية.	من لالوت، عالم بالنجوم؛ يشير المصدر إلى كتابات أخرى بخطه دون عناوين. ا صريح	504
1210هـ/1795-1796م	أبو موسى عيسى بن أبي القاسم الباروني	الرسالة الغدامسية؛ مجموعة أجوبة مشتركة.	جواب على رسالة من غدامس، ومحفوظ في الخزانة البارونية. ا محلي صريح	204-206
1290هـ/1873-1874م	عبد الله بن يحيى الباروني النفوسي	سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين؛ ديوان؛ جواب سؤال الغرياني؛ مسائل في العقيدة والفقه.	من أعلام جادو/يفرن، وتولى مشيخة العزابة؛ نسبة «الأزهار الرياضية» إليه موضع تصحيح في الكتاب. ا صريح	218-223
نشر 1885م	إبراهيم بن سليمان الشماخي النفوسي	جبل نفوسة: ئغاسرا د ئبريدن د ئدرار ن ئنفوسن، بالأمازيغية.	طالب من يفرن؛ نص جغرافي/لغوي نشره موتيلنسكي، وهو أيضاً ناسخ مهم. ا صريح	471

التاريخ	المؤلف	المؤلفات/الأثر	ملاحظة ودرجة النسبة	ص
أواخر 13هـ-أوائل 14هـ / 19-20م	سعيد بن أحمد بن يحيى الباروني النفوسي الجادوي	قصائد ضمن ديوان سليمان الباروني؛ صلته بكتاب الطهارات من ديوان المشايخ غير محسومة (ناسخ؟).	قاضٍ في جادو ويفرن؛ يلزم عدم تحويلٍ إشارة «الناسخ؟» إلى نسبة تأليف. ا صريح/الدور ملتبس	207، 772
ت 1321هـ/1903م	أبو عثمان عمرو بن عيسى التندميرتي النفوسي	ديوان؛ كتاب ومنظومة في التجويد؛ كتاب الخلافات بين المذاهب؛ متون واعتقادات؛ القلائد الدرية؛ صفوة هاشم؛ تربيع منظومة أبي مهدي.	ولد بتندميرة ودرس بيفرن؛ يمثل انتقال المعرفة النفوسية إلى الطباعة بالقاهرة. ا صريح	303-305
1870-1940م	سليمان بن عبد الله الباروني	الأسد الإسلامي؛ الأزهار الرياضية؛ ديوان الباروني؛ حقيقة الحرب الطرابلسية؛ جريدة الباروني؛ خواطر الباروني؛ مختصر تاريخ العائلة البارونية؛ شكوى وبيان حال؛ مشروع تاريخ الحرب.	ولد بجادو/فساطو؛ عالم وسياسي وناشر. وحلقة مركزية في تحويل التراث من المخطوط إلى المطبعة. ا محلي صريح	207-217

المصدر: كاسترس، بيبليوغرافيا الإباضية - قسم المغرب، المداخل والصفحات المثبتة في العمود الأخير.

الملحق 2: الأعمال الجماعية أو المجهولة

التاريخ	العنوان	الوصف	حالة النسبة	ص
461هـ/1068-1069م وما بعده	ديوان العزابة/ ديوان الأشياخ	عمل جماعي في فروع الفقه، نُسب جمعه إلى سبعة شيوخ، منهم أبو زكرياء يحيى بن جرناز النفوسي؛ توسع عبر طبقات ونسخ.	جماعي؛ يصعب فصل حصص المؤلفين	542-549
6هـ/12م	تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم	قائمة سيرية/جغرافية مرتبة بحسب قرى الجبل، تتضمن شيوخاً ورجالاً ونساءً، ومادة عن أولياء الجبل.	مجهول؛ من أهم خرائط الجغرافيا العلمية	585-589
6هـ/12م؟	سيرة مشايخ أهل المغرب من أهل نفوسة	رسالة قصيرة في التوحيد مترجمة من الأمازيغية إلى العربية، ذات مقصد تعليمي.	مجهول؛ يحال أيضاً إلى سليمان الجادوي	578

التاريخ	العنوان	الوصف	حالة النسبة	ص
8-9هـ/14-15م؟	تسمية مشاهد الجبل/ مشاهد جبل نفوسة	قائمة مواضع ومشاهد؛ حفظت في ملحق سير الشماخي عبر نسخة منقولة عن محمد بن زكرياء الباروني.	مجهول؛ تاريخ التركيب أقدم من النسخة المتأخرة	584-585
غير مؤرخ	كتاب نوازل نفوسة/مسائل ملتقطات من نوازل نفوسة	قضايا فقهية واقعية؛ تنسب تارة لأبي العزيز وتارة لمحمد بن الحاج يوسف، وترد أيضاً بلا مؤلف.	نسبة متنازعة	570-571، 710
غير مؤرخ؛ طبع 1315هـ/1897م	ديوان مشايخ جبل نفوسة	يتضمن كتاب الطهارات ضمن تقليد الديوان، وطبع ملحقاً بترتيب مسند الربيع.	مجهول/جماعي	549، 772
غير مؤرخ	رسالة إلى جبل نفوسة	رسالة في 48 صفحة محفوظة ضمن مجموعة مخطوطية تضم أعمالاً فقهية وعقدية.	مجهول؛ المرسل والظرف غير محددين	575، 587، 618

الملحق 3: الكتب التي نسخها نفوسيون

لا يعني ورود الكتاب هنا أن مؤلفه نفوسي؛ الجدول يوثق فعل النسخ بوصفه دليلاً على التداول والدرس.

تاريخ النسخ	الناسخ	الكتاب المنسوخ	الملاحظة	ص
1002هـ/1594م	سليمان بن أبي القاسم بن سليمان النفوسي	تفسير كتاب الله العزيز لهود بن محكم الهواري	فرغ يوم 13 رمضان؛ نسخة ذات قيمة في تاريخ أقدم تفسير إباضي مطول. ا صريح	725
1042هـ/1633م	عمر بن يوسف النفوسي	ديوان المشايخ: كتاب الصلاة	نسخة ناقصة المقدمة ضمن مجموعة مختلطة. ا صريح	538
1090هـ/1679م	أحمد بن عيسى الجادوي النفوسي	قناطر الخيرات، القناطر 1-6	مخطوط كامل الجزء المحفوظ في مكتبة الشيخ. ا صريح	383
1137هـ/1724م	؟ بن سعيد اللالوتي	حاشية على جمع الجوامع	الاسم الأول غير مقروء في الوصف؛ لا يجوز استكماله تخميناً. ا محلي/اسم ناقص	352
1145هـ/1733م	جمعة بن موسى اللالوتي النفوسي	حاشية الترتيب، الجزء الأول	نسخة ناقصة من البداية؛ محفوظة في آل أفضل. ا صريح	490

تاريخ النسخ	الناسخ	الكتاب المنسوخ	الملاحظة	ص
1178هـ/1764م	عيسى بن أبي القاسم الباروني	شرح النونية للويراني؛ حاشية المصعبي على أصول تبغورين؛ حاشية على شرح الويراني للنونية	ثلاثة نصوص ضمن مجموعة واحدة. أوائل ربيع الآخر. ا محلي صريح	636، 789
أواخر 12هـ/18م	عيسى بن موسى الباروني	رسالة في بيان فرق الإباضية الست وغيرها	التاريخ تقريبي في وصف المخطوط. ا محلي/تاريخ تقريبي	461
1184هـ/1770م	عبد الله بن سليمان بن يحيى بن عيسى النفوسي	كتاب السؤالات	نسخه لنفسه في 7 شوال؛ النص متعدد الأيدي والزيادات. ا صريح	462
1185هـ/1771م	موسى بن سعيد اللالوتي	كتاب في شرح قواعد الإسلام	نسخة كاملة؛ وفي المجموعة حاشية القصبي على الشرح. ا محلي صريح	391
1207هـ/1792م	قاسم بن صالح بن عمر الكباوي	كتاب الوضع مع شرح المحشي	نسخ بتونس في ربيع الأول؛ النسبة الكباوية تربطه بكباو. ا محلي	368
1213هـ/1798-1799م	سعيد بن عيسى الباروني	حاشية على كتاب الديانات لعامر الشماخي	مخطوط في الخزانة البارونية. ا محلي صريح	634
1259هـ/1843م	سعيد بن عبد الله الباروني	كتاب الجهالات/شرح الجهالات وحواشيه	العنوان يرد ضمن تقليد مركب من المتن والشرح والحواشي. ا محلي/العنوان مركب	657، 789
1271هـ/1854م	سعيد بن أيوب التندميرتي	مختصر طبقات المشايخ	وثيقة قصيرة في سلسلة نسبة الدين وطبقات العلماء. ا محلي صريح	748
1271هـ/1855م	قاسم بن صالح الكباوي	شرح السؤالات	نسخه بالقاهرة في 19 ربيع الآخر. ا محلي	462
1273هـ/1856م	عبد الله بن يحيى الباروني	كتاب الرد على جميع المخالفين	نسخة بخطه محفوظة ضمن مجموعة في كباو. ا محلي صريح	789
1276هـ/1859م	محمد بن يوسف الباروني	كتاب الألواح	صحح الكتاب تاريخ النسخ إلى أكتوبر 1859 بدل ديسمبر 1850. ا محلي صريح	694

تاريخ النسخ	الناسخ	الكتاب المنسوخ	الملاحظة	ص
1276هـ/1860م	محمد بن علي الباروني	متن مختصر العدل وشرح مختصر العدل	نسخه في وكالة الجاموس بالقاهرة، أواخر شعبان. ا محلي صريح	476، 487
1278هـ/1862م	إبراهيم بن محمد الباروني	مقدمة التوحيد لعمرو بن جميع	نسخها في المدرسة الشماعية بتونس، 8 رمضان. ا محلي صريح	54
1297هـ/1879م	محمد بن عيسى بن سعيد بن عبد الرحمن الموساوي النفوسي	كتاب الفرائض للجيطالي	نسخة 22 رمضان، تلتها حاشية أبي ستة. ا صريح	376
1302هـ/1884م	إبراهيم بن سليمان الشماخي	شرح/تعليق كتاب الجهالات	وصف كراكو يجعل العنوان المركب موضع احتياط. ا محلي/ العنوان ملتبس	753
1302هـ/1885م	إبراهيم بن سليمان الشماخي النفوسي	كتاب السيرة وأخبار الأئمة	جزآن في مجلد واحد، 15 جمادى الأولى. ا صريح	732-733
1305هـ/1887-1888م	عبد الله بن ساس الباروني	كتاب أبي مسألة/ المختصر الفقهي	نسخة دار الكتب بالقاهرة. ا محلي صريح	693
1321هـ/1903م	علي بن رمضان بن سليمان: المزابي نسباً، النفوسي وطناً، الفرسطائي بلداً	القسمة وأصول الأرضين	مثال حاسم على الفرق بين النسب والوطن؛ فرغ 15 جمادى الأولى. ا نفوسي وطناً لا نسباً	700
1329هـ/1911م	عمر بن عيسى بن صالح التندميرتي	تبيين أفعال العباد، ثلاثة أجزاء	نسخ بين شعبان وشوال؛ موضوعه الرئيس الأخلاق. ا محلي صريح	705
1345هـ/1926م	ناسخ مجهول من جبل نفوسة	كتاب السيرة وأخبار الأئمة	نسخه لسموغورزسكي عن نسخة إبراهيم الشماخي المؤرخة 1302هـ. ا الموطن صريح/الاسم مجهول	733
غير مؤرخ	عمر بن يوسف النفوسي	كتاب الأحكام؛ باب فضل العلم والعلماء؛ مسألة كيفية الغسل	ثلاث وحدات أخرى في المجموعة نفسها؛ غياب التاريخ يمنع ترتيبها داخل القرن. ا صريح/غير مؤرخ	526، 529، 567
غير مؤرخ	عبد الله بن عيسى النفوسي	كتاب الرد على جميع المخالفين	مخطوط قديم ضمن مجموعة أسرة بغطور؛ لا تاريخ فراغ. ا صريح/غير مؤرخ	789

الأثر بوصفه وثيقة صامتة

أهمية اللقى الأثرية في سدّ فجوات التاريخ المكتوب لجبل نفوسة[8] وضرورة حمايتها وتوثيقها

الملخص

يمثل جبل نفوسة أحد المجالات التاريخية المهمة في شمال غربي ليبيا، غير أن إعادة بناء تاريخه لا تزال تواجه فجوات زمنية وموضوعية واسعة لا تستطيع المصادر المكتوبة أو الرواية الشفوية وحدهما سدّها. فالنصوص التاريخية التي تناولت الجبل غير متواصلة زمنياً، كما أنها انتقائية بطبيعتها، إذ اهتمت غالباً بالعلماء والأحداث السياسية والدينية والحروب ومسالك الجماعات، بينما سكتت عن جوانب واسعة من حياة السكان، مثل أنماط الاستيطان، والتحولات الديموغرافية، والاقتصاد الزراعي والرعوي، وأساليب البناء، والعادات الجنائزية، والتفاعل مع المجال، والعلاقات التجارية، والتحولات الدينية والثقافية التي سبقت ظهور المصادر المحلية المكتوبة. وفي مقابل هذا الصمت، تكشف الأبحاث الأثرية المنجزة في جبل نفوسة عن سجل مادي يمتد من عصور ما قبل التاريخ إلى الفترات الرومانية والمسيحية المتأخرة والإسلامية، بما يجعل الأثر مصدراً مستقلاً لاختبار الرواية التاريخية واستكمالها وأحياناً إعادة النظر فيها.

تناقش هذه الدراسة أهمية اللقى الأثرية في سدّ هذه الفجوات، مع التركيز على الإشكاليات التي تواجه التراث الأثري في جبل نفوسة، ومنها العثور العرضي على اللقى دون دراسة علمية لاحقة معلنة، وعدم الإبلاغ عن بعض الاكتشافات بسبب ضعف

8 - للبحث في البحوث الأثرية وغيرها عن جبل نفوسة يجب استعمال المصطلحات التاريخية وطرق هامش منهجي: ينبغي عند البحث في تاريخ جبل نفوسة وآثاره ألّا يُكتفى بالمصطلح العربي الحديث، بل يجب استعمال مختلف التسميات التاريخية والصيغ الإملائية التي وردت بها المنطقة في المصادر والفهارس وقواعد البيانات العربية والأجنبية، ومنها: جبل نفوسة، نفوسة، Jabal Nafusa، Jebel Nafusa، Gebel Nefusa، Djebel Nefousa، Jebel Gharbi، Gebel Garian وغيرها من الصيغ القريبة. وقد أظهر توسيع البحث بهذه المسميات أن المادة الأثرية والتاريخية المتعلقة بالجبل أوسع بكثير مما تكشفه نتائج البحث باللغة العربية وحدها. كما ينبغي عدم فصل مصطلح Jebel Gharbi الوارد في الدراسات الأثرية الحديثة عن المجال النفوسي؛ إذ يحمل أحد أحدث الكتب التجميعية في الموضوع عنوان: The Archaeology of Jebel Gharbi-Nefusa. ويجب كذلك إجراء البحث بأسماء مدن الجبل وقراه ومواقعه كلٌّ على حدة، مع تجربة أشكال كتابتها القديمة والحديثة ومختلف طرق نقلها إلى اللغات الأجنبية؛ مثل: يفرن، غريان، كاباو، نالوت، جادو، الرحيبات، ككلة، القلعة، فساطو، الحرابة، تيجي، درج، وازن، تمنهنت، شروس، لالوت وغيرها؛ لأن عددًا من الدراسات واللقى الأثرية يُفهرس باسم الموقع أو القرية وحدهما، من غير ذكر جبل نفوسة في العنوان أو الكلمات المفتاحية.

الوعي بقيمتها العلمية أو الاعتقاد بارتباط الآثار بالكنوز، فضلاً عن الحفر غير المشروع والعبث بالمواقع والاتجار غير القانوني بالقطع، وهي مخاطر تتضاعف في حالات ضعف المؤسسات وغياب الحماية الميدانية المستمرة. وتقترح الدراسة إنشاء سجل أثري رقمي شامل لجبل نفوسة، وآلية محلية سريعة للإبلاغ والتوثيق، وإشراك السكان في حماية التراث، وتوجيه البحث الأثري نحو الأسئلة التاريخية التي عجزت المصادر النصية عن الإجابة عنها.

الكلمات المفتاحية: جبل نفوسة؛ الآثار؛ اللقى الأثرية؛ التاريخ المحلي؛ المصادر التاريخية؛ الذاكرة الشفوية؛ الاستيطان؛ التراث الثقافي؛ التنقيب غير المشروع؛ حماية الآثار.

مقدمة

لا يُكتب تاريخ المجتمعات من الوثائق المكتوبة وحدها. فكل مصدر تاريخي، مهما بلغت قيمته، لا يقدم إلا جزءاً مما حدث في الماضي. والمؤرخ القديم أو صاحب السيرة أو الفقيه أو الرحالة لا يكتب عادة بقصد أن يترك للأجيال اللاحقة وصفاً شاملاً للمجتمع الذي عاش فيه؛ وإنما ينتقي من الوقائع ما يتفق مع غرض مؤلفه. ولهذا يمكن أن تحفظ المصادر أسماء العلماء والحكام والمعارك والأزمات، بينما تصمت تماماً عن موقع قرية ما، أو تاريخ بنائها، أو نمط مساكن سكانها، أو محاصيلهم، أو غذائهم، أو مدافنهم، أو الطرق التي كانوا يستخدمونها، أو طبيعة علاقاتهم الاقتصادية بالمناطق المجاورة.

وتتضح هذه المشكلة بصورة خاصة في **جبل نفوسة**. فعلى الرغم من أهميته التاريخية ووروده في المصادر العربية والإباضية والجغرافية منذ القرون الوسطى، فإن تاريخ الجبل قبل تلك المصادر، وحتى كثيراً من تفاصيل تاريخه اللاحق، لا يزال مليئاً بالمناطق المعتمة. وبين مرحلة النشاط البشري الذي تثبته الأدوات الحجرية، والاستيطان الروماني الذي تدل عليه المباني والنقوش والمقابر، والمرحلة المسيحية المتأخرة، ثم ظهور المجتمع الإسلامي والإباضي الذي أصبح أكثر وضوحاً في المصادر النصية، تمتد قرون طويلة لا يمكن إعادة بنائها اعتماداً على النصوص وحدها.

وهنا تظهر قيمة علم الآثار. فقد أثبتت المسوح والتنقيبات المنجزة في جبل نفوسة وجود تسلسل طويل للنشاط البشري، وتوصلت البعثات إلى مواقع من العصر الحجري الأوسط والمتأخر والهولوسين، ودرست الصناعات الحجرية والبيئة القديمة وأنماط

الاستيطان. وقد أسهمت المسوح المكثفة في جبل نفوسة في بناء تسلسل مؤرخ للبيئة والنشاط البشري لم يكن ممكناً استخلاصه من أي مصدر مكتوب.

ومن ثم فإن السؤال الذي ينبغي طرحه ليس: ماذا قالت المصادر عن جبل نفوسة؟ فقط، وإنما أيضاً: ماذا لم تقل؟ وما الذي يمكن للمادة الأثرية أن تكشفه في المواضع التي يصمت فيها النص؟

1. حدود المصادر المكتوبة في إعادة بناء تاريخ جبل نفوسة

للمصادر المكتوبة قيمة لا يمكن الاستغناء عنها، ولكن استعمالها يحتاج إلى إدراك حدودها. فكتب السير الإباضية، على سبيل المثال، غنية بأسماء الأشخاص والأماكن والوقائع الدينية والاجتماعية، إلا أنها لم تؤلف باعتبارها مسوحاً سكانية أو اقتصادية أو أثرية. ولهذا فإن كثيراً من المعلومات المتعلقة بالحياة اليومية تظهر فيها عرضاً، بينما تغيب موضوعات أخرى غياباً شبه كامل.

والأمر نفسه ينطبق على المصادر الجغرافية والرحلات، إذ قد يصف المؤلف مدينة أو طريقاً أو قبيلة، لكنه لا يقدم عادة صورة دقيقة عن جميع التجمعات السكانية ولا عن تاريخ نشأتها وتطورها.

كما أن هناك مشكلة أكبر تتعلق بالفترات التي تسبق ظهور المصادر المكتوبة المحلية. فمن الصعب، اعتماداً على النصوص وحدها، الإجابة عن أسئلة من قبيل: من كان يسكن بعض مناطق الجبل في الألفية الأولى قبل الميلاد؟ كيف كان توزيع السكان؟ ما العلاقة بين سكان السفوح والجفارة؟ أين كانت التجمعات الزراعية؟ متى اتسعت زراعة الزيتون؟ ما أشكال التأثير البونيقي والروماني؟ وكيف حدث الانتقال من العصور القديمة المتأخرة إلى المجتمع الوسيط؟

الأركيولوجيا وحدها تستطيع أن تقدم مادة مستقلة للإجابة عن جانب كبير من هذه الأسئلة.

2. الرواية الشفوية: مصدر مهم ولكنه محدود زمنياً

تمثل الذاكرة الشفوية في جبل نفوسة مصدراً مهماً جداً لدراسة التاريخ الاجتماعي القريب. فتحفظ أسماء الأماكن، وأسماء الأسر، وملكية الأراضي، والحروب المحلية، والمجاعات، والأوبئة، ومسالك الرعاة، والعيون والآبار، والقصور القديمة، وقصص تأسيس القرى وغيرها.

غير أن الرواية الشفوية تعاني هي الأخرى من حدود طبيعية. فمع انتقال الخبر عبر الأجيال يحدث الاختصار والإضافة وإعادة التفسير. وقد تتحول بعض الوقائع إلى حكايات تفسيرية. وكلما عدنا إلى الوراء زمنياً ازدادت صعوبة الفصل بين الذاكرة التاريخية والتفسير الشعبي.

ولهذا فإن الأثر يقدم إمكانية فريدة لمقارنة الذاكرة بالمادة.

فإذا قالت الرواية إن قرية معينة قديمة، تستطيع المسوحات الأثرية دراسة الفخار والبناء والمقابر لتحديد مراحل الاستيطان. وإذا نسبت الذاكرة بناءً إلى فترة معينة، يمكن تحليل تقنيته المعمارية والمواد المستعملة فيه والسياق الأثري المحيط به.

وبهذا لا تلغي الأركيولوجيا الرواية الشفوية، كما لا تلغي الرواية الأثر؛ بل يتكامل المصدران.

3. ما قبل التاريخ: حين يكون الأثر هو المصدر التاريخي الوحيد

تظهر أهمية الأركيولوجيا بصورة قصوى عندما نصل إلى عصور ما قبل الكتابة. ففي هذه المراحل لا توجد وثيقة مكتوبة يمكن الرجوع إليها أصلاً.

وقد أسهم المشروع الأثري الليبي-الإيطالي في جبل نفوسة في تغيير معرفتنا بهذا الجزء من تاريخ المنطقة. وأظهرت المسوحات المكثفة والمقاطع الجيولوجية والمجموعات الحجرية وجود نشاط بشري يمتد عبر مراحل مختلفة من العصر الحجري الأوسط والمتأخر وصولاً إلى الهولوسين.

ومن المواقع التي حظيت بالدراسة منطقة شكشوك[9]، حيث قدمت الأبحاث بيانات جديدة عن أواخر البليستوسين ومجموعات الصناعات الحجرية، وأصبحت المنطقة جزءاً من محاولة أوسع لفهم حركة الجماعات البشرية واستغلالها لموارد الجبل.

ولا تكمن قيمة القطعة الحجرية هنا في شكلها فقط. فوجودها في طبقة معلومة، بجوار بقايا حيوانية أو رواسب بيئية قابلة للتأريخ، يمكن أن يساعد على تحديد زمن النشاط البشري وطبيعة البيئة وطريقة الحصول على المواد الخام وحركة الجماعات.

ومن هنا يتضح المبدأ الأساسي في علم الآثار:

القيمة العلمية الكبرى ليست دائماً في القطعة نفسها، وإنما في سياقها.

9 - البحث منشور في العدد الأول من دورية أمزروي نّغ ص 38 تحت عنوان: أحدث الأبحاث في جبل نفوسة (شمال ليبيا).

فالقطعة التي تُنتزع من الأرض دون تسجيل مكانها وعمقها وعلاقتها بما حولها تفقد جزءاً كبيراً من المعلومات التي كانت تحملها.

4. الأثر وسدّ الفجوة بين ما قبل التاريخ والعصور التاريخية

من أهم مشكلات تاريخ جبل نفوسة وجود تفاوت كبير في وضوح المراحل التاريخية. فهناك اليوم معرفة متنامية بعصور ما قبل التاريخ من جهة، ولدينا من جهة أخرى مادة رومانية وإسلامية واضحة، لكن الفترات الانتقالية لا تزال أضعف معرفة.

وهذا يطرح أسئلة جوهرية عن سكان الجبل في الألفية الأولى قبل الميلاد، وصلاتهم بالعالم البونيقي، وتحولات الاستيطان المحلي قبل السيطرة الرومانية وخلالها.

وقد أثبتت الدراسات أن البحث في جبل نفوسة لا يزال قادراً على تعديل التصورات القائمة؛ فحتى الأدبيات الحديثة عن طرابلس الرومانية عادت إلى دراسة منطقة جبل نفوسة تحديداً، وهو ما يدل على أن المادة القديمة لم تُستنفد بعد، وأن إعادة قراءة المواقع واللقى القديمة في ضوء مناهج أحدث يمكن أن تنتج معرفة جديدة.

إن العثور، على سبيل المثال، على تجمع فخاري من فترة معينة أو مقبرة أو منشأة زراعية أو نقش لا يضيف «قطعة أثرية» إلى قائمة المقتنيات فحسب؛ بل قد يضيف مرحلة كاملة إلى تاريخ موضع لم يكن معروفاً أنه مأهول في تلك الفترة.

5. اللقى الرومانية وإعادة بناء الاقتصاد والاستيطان

تسمح الآثار الرومانية بطرح أسئلة تتجاوز مجرد إثبات وجود الرومان أو التأثير الروماني في المنطقة. فالمزارع والمباني الريفية والمعاصر والصهاريج والطرق والمقابر والنقوش يمكن أن تساعد على إعادة بناء:

توزيع السكان؛

حدود النشاط الزراعي؛

مناطق زراعة الزيتون والحبوب؛

مسالك انتقال السلع؛

علاقة الجبل بالسهل الساحلي؛

حجم الاستيطان الريفي؛

أنماط الملكية والاقتصاد:

درجة الاستمرارية بين السكان المحليين والعالم الروماني.

والأهم أن الآثار لا ينبغي أن تُقرأ وفق ثنائية مبسطة من نوع «روماني مقابل محلي». فالمجتمعات القديمة قد تتبنى تقنيات وأساليب بناء ولغة نقوش ومنتجات قادمة من المجال الروماني مع استمرار جزء كبير من السكان المحليين وثقافتهم.

ومن هنا تصبح دراسة المقابر والنقوش والأسماء الشخصية والفخار والعمارة الريفية وسيلة لفهم التفاعل الثقافي لا مجرد تحديد هوية سياسية للموقع.

6. الحلقة المسيحية التي تكاد تغيب عن الذاكرة المحلية

تمثل المسيحية القديمة والمتأخرة مثالاً ممتازاً على قدرة الأثر على كشف ما غاب عن الذاكرة.

فالمصادر والدراسات الأثرية تشير إلى وجود مرحلة مسيحية مهمة في شمال أفريقيا الداخلي، وقد ناقشت الدراسات الخاصة بجبل نفوسة العلاقة بين بعض المباني الإسلامية القديمة والعناصر المعمارية الأقدم الموجودة فيها، واحتمال ارتباط بعضها بمنشآت مسيحية سابقة. غير أن Virginie Prévost نبهت بصورة صحيحة إلى ضرورة التمييز بين تحويل كنيسة قائمة إلى مسجد وبين مجرد استعمال أحجار أو أعمدة مبنى أقدم في إنشاء مسجد جديد.

وهذه مسألة منهجية بالغة الأهمية.

فالحجر المعاد استعماله شاهد على وجود مادة معمارية سابقة، لكنه لا يكفي وحده لإثبات طبيعة المبنى الذي أُخذ منه.

ولهذا تحتاج هذه المرحلة في جبل نفوسة إلى برنامج مستقل يجمع:

المباني، والنقوش، والرموز المسيحية، والعناصر المعمارية المعاد استعمالها، والمقابر، والفخار، والمصادر المكتوبة المتأخرة.

ومن شأن هذا النوع من الدراسة أن يملأ واحدة من أكبر الفجوات بين تاريخ نفوسة القديم وتاريخها الإسلامي.

7. الآثار الإسلامية: اختبار النصوص بالمكان

على خلاف العصور السابقة، تتوفر للعصر الإسلامي في جبل نفوسة مصادر مكتوبة أكثر غنى. غير أن وجود النص لا يلغي الحاجة إلى الأثر.

فالمصادر قد تذكر مسجداً أو عالماً أو قرية، بينما يسمح المبنى نفسه بدراسة:

مراحل البناء، واتجاه القبلة، وتطور المحراب، ومواد الإنشاء، وإعادة استعمال الأحجار القديمة، والإضافات اللاحقة، ووظائف الحجرات، وعلاقة المسجد بالنسيج العمراني.

وهنا تستطيع الأركيولوجيا أيضاً اختبار الاستمرارية بين أسماء المواقع في كتب السير والمواقع الحالية.

ولهذا كانت دراسة مساجد جبل نفوسة من أكثر مجالات الآثار الإسلامية إنتاجاً، وسمحت المقارنة بين النصوص الإباضية والبقايا المعمارية بإعادة قراءة عدد من المواقع الدينية القديمة.

8. القطعة الأثرية ليست كنزاً

من أخطر المشكلات التي تواجه الآثار الشعبية تصور أن قيمة القطعة القديمة مرتبطة بما يمكن أن تحققه من ثمن أو بما قد تدل عليه من وجود ذهب أو كنز مدفون.

وهذه النظرة تقلب مفهوم القيمة الأثرية رأساً على عقب.

فقد تكون قطعة فخار مكسورة لا قيمة تجارية لها أكثر أهمية علمياً من قطعة ذهبية منفردة؛ لأن الفخار قد يحدد تاريخ طبقة كاملة أو مساراً تجارياً أو وجود مجتمع معين.

وقد تكون مجموعة عظام حيوانية أكثر إفادة لفهم اقتصاد السكان من قطعة فنية جميلة.

وقد يكشف موضع فرن أو رماد أو بذور متفحمة عن النشاط الاقتصادي والغذاء والزراعة.

والأكثر أهمية أن موضع القطعة جزء من القطعة.

عند اقتلاع جسم أثري من موقعه تختفي العلاقات التي تربطه بالتربة والبناء

والقطع الأخرى. وقد يصبح من المستحيل بعد ذلك تحديد إن كان داخل قبر أو منزل أو مخزن أو طبقة هدم أو ردم لاحق.

ولهذا فإن الحفر بحثاً عن «الكنوز» لا يعني فقط احتمال فقدان الأشياء، بل يعني تدمير المعلومات التاريخية نفسها.

9. إشكالية اللقى العرضية التي يعثر عليها السكان

يمثل العثور العرضي على الآثار أحد الملفات التي تستحق دراسة مستقلة في جبل نفوسة.

فالمنطقة ذات تاريخ استيطاني طويل، وتتعرض الأرض باستمرار لأعمال البناء وشق الطرق والزراعة وحفر الآبار وتسوية الأراضي والانجراف الطبيعي. ومن المتوقع في مثل هذه البيئات أن تظهر لقى أو مبانٍ أو قبور أو قطع أثرية بصورة عرضية.

وتشير الملاحظات المحلية إلى حالات يعثر فيها السكان على مواد يعتقد أنها أثرية ويتم إبلاغ جهات رسمية عنها، إلا أن المجتمع المحلي لا يرى دائماً بعد ذلك نتيجة علمية منشورة توضح ماهية المكتشف وتأريخه ومصيره.

وينبغي التعامل علمياً مع هذه الملاحظة بحذر: فهي تحتاج إلى إنشاء سجل موثق للحالات حتى يمكن معرفة عدد البلاغات، ونوع الاستجابة، وما إذا أجريت معاينات أو نُقلت القطع أو أعدت تقارير، وما نُشر منها وما لم يُنشر.

غير أن غياب المعلومة الراجعة إلى المواطن في حد ذاته مشكلة في إدارة التراث.

فإذا أبلغ شخص عن اكتشاف ثم لم يعرف شيئاً عن نتيجته، يصبح من الأصعب بناء علاقة ثقة طويلة الأمد بين المجتمع والمؤسسة الأثرية.

وبالعكس، حين يعرف المواطن أن القطعة التي أبلغ عنها أصبحت موضوع دراسة، وأن القرية أو الأسرة التي ساهمت في حمايتها ذُكرت بصورة إيجابية، يصبح الإبلاغ نفسه فعلاً من أفعال المشاركة في كتابة تاريخ المنطقة.

10. عدم الإبلاغ: بين الجهل بالقيمة والخوف والطمع

المشكلة المقابلة هي اللقى التي لا تصل أخبارها إلى الباحثين أصلاً.

ويمكن تصور عدة عوامل محتملة لذلك، ينبغي دراستها ميدانياً لا افتراض نسبتها:

أولها عدم معرفة الشخص بأن ما وجده يحمل قيمة أثرية.

وثانيها الاعتقاد بأن الجهات الرسمية ستصادر الأرض أو توقف البناء بمجرد الإبلاغ.

وثالثها عدم الثقة في أن البلاغ سيُتابع بطريقة واضحة.

ورابعها التصور الشعبي للآثار بوصفها دليلاً على «كنز»، بما قد يدفع بعض الأشخاص إلى الحفر بدلاً من الإبلاغ.

كما قد تكون هناك حالات يخشى فيها صاحب الأرض من المشكلات الإدارية المرتبطة باكتشاف موقع أثري.

لذلك فإن حماية التراث لا تتحقق بالقانون والعقوبات وحدهما، بل تحتاج إلى نظام يجعل الإبلاغ أكثر فائدة وأسهل وأوضح من إخفاء الاكتشاف.

11. الباحثون عن الكنوز: تدمير للسياق قبل أن يكون سرقة للقطعة

الحفر غير العلمي من أخطر أنواع الضرر؛ لأن الضرر قد يكون غير قابل للإصلاح حتى إذا بقيت القطع داخل البلاد.

فعندما يحفر الباحث عن الكنوز حفرة داخل مقبرة قديمة مثلاً، فإنه قد:

يخلط الطبقات؛
ويفصل اللقى عن مواضعها؛
ويكسر الفخار والعظام؛
ويدمر بقايا عضوية دقيقة؛
ويزيل العلاقات بين القبر والهيكل المعماري؛
ويتخلص من المواد التي لا يعتقد أن لها قيمة مالية.

وبذلك قد تبقى «قطعة جميلة» بينما يُمحى التاريخ الذي كان يمكن استخلاصه من الموقع.

وتؤكد اليونسكو أن نهب المواقع والاتجار غير المشروع بالممتلكات الثقافية لا يؤديان إلى فقدان الأشياء فحسب، بل يضران بالذاكرة والهوية وإمكان نقل المعرفة إلى الأجيال القادمة، وتتفاقم هذه المخاطر في البيئات المتأثرة بالنزاع وعدم الاستقرار.

12. آثار ضعف الدولة وعدم الاستقرار

لا يمكن فصل حماية آثار جبل نفوسة عن الظروف التي مرّت بها ليبيا منذ 2011.

فالمواقع الأثرية المنتشرة في مساحات كبيرة تحتاج إلى أجهزة قادرة على المراقبة

والمعاينة والتسجيل ومتابعة البلاغات، وليس فقط إلى متاحف ومكاتب مركزية.

وقد أصبح خطر الآثار الليبية موضوعاً لبرامج دولية متخصصة، ودعت اليونسكو والمؤسسات الليبية والشركاء الدوليين إلى تنسيق حماية المواقع والمتاحف والتراث العمراني، مع التأكيد على دور الشرطة والجمارك ومصلحة الآثار والمجتمع المدني.

أما في جبل نفوسة نفسه، فقد أُنجز Gebel Nafusa Survey خلال أبريل ومايو 2015، وتطور عنه عمل أكاديمي مخصص لاستراتيجيات إدارة التراث وحمايته خلال الأزمة الليبية.

وتكتسب هذه الدراسة أهمية خاصة لأنها لا تتناول المشكلة نظرياً من الخارج، بل تجعل جبل نفوسة نفسه حالة دراسية في حماية التراث أثناء النزاع.

ونُشر البحث بعنوان:

Marco Nebbia et al., "Developing a Collaborative Strategy to Manage and Preserve Cultural Heritage During the Libyan Conflict: The Case of the Gebel Nafusa"، في Journal of Archaeological Method and Theory، المجلد 23، الصفحات 971-988.

ومن هنا فإن القول إن ضعف المؤسسات يشكل خطراً على المواقع ليس مجرد تخوف نظري، بل قضية تناولتها بالفعل الأدبيات الأثرية الخاصة بالجبل.

13. الخسارة غير المرئية: ما لم نكتشفه بعد

ربما تكون أخطر الآثار هي تلك التي لا نعرف بوجودها أصلاً.

فالخريطة الأثرية الحالية لجبل نفوسة ليست خريطة لجميع المواقع الموجودة في الواقع، وإنما خريطة لما تم اكتشافه وتسجيله حتى الآن. والفرق بين الاثنين كبير.

يكفي أن تقارن كثافة المواقع المعروفة في المناطق التي شملتها بعثات منظمة بكثافتها في المناطق التي لم تُمسح بانتظام حتى تدرك أن غياب المواقع المسجلة لا يعني غياب الآثار.

وقد أظهرت تجربة المسح المكثف في جبل نفوسة كيف يمكن للعمل المنهجي أن يكشف تسلسلات ومواقع لم تكن معروفة بالاعتماد على المصادر التاريخية وحدها.

ومن ثم فإن أعمال البناء غير المراقبة، وشق الطرق، والمحاجر، والتوسع العمراني، والحفر العشوائي، قد لا تدمر مواقع معروفة فقط، بل مواقع لم تدخل المعرفة العلمية قط.

وهي خسارة يصعب حتى قياسها؛ لأننا نفقد المعلومة قبل أن نعرف أنها كانت موجودة.

14. من "حماية القطع" إلى حماية المشهد الأثري

يحتاج مفهوم حماية الآثار في جبل نفوسة إلى الانتقال من التفكير في القطع والمباني المشهورة إلى مفهوم المشهد الأثري Archaeological Landscape.

فالموقع ليس دائماً قصراً أو مسجداً أو ضريحاً واضحاً. قد يكون انتشاراً للفخار على سطح الأرض، أو بقايا حائط، أو مسار طريق قديم، أو منشأة لجمع المياه، أو مصطبة زراعية، أو محجراً، أو مجموعة قبور، أو تجمعاً للأدوات الحجرية.

وعندما تُربط هذه المواقع بعضها ببعض تبدأ صورة المجتمع القديم بالظهور.

فالمزرعة دون طريق لا تعطي الصورة كاملة، والطريق دون القرية ناقص، والقرية دون المقبرة والماء والأرض الزراعية لا تكشف نظام الاستيطان.

لهذا تتجه المناهج الحديثة إلى توثيق المواقع ضمن منظومة جغرافية واسعة باستخدام نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد والصور الجوية. وقد استُخدمت هذه المقاربات بالفعل في برامج حماية التراث الليبي وفي مشاريع توثيق الآثار المعرضة للخطر.

15. السكان ليسوا خطراً على الآثار بل خط الدفاع الأول عنها

من غير الصائب اختزال علاقة المجتمع المحلي بالآثار في مشكلة النهب أو عدم الوعي.

فالسكان هم أيضاً الأشخاص الموجودون بجوار المواقع طوال العام، وهم أول من يشاهد حفراً جديداً أو انهيار جدار أو ظهور قبر أو قطعة بعد المطر أو أعمال البناء.

ولهذا فإن المجتمع المحلي يمكن أن يصبح أكبر شبكة لحماية آثار جبل نفوسة إذا توفرت الثقة والمعرفة وآلية التواصل المناسبة.

وقد أكدت برامج حماية التراث الليبي نفسها أهمية مشاركة المجتمع المدني والشباب والمؤسسات المحلية في عمليات المحافظة على التراث.

ويمكن هنا تحويل العلاقة من:

«الدولة تحمي الآثار من السكان»

إلى:

«السكان والدولة والمؤسسات العلمية يحافظون معاً على ذاكرة المجتمع».

وهذا التحول المفاهيمي مهم جداً.

16. مقترح لإنشاء "السجل الأثري لجبل نفوسة"

تحتاج المنطقة، في تقديرنا، إلى مشروع دائم يمكن تسميته:

السجل الأثري لجبل نفوسة

Jabal Nafusa Archaeological Record - JNAR

على أن يُنشأ لكل موقع رقم دائم وملف يحتوي على:

الاسم المحلي للموقع؛

الأسماء البديلة والقديمة؛

البلدية أو القرية؛

الإحداثيات الدقيقة، مع حجبها عن العامة عندما يكون نشرها خطراً على الموقع؛

نوع الموقع؛

الفترة الزمنية المحتملة؛

وصف اللقى؛

الصور؛

تاريخ أول تسجيل؛

اسم الجهة أو المواطن الذي أبلغ عنه؛

حالة الحفظ؛

الأخطار التي تهدده؛

جميع المراجع المنشورة عنه؛

نتائج التحاليل إن وجدت؛

مكان حفظ اللقى المنقولة؛

سجل الزيارات والتدخلات اللاحقة.

وبهذا لن تضيع المعلومة حتى إن تعذر إجراء التنقيب مباشرة.

17. سجل خاص باللقى العرضية

يجب إلى جانب سجل المواقع إنشاء سجل للقى العرضية.

فلا ينبغي أن ينتهي البلاغ بمجرد زيارة الموقع أو نقل القطعة.

بل يجب أن يحصل كل بلاغ على رقم، ومن ثم يمكن متابعة مصيره:

بلاغ ← معاينة ← توثيق ← تقرير أولي ← تحليل ← نتيجة ← نشر.

ويجب قدر الإمكان أن تصل للمبلِّغ نتيجة مختصرة عمّا تم التوصل إليه.

هذه الآلية البسيطة ستعالج مشكلتين في آن واحد: فقدان المعلومات، وفقدان الثقة.

18. إشراك الجامعات والمراكز العلمية

لا تستطيع مصلحة الآثار وحدها القيام بكل هذا العمل، خصوصاً في منطقة واسعة جغرافياً وغنية بالمواقع.

لذلك ينبغي إنشاء شراكة بين:

مصلحة الآثار، والجامعات الليبية، والمراكز البحثية المحلية، والبلديات، والمؤسسات الثقافية، والباحثين في التاريخ والأنثروبولوجيا والجيولوجيا، والهيئات الدولية المتخصصة عند الحاجة.

كما ينبغي تدريب طلبة التاريخ والآثار والجيولوجيا على المسح الأولي والتسجيل والتصوير والخرائط، دون أن يعني ذلك السماح بالتنقيب غير المرخص.

ويمكن أن تتحول مشاريع التخرج والماجستير إلى وحدات صغيرة ضمن مشروع أطلس شامل للجبل.

19. ماذا يمكن للأركيولوجيا أن تضيف تحديداً إلى تاريخ سكان نفوسة؟

إذا نُفّذ برنامج أثري طويل الأمد، فإن أهم الأسئلة التي يمكن أن يساعد على الإجابة عنها هي:

أولاً: الاستيطان.
متى ظهرت القرى؟ وهل كانت القرى الحالية استمراراً لمستوطنات أقدم أم انتقلت مواقع السكان؟

ثانياً: السكان.
ما طبيعة الاستمرارية أو التحولات السكانية بين العصور القديمة والوسطى؟

ثالثاً: الاقتصاد.
متى توسعت زراعة الزيتون؟ وما أهمية الحبوب والرعي؟ وكيف تغيرت تقنيات تخزين المحاصيل؟

رابعاً: التجارة.
ما السلع التي وصلت إلى الجبل من الساحل وتونس وداخل الصحراء؟

خامساً: الدين.
ما حجم الحضور الديني في المرحلة الرومانية؟ وما الشواهد المسيحية؟ وما طبيعة الانتقال إلى الإسلام؟

سادساً: اللغة والهوية.
ماذا يمكن للنقوش والأسماء الشخصية والعلامات والكتابات أن تخبرنا عن اللغات المستعملة؟

سابعاً: الموت والمجتمع.
كيف تغيرت طرق الدفن؟ وهل تكشف المقابر عن اختلافات اجتماعية أو ثقافية؟

ثامناً: البيئة.
كيف أثرت فترات الجفاف وتغير موارد المياه في حركة السكان؟

هذه الأسئلة لا تستطيع الوثيقة المكتوبة وحدها الإجابة عنها.

20. التكامل مع الدراسات الجينية واللغوية والتاريخية

تتضاعف قيمة الأركيولوجيا عندما توضع نتائجها بجانب حقول أخرى.

فالدراسات الجينية للسكان تستطيع تقديم معلومات عن التاريخ الديموغرافي؛ واللسانيات التاريخية تستطيع دراسة طبقات المفردات والتحولات اللغوية؛ والمصادر المكتوبة تحدد الأشخاص والأحداث والمؤسسات؛ والأنثروبولوجيا تحفظ الممارسات والذاكرة؛ بينما تحدد الأركيولوجيا المكان والزمن والمادة.

ولا ينبغي لأي واحد من هذه الحقول أن يدعي أنه يقدم تاريخ السكان كاملاً بمفرده.

فإذا أشارت نتيجة جينية إلى تحولات سكانية، فإن الأركيولوجيا تستطيع البحث عن تغير مواز في الاستيطان أو الدفن أو الثقافة المادية.

وإذا اقترحت اللسانيات احتكاكاً قديماً بين مجموعات لغوية، يمكن للفخار أو السلع المستوردة أو النقوش أن توفر أدلة مستقلة عن شبكات الاتصال.

إن مستقبل كتابة تاريخ جبل نفوسة يكمن، لذلك، في التاريخ متعدد التخصصات.

خاتمة

لا تكمن المشكلة الأساسية في تاريخ جبل نفوسة في انعدام المصادر، بل في أن كل نوع من المصادر يضيء جزءاً ويترك أجزاء أخرى في الظلام.

تقدم المصادر المكتوبة تاريخاً غنياً ولكنه انتقائي. وتحفظ الرواية الشفوية جانباً مهماً من الذاكرة الاجتماعية، لكنها تصبح أكثر صعوبة كلما ابتعدنا زمنياً. أما المادة الأثرية فتحتفظ بطبقة أخرى من التاريخ لم يكتبها المؤرخون ولم تحفظها الذاكرة.

وقد أثبتت البحوث المنجزة بالفعل أن أرض جبل نفوسة تحفظ سجلاً بشرياً بالغ القدم والتنوع، من الصناعات الحجرية في عصور ما قبل التاريخ إلى الاستيطان القديم ثم المباني والنقوش والمعالم الدينية والقرى والعمارة الإسلامية.

غير أن ما نعرفه حتى الآن لا يمثل بالضرورة سوى جزء من الموجود.

فاللقى التي تظهر مصادفة ثم لا تدخل مساراً علمياً واضحاً تمثل معرفة معلقة؛ واللقى التي لا يُبلغ عنها تمثل معرفة مخفية؛ والمواقع التي تتعرض للحفر العشوائي تمثل معرفة مدمرة؛ أما المواقع التي لا تزال تحت الأرض ولم نكتشفها بعد فتمثل الأرشيف الأكبر المجهول لتاريخ الجبل.

ولهذا يجب ألا ينحصر هدف حماية الآثار في منع سرقة القطع النفيسة، بل في منع ضياع المعلومة التاريخية.

فالقطعة المسروقة قد تُسترد يوماً، لكن الطبقة الأثرية التي دُمرت لا يمكن إعادة بنائها. والنقش الذي نُقل دون تسجيل موضعه قد يبقى قابلاً للقراءة، ولكنه يفقد جزءاً من معناه. والقبر الذي فُتح بحثاً عن الذهب قد تُترك عظامه وفخاره جانباً، مع أنها كانت تحمل معلومات عن الإنسان الذي عاش في الجبل قبل قرون أو آلاف السنين.

إن حماية آثار جبل نفوسة هي، بهذا المعنى، حماية مصادر تاريخ لم يُكتب بعد.

ومن هنا تصبح الضرورة ملحّة لإطلاق مشروع متكامل للمسح والتسجيل والتوثيق، وإنشاء سجل رقمي للمواقع واللقى العرضية، وبناء جسور ثقة بين المواطن والمؤسسة الأثرية، وتطوير برامج توعية تبين أن قيمة الأثر ليست في سعره، وإشراك الجامعات والمراكز العلمية والمجتمع المحلي في الحفاظ عليه.

فكل حجر منقوش، وكل كسرة فخار، وكل مدفن، وكل جدار قديم، وكل أداة حجرية عُثر عليها في موضعها الصحيح ليست بقايا جامدة من الماضي؛ وإنما جملة من وثيقة تاريخية لم نتمكن بعد من قراءتها كاملة.

وإذا كانت الوثائق المكتوبة قد صمتت عن أجزاء كبيرة من تاريخ جبل نفوسة، فإن الأرض لم تصمت؛ بل ظلّت تحتفظ بالشواهد. والمطلوب اليوم ليس فقط استخراج هذه الشواهد، بل أن نتعلم كيف نسألها، وكيف نسجل إجاباتها، وكيف نحفظها قبل أن تضيع.

توصيات الدراسة

إعداد خريطة أثرية شاملة لجبل نفوسة تجمع المواقع المنشورة وغير المنشورة ضمن قاعدة GIS موحدة.

إنشاء منصة رسمية مبسطة للإبلاغ عن اللقى العرضية، تسمح بإرسال الصور والموقع ومعلومات الاتصال دون نشر إحداثيات الموقع للعامة.

منح كل بلاغ رقماً مرجعياً يمكن للمواطن من خلاله معرفة مصير البلاغ والنتائج الأساسية.

إجراء مسوح أثرية منهجية للمناطق التي لم تشملها البعثات السابقة، وعدم تفسير قلة المواقع المسجلة فيها على أنها غياب للاستيطان.

إعداد Corpus للقى الأثرية المكتشفة في جبل نفوسة الموجودة في المتاحف والمخازن والمؤسسات المختلفة، مع تحديد موضع العثور عليها ما أمكن.

إعادة دراسة المواقع التي سجلها الباحثون الإيطاليون والبريطانيون خلال القرن العشرين، وربط الخرائط والأسماء القديمة بالإحداثيات الحالية.

إعطاء أولوية لدراسة الفترة السابقة للعصر الروماني والفترة المسيحية المتأخرة، لكونهما من أكبر الفجوات في التسلسل التاريخي للجبل.

منع أعمال الحفر غير المرخص وتعزيز مراقبة المواقع المعروفة، مع التركيز على التوعية إلى جانب الإجراءات القانونية.

إطلاق حملات محلية تشرح الفرق بين القيمة الأثرية والقيمة التجارية، وأن كسرة الفخار أو العظم قد تكون ذات قيمة علمية استثنائية.

إشراك المدارس والجامعات والجمعيات الثقافية في نشر مفهوم «المواطن الحارس للتراث».

توثيق شهادات السكان عن المواقع واللقى القديمة قبل وفاة الأجيال التي تعرف مواقعها وأسماءها المحلية.

نشر تقارير دورية مبسطة عن نتائج أعمال مصلحة الآثار والبعثات في جبل نفوسة لتعزيز الثقة والشفافية.

وقف نشر الإحداثيات الدقيقة للمقابر والمواقع الهشة في المنشورات الجماهيرية عندما يكون ذلك من شأنه زيادة خطر الحفر غير المشروع.

دمج نتائج الأركيولوجيا مستقبلاً مع الدراسات التاريخية واللسانية والأنثروبولوجية والجينية للسكان لبناء تاريخ متعدد التخصصات لجبل نفوسة.

المراجع المختارة

Barich, B. E., Garcea, E. A. A., & Giraudi, C. (2006). "Between the Mediterranean and the Sahara: Geoarchaeological Reconnaissance in the Jebel Gharbi, Libya." Antiquity, 80(309), 567-582.

Barich, B. E., Garcea, E. A. A., Giraudi, C., Mutri, G., & Lucarini, G. (2010).

"The Latest Research in the Jebel Gharbi (Northern Libya): Environment and Cultures from MSA to LSA and the First Neolithic Findings." Libya Antiqua, 5, 237-252.

Garcea, E. A. A., & Giraudi, C. (2006). "Late Quaternary Human Settlement Patterning in the Jebel Gharbi." Journal of Human Evolution, 51, 411-421.

Mutri, G., & Lucarini, G. (2008). "New Data on the Late Pleistocene of the Shakshuk Area, Jebel Gharbi, Libya." African Archaeological Review, 25, 99-107.

Nebbia, M., Leone, A., Bockmann, R., Hddad, M., Abdouli, H., Masoud, A. M., Elkendi, N. M., Hamoud, H. M., Adam, S. S., & Khatab, M. N. (2016). "Developing a Collaborative Strategy to Manage and Preserve Cultural Heritage During the Libyan Conflict: The Case of the Gebel Nafusa." Journal of Archaeological Method and Theory, 23(4), 971-988.

Prévost, V. (2012). "Des églises byzantines converties à l'Islam? Quelques mosquées ibadites du Djebel Nafûsa (Libye)." Revue de l'histoire des religions, 229(3), 325-347.

Sjöström, I. W. (2024). "In Search of the Romans in Jabal Nafusa and Surrounding Areas." In N. Mugnai (ed.), Tripolitania in the Roman Empire and Beyond. British Institute for Libyan and Northern African Studies.

UNESCO. "International Day against Illicit Trafficking in Cultural Property." UNESCO, 2023.

UNESCO World Heritage Centre. "Key Libyan and International Partners Unite to Adopt an Action Plan to Safeguard Libya's Cultural Heritage".

UNESCO. "Giulia Domna's Story of Illicit Trafficking." 2024.

بيبليوغرافيا البحوث الأثرية

البدايات: المصادر المبكرة عن معالم نفوسة

هذه الأعمال ليست كلها «حفريات» بالمعنى الحديث، لكنها أساسية لأنها سجلت مواقع وأسماء ومعالم قبل أكثر من قرن.

السنة	الباحث	العمل	الأهمية
1898	Adolphe de Calassanti-Motylinski	Le Djebel Nefousa	وصف واسع للجبل وقراه وثقافته، ويشكل مصدراً مبكراً لتحديد أسماء المواقع والمعالم قبل التغييرات الحديثة.
1899	René Basset	Les sanctuaires du Djebel Nefousa	دراسة ضخمة نسبياً، نحو 83 صفحة، للمعالم والمزارات اعتماداً على المصادر الإباضية مع ملاحظات جغرافية وتاريخية. ظهرت أصلاً في Journal Asiatique. (Ibadica)
1935	Jean Despois	Le Djebel Nefousa (Tripolitaine). Étude géographique	عمل جغرافي أساسي يحتوي معلومات قيّمة عن القرى والعمارة واستعمال الأرض والمواقع القديمة؛ لا يزال يستعمله دارسو الآثار الإسلامية. (Cambridge University Press)
1939	Jean Despois	Libia Pittoresca: I Gsur berberi del Gebel Nefusa	توثيق مبكر للقصور/المخازن الجماعية في الجبل، وإن كان أقرب للكتابة الوصفية منه للبحث الأثري الحديث. (Ibadica)

2. ما قبل التاريخ والعصر الحجري

هذه هي الكتلة العلمية الأهم حالياً. المشروع الليبي-الإيطالي في جبل نفوسة/الغربي أجرى مسوحاً مكثفة وتنقيبات ودراسات جيومورفولوجية وتأريخاً للمواقع وتحليلاً للصناعات الحجرية والعظام الحيوانية منذ التسعينيات. إحدى الدراسات الرئيسية تصف تسلسلاً للوجود البشري من العصر الحجري الأوسط MSA إلى الهولوسين المبكر.

الأهمية	العمل	الباحث	السنة
المواد الخام المستخدمة في الصناعات الحجرية في نفوسة.	Raw Materials of the Late Palaeo-lithic/Neolithic Industries in Jabal "Nefusa, Tripolitania	I. Mrázek & Ji□í Svoboda, "Lithic	1986
تقديم المشروع الأثري الليبي-الإيطالي.	Civiltà preistoriche del Jebel" ,. Gharbi (Libia). Progetto archeolog-"ico congiunto libico-italiano	Barbara E. Bar-ich et al	1993
البيئة. الرواسب والمشهد الأثري.	Geoarchaeology of the Jebel" ,. Gharbi Region: Outline of the Research", Libya Antiqua	Barich et al	1995
وادي غان. وادي الزرقة وهضبة جادو.	Geomorphology and sedimen-" tology in the Ghan and Zargha "Wadis and on the Jado Plateau	,Carlo Giraudi	1995
المأوى الصخري أمّ الغريب واستغلال الموارد.	The Umm et-Grib Rock-Shelter" and the Exploitation of Resources "in Jebel Gharbi	Cecilia Conati ,Barbaro	1995
الصناعات النصلية في منطقة جادو وأواخر البليستوسين.	Industrie à lamelles de la région" "...de Jado, Jebel Gharbi	,Barbara Barich	1995
محاولة بناء التسلسل الثقافي لما قبل تاريخ المنطقة.	The Archaeology of Jebel Gharbi" (Northwest Libya) and the Libyan "Sequence	Barich, Cona-ti Barbaro & ,Giraudi	1996
من أهم الدراسات التفصيلية لموقع رأس الوادي.	Ras el Wadi (Jebel Gharbi): New" Data for the Study of the Epipa-laeolithic Tradition in Northern Libya", Origini 25: 75-146	Barich & Conati ,Barbaro	2003
مجتمعات الصيد في نهاية البليستوسين.	Northern Libya in the Final" Pleistocene: The Late Hunting "Societies of Jebel Gharbi	,.Barich et al	2003
التسلسل الطبقي والثقافي لرأس الوادي.	The Ras el Wadi Sequence in the" Jebel Gharbi and the Late Pleis-"tocene Cultures of Northern Libya	,.Garcea et al	2003
الانتقال من الصيد إلى بدايات المجتمعات الرعوية.	Gli ultimi cacciatori e l'origine dei" "siti pastorali nel Jebel Gharbi	Barich & Giulio ,Lucarini	2005

الانتقال البليستوسيني-الهولوسيني.	The Archaeology of Jebel Gharbi:" Contributions to the Knowledge of the Pleistocene/Holocene Transi-"tion in Northern Libya	,Barich	2006
من أهم دراسات الجبل: مسح مكثف وتسلسل مؤرخ من MSA إلى الهولوسين. (Cam-bridge University Press)	Between the Mediterranean and" the Sahara: Geoarchaeological Reconnaissance in the Jebel Gharbi, Libya", Antiquity 80: 567-582	Barich, Garcea ,& Giraudi	2006
توزيع الاستيطان البشري وعلاقته بالمناخ والبيئة. (Cam-bridge University Press)	Late Quaternary Human Settle-" ment Patterning in the Jebel Ghar-bi", Journal of Human Evolution 51: 411-421	Garcea & Gi-,raudi	2006
خلاصة أعمال البعثة في هضبة طرابلس.	Missione Congiunta Italo-Libica" nel Jebel Gharbi. Ambiente e Cul-"ture del Plateau Tripolitano	Barich & Luca-,rini	2007
المناخ. التسلسل الزمني والاستيطان. (Cambridge University Press)	Ecological Patterns in the Upper" Pleistocene and Holocene in the Jebel Gharbi...", African Archaeo-logical Review 25: 87-97	Barich & Gar-,cea	2008
شكشوك: من أهم مناطق التنقيب الفعلي في الجبل. (Springer)	New Data on the Late Pleisto-" cene of the Shakshuk Area, Jebel Gharbi, Libya", African Archaeo-logical Review 25: 99-107	,Mutri & Lucarini	2008
دراسة عظام الحيوانات المرتبطة باستيطان ما قبل التاريخ.	Preliminary Report on the Jebel" "Gharbi Fauna from Site SJ-00-56	Alhaique & Fio-,na Marshall	2009
المياه واستمرارية الاستيطان من أواخر البليستوسين إلى الهولوسين.	Uso dell'acqua e continuità di" "...occupazione nel Jebel Gharbi	,Barbara Barich	2009
نتائج من العصر الحجري الأوسط والمتأخر وأولى الشواهد النيوليتية.	The Latest Research in the" Jebel Gharbi... Environment and Cultures from MSA to LSA and the "First Neolithic Findings	,.Barich et al	2010
الصناعة العاترية Aterian في الجبل. (Cambridge University Press)	The Aterian from the Jebel" Gharbi (Libya): New Technological Perspectives from North Africa", African Archaeological Review 30: 169-194	Spinapolice & ,Garcea	2013

التكنولوجيا الحجرية ونظام الاستيطان العاتري. (Cambridge University Press)	Aterian Lithic Technology and Settlement System in the Jebel Gharbi, North-Western Libya", Quaternary International 350: 241-253"	Spinapolice & Garcea,	2014
الاقتصاد والبيئة خلال الهولوسين. (Springer)	Northwest Libya from the Early to Late Holocene: New Data on Environment and Subsistence from the Jebel Gharbi", Quaternary International 320: 15-27"	Barbara Barich,	2014
امتداد الدراسة نحو سهل الجفارة وربطه بالجبل.	Libyan-Italian Joint Mission in the Jebel Gharbi (Tripolitania): The Holocene Sequence of the Jifarah Plain"	Barich, Lucarini & Mutri,	2015
المرجع التجميعي الأحدث والأهم حالياً لما قبل تاريخ جبل نفوسة؛ 169 صفحة إضافة إلى المقدمات والببليوغرافيا. ويجمع نتائج عقود من البحث. (Lerma)	Hunters of the Mountain: The Archaeology of Jebel Gharbi-Nefusa, Northwest Libya, from the End of Pleistocene to the Holocene	Barbara E. Barich (ed.),	2024
إعادة تقييم مرحلة الهولوسين ونتائج البعثة الليبية-الإيطالية.	La Libia nord-occidentale… Missione congiunta Libico-Italiana nel Jebel Gharbi-Nefusa", Libya Antiqua XVII"	Barich & Mutri,	2024

واللافت أن قائمة مراجع دراسة Antiquity نفسها تكشف أعمالاً أخرى مرتبطة بالسياق مثل Bir Miji للفن الصخري ودراسات العصر الرباعي والجفارة، ما يعني أن corpus النهائي يمكن أن يتوسع أكثر عند إدخال المواقع الواقعة على الحافة الجغرافية للجبل.

3. ما الذي وجدته بعثات ما قبل التاريخ فعلياً؟

هذه ليست مجرد دراسات نظرية. هناك مواقع وطبقات ولقى أثرية حقيقية.

ما تم توثيقه	الموقع/المنطقة
مستويات من أواخر البليستوسين، مجموعات كبيرة من الأدوات الحجرية وآثار نشاط الصيادين، ودراسة منفصلة للبقايا الحيوانية. (Springer)	شكشوك
مجموعة حيوانية أثرية مرتبطة بالتنقيبات، استُخدمت لفهم الصيد والبيئة القديمة.	SJ-00-56

تسلسل مهم جداً للصناعات الحجرية من مراحل قديمة وصولاً إلى تقاليد أواخر العصر الحجري؛ خصصت له دراسات طويلة. (Cambridge University Press)	رأس الوادي
مواقع من العصر الحجري الأوسط/العاتري ودراسة الرسوبيات والبيئة القديمة. (Cambridge University Press)	وادي غان
صناعات حجرية وطبقات قديمة ودراسات جيومورفولوجية. (Cambridge University Press)	عين/وادي الزرقة
صناعات حجرية، منها صناعات نصلية، ودراسة للرواسب والبيئة. (Cambridge University Press)	هضبة جادو
مأوى صخري ودراسة لاستغلال الموارد الطبيعية.	أم القرب
مواقع عاترية عديدة وأدوات Levallois وأدوات ذات سويقات وكاشطات وقطع ثنائية الوجه؛ أي أن الجبل كان جزءاً مهماً من مجال استيطان الإنسان في العصر الحجري الأوسط. (Cambridge University Press)	مناطق متعددة في الجبل

هذه النقطة بالغة الأهمية تاريخياً: تاريخ السكن في نفوسة لا يبدأ بالرومان أو المصادر المكتوبة؛ الأركيولوجيا تضع النشاط البشري في المنطقة في نطاق زمني أقدم بكثير يمتد إلى العصر الحجري الأوسط وما بعده.

4. العصر الروماني: أبحاث ومواقع جبل نفوسة

هنا وجدت مجموعة شديدة الأهمية، تبدأ بصورة واضحة منذ فترة الاحتلال الإيطالي.

الأهمية	العمل	الباحث	السنة
كتاب كامل من 144 صفحة مخصص للآثار/المستوطنات الزراعية الرومانية في جبل نفوسة. هذا من أهم المراجع التي ينبغي إعادة قراءتها موقعاً موقعاً. (HathiTrust Digital Library)	Vestigia di colonie agricole romane: Gebel Nefusa	Francesco Corò,	1929
مزرعة رومانية في هنشير صفيت قرب يفرن.	Fattoria romana ad Henscir Suffit (Jefren)", Africa Italiana 2: 106-110"	Renato Bartoccini,	1929
الإطار العسكري والزراعي للرومان في داخل طرابلس وحافة الجبل.	The Limes Tripolitanus in the Light of Recent Discoveries"	Ward-Perkins & R.G. Goodchild,	1949
يعالج منظومة الحدود والمزارع المحصنة، ويتصل بمواقع نفوسة.	"The Limes Tripolitanus II"	R.G. Goodchild,	1950

دراسة أثرية مباشرة لموقع قصر الجزيرة بين يفرن وجادو. (Cambridge University Press)	Olwen Brogan & David Oates,	Gasr el-Gezira, a Shrine in the Gebel Nefusa of Tripolitania", PBSR 21: 74-80"	1953
دراسة أوسع للاستيطان الروماني في الجبل الطرابلسي.	David Oates,	The Tripolitanian Gebel: Settle-ment of the Roman Period..."	1953
يتضمن لقى/نقوشاً نحتية من منطقة جادو وغيرها.	Olwen Brogan,	"The Camel in Roman Tripolitania"	1954
مقابر وأضرحة رومانية في محيط تيجي. (Cambridge University Press)	Olwen Brogan,	Henschir el-Ausaf by Tigi (Tripolitania) and Some Related Tombs...", Libya Antiqua 2: 47-56"	1965
نشر نقوش من العوينية قرب يفرن. (Cambridge University Press)	J.M. Reynolds & W.G. Simpson,	Some Inscriptions from el-Aue-nia, near Yefren in Tripolitania", Libya Antiqua 3-4: 45-47"	1966-69
طرق ومنظومة الحدود الرومانية في الداخل.	Norman Ham-mond,	The Limes Tripolitanus: A Roman Road in North Africa"	1967
جدار حجري قديم بطول نحو 6 كم، وبرج مراقبة، ومبنى روماني عند المعبر وصهريج قريب جنوب الأصابعة. (Cambridge Univer-sity Press)	Olwen Brogan,	Hadd Hajar, a clausura in the Tripolitanian Gebel Garian south of Asabaa", Libyan Studies 11: 45-52"	1980
الزراعة الرومانية واستغلال الجبل وما قبل الصحراء.	David Mattingly,	New Perspectives on the Agricul-tural Development of Gebel and Pre-desert in Roman Tripolitania"	1987
مراجعة كبرى للمزارع المحصنة والزراعة والحدود. (Cambridge University Press)	Mattingly,	Farmers and Frontiers: Exploiting and Defending the Countryside of Roman Tripolitania"	1989
يحتوي على مواقع ومعابد وعبادات من داخل طرابلس، ومنها العوينية.	Véronique Brou-quier-Reddé,	Temples et cultes de Tripolitaine	1992
مرجع شديد الأهمية؛ الصفحات 141-182 عبارة عن catalogue لمواقع جبل نفوسة تحديداً. (Ibadica)	Isabella Sjöström,	Tripolitania in Transition: Late Ro-man to Islamic Settlement: With a Catalogue of Sites	1993
ضريح روماني في نطاق الجبل الغرياني.	Abdulhamid Abdussaid,	Bir et-Uaar Mausoleum (Al-Ur-ban, Djebel Garian)", Libya Antiqua"	1998

تجمع مادة عن أضرحة ونحت طرابلس بما في ذلك مواقع من نفوسة والعوينية وجادو.	Roman Funerary Reliefs and North African Identity...,	Julia Salome Nikolaus,	2017
أهم مراجعة حديثة مباشرة للآثار الرومانية في جبل نفوسة؛ منشورة ضمن Tripolitania in the Roman Empire and Beyond.	In Search of the Romans in Jabal Nafusa and Surrounding Areas", pp. 173-192"	Isabella Welsby Sjöström,	2024

5. مواقع رومانية تستحق إعادة التحقيق الميداني

هنشير صفيت - Henscir Suffit، يفرن

وجود بحث بعنوان صريح "Fattoria romana ad Henscir Suffit (Jefren)" يجعل هذا الموقع من أهم المواقع الرومانية المعروفة في الجزء الأوسط من نفوسة.

Gasr el-Gezira - قصر الجزيرة

الموقع موثق جيداً. Brogan وOates يحددان وجود مزار/بناء روماني، ويذكران أن بقايا قرية رومانية تقع على بعد نحو 300 متر إلى الجنوب الشرقي. كما يضعان المنطقة ضمن نطاق واسع لزراعة الزيتون الرومانية.

El-Auenia - العوينية قرب يفرن

توجد نقوش رومانية منشورة، كما ارتبط الموقع بتنقيبات ودراسة للاستيطان الروماني.

Hadd Hajar - حد حجر جنوب الأصابعة

هذه حالة مهمة جداً لدراسة السيطرة على الطرق والممرات: جدار بطول ستة كيلومترات تقريباً، برج مراقبة، مبنى روماني عند نقطة عبور الطريق، وصهريج على بعد نحو كيلومترين.

Henschir el-Ausaf - قرب تيجي

مجموعة مقابر/أضرحة رومانية منشورة منذ الستينيات.

جادو

سجلت Olwen Brogan وغيرها قطعاً منحوتة وعناصر رومانية في منطقة جادو.

وهي من المناطق التي يبدو أن اللقى القديمة فيها تحتاج إلى إعادة تحديد مواقعها الأصلية ودراسة سياقها.

6. المسيحية القديمة والبيزنطية في جبل نفوسة

هذا من أكثر النتائج إثارة للاهتمام في المسح، وفي الوقت نفسه من أضعف المجالات من حيث التنقيب الحديث.

الموضوع	المرجع
المرجع الأساسي الأوسع للآثار المسيحية في طرابلس.	Ward-Perkins & Goodchild, The Christian Antiquities of Tripolitania
انتشار المسيحية في داخل طرابلس من خلال المعالم الأثرية.	Antonino Di Vita, 1966/67, "La diffusione del cristianesimo nell'interno della Tripolitania, attraverso i monumenti..."
بحث مخصص مباشرة لشواهد المسيحية في جبل نفوسة.	Franco Dell'Aquila, 2010, "Note sul Cristianesimo nel Jebel Nafusa (Libia)"
يبحث احتمال إعادة استعمال مبانٍ مسيحية/بيزنطية وتحول بعضها إلى مبانٍ إسلامية، مع مقارنة دقيقة بين الأدلة الأثرية والمصادر الإباضية. (OpenEdition Journals)	Virginie Prévost, 2012, "Des églises byzantines converties à l'Islam? Quelques mosquées ibadites du Djebel Nafûsa"
تعيد دراسة العناصر الرومانية والمسيحية المتأخرة الموجودة في قرى ومباني نفوسة.	Isabella Welsby Sjöström, 2024

ومن الأمثلة الواردة في الأدبيات تمزدة Tamazda/Temezda، حيث تشير Prévost إلى بقايا تُفسر على أنها بازيليكا بيزنطية. لكن من المهم أكاديمياً عدم اعتبار كل مسجد يحوي حجارة رومانية أو مسيحية «كنيسة محوّلة» بصورة آلية؛ فإعادة استعمال الأحجار spolia أمر مختلف عن استمرار المبنى نفسه.

وهنا أرى فجوة كبيرة جداً تصلح لبحث مستقل بعنوان:

«الآثار المسيحية المتأخرة في جبل نفوسة: دراسة نقدية للشواهد المعمارية والنقوش والعناصر المعاد استعمالها».

7. الآثار الإسلامية والإباضية

هذه المجموعة ضخمة، وتعود بدايتها الأكاديمية الحديثة على الأقل إلى أعمال Allan في الستينيات والسبعينيات.

الأهمية	العمل	الباحث	السنة
أول مسح حديث واسع لمساجد نفوسة؛ مرجع أساسي. (Cambridge University Press)	Some Mosques of the Jebel Nefusa", Libya Antiqua 9-10: 147-169"	J.W. Allan,	1972-1973
دراسة نقوش شروس ومسجد أبي معروف. (Cambridge University Press)	The Arabic Inscriptions on the Mosque of Abu Maaruf at Sharwas", Libyan Studies 5: 14-19"	N.M. Lowick,	1973
يتضمن فرسطاء، ويغو، شروس، أم الطبول، قصر الحاج، كاباو، نالوت ومساجد نفوسة. (Ibadica)	Islamic Art and Architecture in Libya		1976
العمارة التقليدية، بما فيها نفوسة. (Ibadica)	Vernacular Architecture", pp." 32-59	Antony Hutt & Guy Petherbridge,	1976
رسالة دكتوراه تشمل عمارة الجبل ضمن التطور العام للمساجد الليبية. (Ibadica)	A History of Libyan Mosque Architecture During the Ottoman and Karamanli Periods 1551-1911	Ali Masud,	1979
أطروحة أساسية مخصصة لآثار نفوسة الإسلامية.	Some Islamic Monuments in Jabal Nafusa	Muhammad Salim Muqayyid Warfalli,	1981
مراجعة للأعمال الأثرية الإسلامية، مع قسم عن جبل نفوسة. (Cambridge University Press)	Islamic Archaeology in Libya," 1969-1989", Libyan Studies 20	G.R.D. King,	1989
الصيغة العربية المنشورة لدراسته الواسعة، عن المساجد والنقوش والزخرفة والعناصر المعمارية. (Cambridge University Press)	بعض الآثار الإسلامية بجبل نفوسة في ليبيا	محمد سالم المقيد الورفلي،	2007
تقابل بين النص الإباضي والموقع الأثري.	Quelques mosquées anciennes" du djebel Nafasa et leur évocation "dans les sources ibadites	Virginie Prévost,	2012

8. شروس: موقع أثري مهم أكثر مما يبدو

بحث Lowick لا يتناول «مسجداً قديماً» فقط؛ بل يوضح أن Sharwas/Sharus كانت مدينة معروفة في مصادر القرون الوسطى، وأن موقع مسجد أبي معروف والخرائب

المحيطة به يحتفظ بمادة كتابية وتاريخية مهمة.

وهذا يجعل شروس من المواقع التي تستحق مشروعاً مستقلاً يجمع:

المسجد والنقوش، التخطيط القديم للمدينة، المقابر، شبكات المياه، الفخار السطحي، وربط كل ذلك بما ورد في السير والمصادر الجغرافية.

9. العمارة الصخرية في نالوت وغرب نفوسة

سلسلة بحثية إيطالية:

البحث	الباحث	السنة
(Abitazioni rupestri a Nalut (Libia	Dell'Aquila, Bencini & Fiorentino,	2006
Abitazioni rupestri a Nalut (Libia). Seconda missione, febbraio 2007	Dell'Aquila, Bencini & Fiorentino,	2007
Nalut ed il Jebel Nafusah: le abitazioni rupestri dei Berberi, i depositi di cereali, i granai fortificati, i frantoi e le tecniche di coltivazione secca	Bencini & Dell'Aquila,	2007
Insediamenti rupestri nel Gebel Nefusa occidentale ((Libia), Opera Ipogea 2: 3-18. (Avesis	Dell'Aquila, Fiorentino, Polimeni & Bencini,	2009
La moschea rupestre di Tnumayat (Gebel Garbi, Tripol-itania, Libia)	Dell'Aquila et al.,.	2011
(Rupestrian Mosques, pp. 53-56. (Ibadica	Franco Dell'Aquila,	2012
(L'habitat rupestre del Gebel Garbi (Libia	Dell'Aquila et al.,.	2012
(Moschee rupestri nel Gebel Nafusa occidentale (Libia	Dell'Aquila & Fiorentino,	2014
Vernacular Architecture in Libya: A Case Study of Ver-nacular Dwellings in the Nafusa Mountain Region, PhD, University of Salford, 384 pp.	M. Milod,	2019

إذن البيت الحفري ليس مجرد موضوع إثنوغرافي؛ بل توجد بالفعل مدرسة بحثية تعاملت معه بوصفه تراثاً معمارياً وأثرياً، مع الرفع الهندسي والتصوير وتحليل الفضاءات.

10. القصور والمخازن الجماعية

دراسة Bencini وDell'Aquila مهمة جداً لأنها تجمع في عنوان واحد:

المساكن الصخرية - مخازن الحبوب - القصور/المخازن المحصنة - معاصر الزيت - تقنيات الزراعة الجافة.

وهو ما يسمح بالتعامل مع قصر نالوت، قصر كاباو، قصر الحاج وغيرها لا كـ«مبانٍ سياحية» فقط، بل كجزء من نظام اقتصادي واجتماعي متكامل لحفظ المحاصيل وإدارة الملكية والأمن الغذائي. المرجع مسجل أيضاً في مراجعة Cambridge لكتاب Prévost.

11. فرسطاء

وجدت الدراسة العربية:

سعيد علي حامد، «فرسطاء: موقعها الجغرافي وآثارها التاريخية والثقافية في جبل نفوسة»، مجلة البحوث التاريخية، مج. 34، ع. 2، 2012، ص 173-182.

لكن فرسطاء تظهر كذلك في الأدبيات الإنجليزية والفرنسية المتعلقة بالعمارة الإسلامية والإباضية، ومنها Islamic Art and Architecture in Libya ودراسات Prévost.

وهذا يعني أن تجميع كل ما نُشر عن فرسطاء بلغات مختلفة سيعطي corpus أكبر بكثير من البحث العربي وحده.

12. المسوحات الأثرية الحديثة وحماية المواقع

هناك تحول مهم بعد 2011 من «التنقيب» إلى توثيق المشهد الأثري وحمايته رقمياً.

Gebel Nafusa Survey - 2015

جرى مسح ميداني في أبريل ومايو 2015، وتؤكد EAMENA أنه كان من أهم مشاريع المسح التي أُنجزت في المنطقة خلال تلك المرحلة.

ثم نشر فريق دولي-ليبي:

Marco Nebbia et al., 2016, "Developing a Collaborative Strategy to Manage and Preserve Cultural Heritage During the Libyan Conflict: The Case of the Gebel Nafu-sa", Journal of Archaeological Method and Theory 23: 971-988.

Héla Mekki - 2021

"Documentation et gestion du patrimoine archéologique de la chaîne montag-neuse tuniso-libyenne via l'utilisation des nouvelles technologies", Libyan Studies 52.

مشروع مهم لأنه ينظر إلى نفوسة ضمن السلسلة الجبلية الممتدة عبر الحدود ويستخدم تقنيات حديثة في التوثيق وإدارة المواقع.

13. أهم اللقى/أنواع الشواهد التي يمكن حالياً إثباتها في الجبل

النوع	الشاهد
أدوات حجرية	مجموعات ضخمة من MSA وAterian وLSA/Epipalaeolithic من رأس الوادي، وادي غان، الزرقة، شكشوك وجادو. (Cambridge University Press)
بقايا حيوانية	من مواقع التنقيب في شكشوك/SJ-00-56، استُعملت لدراسة اقتصاد الصيد والبيئة.
مزار روماني	(Gasr el-Gezira. (Cambridge University Press
قرية رومانية	بقايا قرية على بعد نحو 300م من Gasr el-Gezira. (Cambridge University Press)
مزارع رومانية	Henscir Suffit قرب يفرن، إضافة إلى المشهد الزراعي الروماني الأوسع.
نقوش رومانية	العوينية قرب يفرن وغيرها. (Cambridge University Press)
أضرحة ومقابر	تيجي، العوينية، Bir et-Uaar ومواقع أخرى. (Cambridge University Press)
منشآت دفاعية	Hadd Hajar مع الجدار والبوابة/المبنى الروماني والصهريج. (Cambridge University Press)
شواهد مسيحية	عناصر معمارية ورموز وبقايا يُناقش ارتباط بعضها بكنائس/بازيليكات متأخرة. (OpenEdition Journals)
نقوش عربية	أهمها مجموعة مسجد أبي معروف في شروس. (Cambridge University Press)
مساجد قديمة	عشرات المباني التي سجلها Allan وWarfalli وIbadica. (Prévost)
مساجد صخرية	خاصة في غرب نفوسة، ومنها Tnumayat ودراسات Dell'Aquila.
مساكن صخرية	نالوت ومناطق متعددة من غرب الجبل. (Avesis)
مخازن جماعية محصنة	نالوت، كاباو، قصر الحاج وغيرها. (Ibadica)
معاصر زيت	موثقة في الدراسات المعمارية والمشهد الزراعي، من العصور القديمة وحتى العمارة التقليدية. (Cambridge University Press)

14. ليس كل جبل نفوسة مدروساً بنفس الدرجة

بعد مقارنة الأدبيات ظهرت خريطة غير متوازنة للمعرفة.

شكشوك-جادو-رأس الوادي-وادي غان جيدة نسبياً لما قبل التاريخ.

يفرن وما حولها لديها مادة رومانية مهمة لكنها قديمة ومجزأة.

نالوت وغرب الجبل لديها توثيق جيد للعمارة الصخرية والقصور.

شروس-تمزدة-فرسطاء مهمة جداً للمرحلة الوسيطة والإباضية.

أما الكثير من القرى والوديان والمواقع بين هذه المراكز فتكاد تظهر فقط في مسوح أو إشارات قديمة.

حتى الدراسة الحديثة للآثار الرومانية اختارت عنوان "In Search of the Romans in Jabal Nafusa"، وهو بحد ذاته يعكس أن الصورة الرومانية للجبل لا تزال تحتاج إلى إعادة تركيب.

15. أكبر الفجوات البحثية التي كشفها المسح

أ. ما قبل الرومان والعصر البونيقي/اللوبي

لدينا إنسان العصر الحجري، ثم عندما نصل إلى الرومان تظهر فجأة مزارع ونقوش وأضرحة ومستوطنات. لكن ماذا عن الألفية الأولى قبل الميلاد والسكان المحليين قبل الرومان؟

هذه الحلقة تحتاج بحثاً خاصاً في:

الفخار السطحي، المقابر، النقوش الليبية القديمة، أنماط الاستيطان، الاتصال البونيقي، والطرق بين الجفارة وداخل الجبل.

ب. المرحلة المسيحية

الأدلة موجودة لكنها لم تتحول إلى برنامج تنقيب شامل.

ج. يفرن

اللافت أن هناك أعمالاً مبكرة مباشرة جداً حول يفرن:

Henscir Suffit.

El-Auenia.

Gasr el-Gezira في المجال يفرن-جادو.

مشهد زراعة الزيتون الروماني.

لكن لا يظهر حتى الآن مشروع حديث شامل بعنوان Archaeology of Yefren يجمع

كل ذلك.

د. الجبانات

يبدو أن معلومات المقابر والأضرحة أكثر من الدراسات الحديثة المخصصة لها.

هـ. اللقى الموجودة في المتاحف والمخازن

هناك إشارات إلى نقل قطع من الجبل خلال القرن العشرين، لكن لا يوجد حتى الآن فهرس منشور موحد: Archaeological Objects from Jabal Nafusa يبين رقم القطعة، موقع اكتشافها، مكان حفظها الحالي وصورتها.

وهذه فجوة مهمة جداً.

16. أهم خمسة مراجع نحتاجها لو أردنا بناء "أطلس آثار نفوسة"

لو أردنا الانتقال من المراجع إلى جرد كل موقع أثري في الجبل، فالمصادر الخمسة الأكثر فائدة كبنية أساسية هي:

Francesco Corò, 1929, Vestigia di colonie agricole romane: Gebel Nefusa – للروماني المبكر.

Isabella Sjöström, 1993, Tripolitania in Transition – خصوصاً catalogue جبل نفوسة، ص 141-182.

Virginie Prévost, Les mosquées ibadites du Djebel Naf□sa – للعصر الإسلامي والإباضي.

Barbara Barich (ed.), 2024, Hunters of the Mountain – المرجع الأساسي لما قبل التاريخ.

Isabella Welsby Sjöström, 2024, "In Search of the Romans in Jabal Nafusa and Surrounding Areas" – أفضل نقطة انطلاق حديثة لإعادة تقييم الآثار الرومانية.

النتيجة الأهم

بعد هذا العرض الشامل، أستطيع القول بثقة إن جبل نفوسة ليس منطقة فقيرة أثرياً، وإنما منطقة فقيرة في التجميع والنشر المتكامل. الدراسات موجودة منذ نهاية القرن التاسع عشر، والتنقيب العلمي الحديث أثبت وجود تسلسل طويل جداً

للاستيطان، لكن المعرفة موزعة بين الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والعربية، وبين Lib-ya Antiqua وLibyan Studies وAfrica Italiana وOrigini وAfrican Archaeological Review وغيرها.

والنتيجة الثانية، وربما الأهم بحثياً، هي وجود فرصة حقيقية لإعداد «الكشاف الأثري لجبل نفوسة»: موقعاً موقعاً، وليس مرجعاً مرجعاً. أي جدول يبدأ من يفرن، جادو، شكشوك، الرجبان، الزنتان، كاباو، نالوت، تيجي، فرسطاء، تمزدة، شروس، غريان والأصابعة، ثم تحت كل بلدة نضع: اسم الموقع القديم، الإحداثيات إن وجدت، الحقبة، وصف اللقى، تاريخ اكتشافها، الباحث، المرجع والصفحة، الصور القديمة، ومكان حفظ القطع المنقولة. هذا هو الجزء الذي سيكشف فعلياً المناطق التي لم تُبحث قط، وسيسمح لأول مرة برؤية جغرافية آثار نفوسة كوحدة واحدة.

جبل نفوسة في المصادر الإسلامية الوسيطة

تسلسل زمني ونقد انتقال النص من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي إلى مطلع القرن العاشر/السادس عشر

مقدمة

يمثّل جبل نفوسة أحد أبرز المجالات التاريخية والحضارية في بلاد المغرب، لما اضطلع به من أدوار سياسية ودينية واقتصادية وعلمية متعاقبة، ولما اتسم به من خصوصية جغرافية وبشرية جعلته حلقة وصل بين الساحل الليبي وبلاد الجريد وإفريقية وطرابلس والصحراء الكبرى. ومع ذلك، ظلّ تاريخ الجبل في العصر الوسيط موزعاً بين أخبار متفرقة وردت في كتب البلدان والمسالك والممالك والرحلات والتراجم والسير المذهبية، من غير أن تُجمع هذه المادة في دراسة زمنية نقدية تبيّن أصولها، وطرائق انتقالها بين المؤلفين، ومدى استقلال كل مصدر منها.

وتنبع أهمية هذا البحث من سعيه إلى حصر أهم المصادر الإسلامية التي تناولت جبل نفوسة ومدنه وقراه وسكانه، وترتيبها وفق التسلسل الزمني لظهورها، ابتداءً من النصوص الجغرافية والتاريخية المبكرة، وصولاً إلى أوصاف الرحالة والجغرافيين المتأخرين، وتتجلى القيمة المنهجية للبحث في تتبّع علاقات النقل والتأثر بين المصادر، والكشف عن الأخبار التي انتقلت من مؤلف إلى آخر، أحياناً بألفاظها نفسها، وأحياناً بعد اختصارها أو تحريفها أو إعادة تفسيرها. فمجرد تكرار الخبر في عدد من المؤلفات لا يعني تعدد الشهادات التاريخية.

كما تكتسب هذه الدراسة أهميتها من جمعها بين الرؤية الخارجية التي تقدمها كتب الجغرافيا والرحلات، والرؤية الداخلية التي حفظتها كتب السير والتراجم الإباضية. فقد ركز الجغرافيون غالباً على الطرق والمسافات والأسواق والحصون والمنتجات والسكان، بينما قدمت المصادر المحلية أسماء القرى والعشائر والعلماء والمساجد والمجالس العلمية والصراعات السياسية والمذهبية. وتسمح المقارنة بين هذين الصنفين بإعادة بناء صورة

أكثر توازناً عن جبل نفوسة، مع إخضاعهما معاً للنقد؛ لأن المصادر الخارجية قد تقع في الغموض الجغرافي والتصحيف، في حين تعبّر المصادر المحلية عن ذاكرة جماعية ذات مقاصد دينية ومذهبية مخصوصة.

وتبرز أهمية البحث أيضاً في إعادة فحص أسماء المدن والقرى والمواضع النفوسية الواردة بصيغ مختلفة في المخطوطات والطبعات الحديثة؛ إذ أدى التصحيف، واختلاف الضبط، وتعريب الأسماء الأمازيغية، ونقلها بين اللغات، إلى صعوبة تحديد عدد من المواضع. ولذلك يمكن أن يكون هذا المسح أساساً لإعداد معجم تاريخي طوبونيمي لجبل نفوسة، تُقارن فيه الأسماء القديمة بالأسماء الحالية، وتُربط الشهادات النصية بالمسح الأثري والرواية الشفوية والخرائط التاريخية.

ولا تقتصر غاية البحث على استعادة أخبار الجبل من بطون المؤلفات، بل تتجه إلى تقويم القيمة التاريخية لهذه الأخبار وحدود الاستفادة منها، والكشف عن الأخطاء التي تراكمت بسبب النقل غير النقدي، مثل اضطراب تقدير المسافات والأعداد، أو توسيع دلالة بعض الأوصاف لتشمل جبل نفوسة كله، أو نسبة أخبار إلى مؤلفين لم يثبت ورودها في نصوصهم المحققة. وبذلك يمهّد البحث لإعادة كتابة تاريخ الجبل على أساس المقارنة بين النصوص، ودراسة أسانيد الأخبار ومصادرها، والاستفادة من نتائج الآثار واللسانيات التاريخية ودراسة أسماء الأماكن، بدلاً من الاكتفاء بتجميع الروايات المتكررة.

ومن ثمّ، يمثل هذا العمل خطوة أولى نحو بناء مدونة تاريخية نقدية لمصادر جبل نفوسة في العصر الوسيط، تُظهر مكانة الجبل في الجغرافيا الإسلامية، وتعيد الاعتبار إلى مصادره المحلية، وتحدد الفجوات التي سكتت عنها النصوص أو عجزت عن تفسيرها. كما يفتح المجال أمام دراسات لاحقة تُعنى بتحقيق نصوص نفوسة، ومقارنة رواياتها، ورسم شبكة طرقها ومراكزها العمرانية، واختبار أخبار المصادر المكتوبة في ضوء المكتشفات الأثرية والشواهد المادية.

الكلمات المفتاحية: جبل نفوسة؛ نفوسة؛ الجغرافيا الإسلامية؛ كتب البلدان؛ المسالك والممالك؛ أدب الرحلة؛ المصادر الإباضية؛ كتب السير؛ البكري؛ ابن حوقل؛ ياقوت الحموي؛ التجاني؛ ليون الإفريقي؛ النقد التاريخي؛ التناص ونقل الأخبار؛ أسماء الأماكن؛ المدن والقرى النفوسية؛ تاريخ ليبيا الوسيط.

الملخص التنفيذي

ينتهي هذا المسح إلى أن تاريخ جبل نفوسة لا يُستخرج من قائمة متتابعة من

أسماء الجغرافيين، بل من طبقات نقل متراكبة. أقدم وصف خارجي واسع باقٍ هو وصف اليعقوبي في أواخر القرن الثالث الهجري، وفيه صورة لمجال إباضي أمازيغي كثيف القرى مرتبط سياسياً بتاهرت. ثم تأتي النواة الوصفية الكبرى في القرن الرابع: ابن حوقل يصف شروس وجادو والزراعة والمياه والمنابر، ومحمد بن يوسف الورّاق-وكتابه مفقود-يمد البكري بمادة تفصيلية عن القرى والحصون والأسواق والطريق الصحراوي. ومن البكري وابن حوقل انتقلت العبارات، أحياناً حرفياً وأحياناً بعد التحريف، إلى الإدريسي، والاستبصار، وياقوت، والحميري وغيرهم.

وعليه فالبكري هو أغنى مصدر جغرافي خارجي وصل إلينا عن الجبل، لكنه ليس شاهد عيان ولم يزر إفريقية؛ قيمته أنه وعاء حفظ نصاً أقدم للورّاق. أما ياقوت فليس مصدراً مستقلاً عن أحوال القرن السابع الهجري في نفوسة، بل جامع بين ابن حوقل والبكري؛ وعبارة «ثلاثة أميال» عنده تبدو تصحيفاً لعبارة «ثلاثة أيام». كما أن «السبعين حصناً» عند الإدريسي لا تخص جبل نفوسة وحده، بل السلسلة الجبلية الطويلة من المغرب الأقصى شرقاً.

في المقابل، تمنح سلسلة السير الإباضية-ابن سلام، أبو زكرياء الورجلاني، الوسياني، البغطوري، الدرجيني، ثم الشماخي-معلومات لا يعوضها البلدانيون: أسماء العلماء والقرى، شبكات التعليم، التنظيم المحلي، الذاكرة السياسية، والعبارات الأمازيغية. غير أن هذه السلسلة ليست دفتر وقائع محايداً؛ إنها «سيرة جماعة» أعادت ترتيب الماضي وبناء حدوده المذهبية عبر القرون. لذلك لا بد من مقابلة الرواية المحلية بالمصادر الخارجية والآثار والنقوش.

أما الرحالة، فعدد الشهود المباشرين أقل مما توحي به الفهارس. ابن حوقل جاب المغرب، لكن دخوله الجبل نفسه غير مثبت بصيغة صريحة؛ التيجاني عاين المجال المجاور وذكر امتداد السلسلة إلى نفوسة من غير أن يقدم مساراً داخلياً في الجبل؛ وابن بطوطة مرّ بطرابلس الساحلية من دون وصف معتبر للجبل. وليون الإفريقي يقدّم في مطلع القرن السادس عشر فقرة متأخرة عن جبال بني يفرن ونفوسة، إلا أن صياغتها وصلت طويلاً عبر تحرير راموزيو وترجمات أوروبية ذات نبرة مذهبية حادة، فلا تستخدم قبل الرجوع إلى مخطوط 1526 أو الترجمة الحديثة المبنية عليه.

1. حدود البحث ومنهجه

1.1 ما المقصود بالمصدر الإسلامي هنا؟

يستعمل البحث عبارة «المصادر الإسلامية» بمعناها الحضاري الواسع: النصوص التي نشأت داخل عالم الكتابة الإسلامية أو على تخومها، سواء كان مؤلفها سنياً أو إباضياً أو ذا ميل علوي، وسواء كتب في بغداد أو القيروان أو الأندلس أو صقلية أو روما. ولا تعني العبارة افتراض وحدة في الموقف المذهبي. بل إن اختلاف موقع المؤلف من الإباضية هو أحد مفاتيح النقد.

يشمل المسح أربعة أجناس: (أ) كتب الفتوح والأخبار المبكرة؛ (ب) كتب البلدان والمسالك والممالك والمعاجم؛ (ج) الرحلات؛ (د) السير والطبقات الإباضية. ويُضاف ابن خلدون مؤرخاً للقبائل والدول، وليون الإفريقي خاتمةً مبكرة للعصر الحديث، لأنهما ضروريان لرؤية ما تغير في الصورة المتوارثة.

1.2 مقياس الاستقلال

طريقة الاستعمال	طبيعة الشهادة	الدرجة
يُقدّم، مع فحص غرض الرحلة والمسار والنسخة.	معاينة صريحة للمكان أو حدث عاصره المؤلف	أ
تُفصل المشاهدة عن الخبر المنقول داخل النص.	رحلة في الإقليم أو اتصال مباشر بمخبرين محليين من غير إثبات دخول الموضع	ب
تؤرّخ المعلومة بزمن أصلها، لا بزمن الناسخ وحده.	تجميع مع تسمية المصدر أو إمكان إثبات النقل بالمقارنة اللفظية	ج
تفيد في تاريخ التلقي، والتصحيف، وتحول الأسماء.	إعادة صياغة متأخرة أو معجمية لا تضيف خبراً مستقلاً	د

لا توجد درجة تعني «صحيحاً» وأخرى تعني «باطلاً». الدرجة تقيس استقلال الخبر فقط. فقد يحفظ مؤلف متأخر نصاً قديماً ضائعاً، كما فعل البكري مع الورّاق، بينما قد يخطئ شاهد قريب بسبب التحيز أو سوء الفهم.

1.3 معنى "انتماء المؤلف"

يُعرّف الانتماء في هذا البحث بثلاثة مستويات منفصلة: موطن المؤلف وشبكته السياسية؛ تكوينه المذهبي أو المؤسسي حين يكون معلوماً؛ وصلته الفعلية بالجبل. ولا يُستعمل الأصل الإثني أو الديني حكماً مسبقاً على صدق النص. فمثلاً: أصل ياقوت

«الرومي» يفسر سيرته الاجتماعية، لكنه لا يفسر مادته عن نفوسة؛ الذي يفسرها هو اعتماده على كتب لمؤلفين سابقين وعدم زيارته المغرب.

2. الجدول الزمني العام للمصادر

التواريخ التالية هي تاريخ الكتابة أو الصيغة المرجحة للنص، ثم تُذكر الوفاة عند الحاجة. وعندما يكون العمل مفقوداً أو تاريخ المؤلف مختلفاً فيه صُرّح بذلك.

الاستقلال	قيمته لنفوسة	الانتماء والسياق	المؤلف والكتاب	الظهور
ب/ج	خبر مبكر عن نفوسة في سياق صبراتة والفتح؛ ليس وصفاً للجبل	مصري مالكي، من مدرسة الأخبار والحديث	ابن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها	أوائل 3هـ / 9م
ب/ج	أقدم ذاكرة إباضية مغاربية باقية؛ سياق الجماعة لا معجم مواضع	مغاربي إباضي؛ هويته ونسبته محل نقاش	ابن سلام الإباضي - بدء الإسلام وشرائع الدين	بعد 273هـ / 887م
ب	لغة السكان، إباضيتهم، استقلالهم، كثافة القرى، صلتهم بتاهرت	كاتب ورحالة عباسي ذو ميل علوي ظاهر	اليعقوبي - كتاب البلدان	نحو 278هـ / 891م
ب/ج	سياق سياسي لعلاقة نفوسة بالدولة الرستمية؛ قليل الطبوغرافيا	مقيم بتاهرت من خارج الجماعة الإباضية على الأرجح	ابن الصغير - أخبار الأئمة الرستميين	أواخر 3هـ / 9م
ب؛ محفوظ عبر ج	الأصل المفقود لجزء كبير من مادة البكري عن شروس والقرى	أندلسي عمل في أفق البلاط الأموي، وأقام بالقيروان	محمد بن يوسف الورّاق - مسالك وممالك إفريقية (مفقود)	قبل 363هـ / 974م
ب	شروس، جادو، المياه، الكروم، التين، الشعير، المنابر والجامع	نصيبي رحالة؛ انتماؤه المذهبي غير محسوم	ابن حوقل - صورة الأرض	نحو 367هـ / 977م
ج	أغنى وصف: حصون، قبائل، أسواق، يهود جادو، قرى، طرق الصحراء	أندلسي من بيت إمارة، في وسط علمي مالكي	البكري - المسالك والممالك/المغرب	460هـ / 1068م
ب/ج	بناء أول سرد إباضي مغاربي متماسك؛ شبكة نفوسة العلمية والسياسية	إباضي من ورجلان، تنقل بين تجمعات الإباضية	أبو زكرياء الورجلاني - السيرة وأخبار الأئمة	نحو 471-474هـ
ج/ب	طرق ومراحل، شروس والزراعة؛ يكرر ابن حوقل مع أخبار أحدث	شريف إدريسي مغربي في بلاط روجر الثاني بصقلية	الإدريسي - نزهة المشتاق	نحو 548هـ / 1154م
غير مثبت	يُستشهد به أحياناً لنفوسة، لكن اللفظ لم يظهر في النص المحقق المفحوص	أندلسي مجهول التفاصيل، والنص شديد اضطراب النسخ	الزهري - كتاب الجغرافية	منتصف 6هـ / 12م

الاستقلال	قيمته لنفوسة	الانتماء والسياق	المؤلف والكتاب	الظهور
ب/ج	ترتيب جغرافي لسير المشايخ، روايات شفوية ومكتوبة وألفاظ أمازيغية	إباضي من بلاد الجريد، اتصل بوادي ريغ وورجلان	أبو الربيع الوسياني - السير	ت 557هـ / 1161م
ب/ج	المصدر السيري الأكثر تخصصاً بأشياخ جبل نفوسة وقراه	إباضي نفوسي محلي	مقرين البغطوري النفوسي - روايات الأشياخ	أواخر 6هـ / 12م
ج/د	يعيد البكري ويضيف أخباراً؛ يخلط الوصف بالسجال المذهبي	كاتب مغربي في أفق موحدي	مجهول مراكشي - الاستبصار	587-591هـ / 1191-1195م
د	يجمع ابن حوقل والبكري؛ مهم للتصحيفات، غير مستقل عن زمنه	رومي الأصل، نشأ بغدادياً، ورّاق ورحالة في المشرق	ياقوت الحموي - معجم البلدان	621هـ / 1224م
ج/ب	أبعاد الجبل وعلاقته الاقتصادية بطرابلس وموقعه ضمن السلسلة	أندلسي أديب ورحالة من بني سعيد	ابن سعيد المغربي - الجغرافيا/بسط الأرض	منتصف 7هـ / 13م
ج	ينظم التراجم في طبقات ويضم نفوسيين كثيرين؛ يعيد بناء الشبكة	إباضي مغاربي من بيئة وادي ريغ	الدرجيني - طبقات المشائخ بالمغرب	ت نحو 670هـ / 1272م
أ للمجاور/ لا للجبل	شاهد على المجال المجاور؛ يذكر امتداد جبل درن-دمر-نفوسة	تونسي مالكي وكاتب في الوسط الحفصي	التُّجّاني - الرحلة	706-708هـ / 1306-1309م
د	تلخيص جدولي وموقعي يعتمد ابن سعيد والإدريسي وياقوت	أمير أيوبي كردي الأصل، حاكم حماة	أبو الفداء - تقويم البلدان	721هـ / 1321م
ج/ب	نسب نفوسة وبطونها، مواطنها، ووقائعها السياسية	تونسي مالكي، مؤرخ ورجل دولة؛ ينتسب إلى أصل حضرمي	ابن خلدون - كتاب العبر	أواخر 8هـ / 14م
د	خلاصة معجمية من الإدريسي وياقوت والاستبصار؛ لا معاينة	مغربي؛ هوية المؤلف وتاريخ وفاته مختلف فيهما	الحميري - الروض المعطار	8-9هـ / 14-15م؟
ج/د	جامع التراث السيري السابق؛ خاتمة التقليد الوسيط للتراجم	عالم إباضي نفوسي من أسرة شماخية	الشماخي - كتاب السير	ت 928هـ / 1522م
ب/ج	وصف متأخر لجبال بني يفرن ونفوسة؛ لا يثبت دخوله الجبل	غرناطي-فاسي مسلم التكوين، عُمّد في روما؛ المصير اللاحق مختلف فيه	الحسن الوزان/ ليون الإفريقي - الكوسموغرافيا	932هـ / 1526م

3. القراءة النقدية بالتسلسل الزمني

3.1 ابن عبد الحكم: طبقة الفتح لا جغرافية الجبل

عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم (ت 257هـ/871م) فقيه ومحدّث مصري

مالكي، وكتابه «فتوح مصر وأخبارها» من أقدم ما بقي من أخبار فتح مصر والمغرب. تظهر نفوسة في النص المفحوص في سياق نزول جماعة منها إلى صبراتة وجلائها الروم منها، قبل سرد حركة عمرو بن العاص غرباً. هذه مادة ثمينة لإثبات حضور اسم نفوسة في الإطار الساحلي المبكر، لكنها لا تقدم وصفاً لجبل نفوسة ومدنه.

أما الخبر التفصيلي القائل إن عمرو بن العاص افتتح نفوسة أو شروس ثم رجع منها بكتاب عمر، فيظهر واضحاً عند البكري بعد أكثر من أربعة قرون. وقد يكون له أصل أقدم، لكن لا يجوز إسناد كل تفصيل في الصيغة البكرية إلى ابن عبد الحكم من غير مقابلة نصية. هذه نقطة يتكرر فيها الخلط بين «قِدم الحدث» و«قِدم الرواية الباقية».

حكم المصدر : مهم لاسم القبيلة والسياق الساحلي في طبقة أخبار الفتح؛ ضعيف جداً في إعادة بناء مدن الجبل. ينبغي الفصل بين نفوسة القبيلة، ونفوسة الإقليم الجبلي، ومدينة شروس.

3.2 ابن سلام: أقدم صوت إباضي مغاربي باقٍ

يُنسب «كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدين» إلى مؤلف إباضي مغاربي عاش إلى ما بعد 273هـ/887م. وتختلف الفهارس والدراسات في ضبط اسمه ونسبته: لَوّاب/ابن سلام، اللواتي أو التوزري المزاتي.

لا يعمل الكتاب عمل معجم البلدان، لكنه يتيح الوصول إلى الذاكرة الداخلية المبكرة: تشكل الهوية الإباضية، الأئمة والعلماء، ومفهوم الجماعة والبراءة والولاية. أهميته لنفوسة أنه يمنع المؤرخ من جعل أوصاف البلدانيين الخارجيين-«الخوارج»، «الشراة»، «المتمردون»-اللغة الوحيدة المتاحة. وفي الوقت نفسه يرى البعض أنه ينتقي الماضي ليقيم حدود الجماعة، لا ليقدم حوليات محايدة.

3.3 اليعقوبي: أقدم صورة مركبة للمجال النفوسي

أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي (ت بعد 284هـ/897م، وقيل بعد ذلك) نشأ في أسرة موالية للعباسيين واشتغل بالكتابة والأسفار. يظهر في تاريخه ميل علوي، لكن وصفه المذهبي بتسمية شيعية متأخرة يحتاج إلى احتراز. ألّف «كتاب البلدان» نحو 278هـ/891م بعد سفر وسؤال أهل الأقاليم.

النواة النصية: «إباضية كلهم... في ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة»

يجمع المقطع خمسة مؤشرات لا يجمعها مصدر أقدم باقٍ: (1) لسان غير عربي؛

(2) هوية إباضية عامة؛ (3) رئيس محلي اسمه إلياس؛ (4) عدم أداء الخراج أو الطاعة للسلطة الخارجية؛ (5) ارتباط ديني-سياسي بعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم في تاهرت. ويصف ديار نفوسة بأنها متصلة من قبلة طرابلس إلى قرب القيروان، كثيرة العمارة والبطون.

لا يعني هذا أن حدود القبيلة تطابق حدود الجبل الجيومورفولوجي الحديث؛ كلامه إثنو-سياسي عن «ديار» واسعة. كما أن لفظ «عجم الألسن» لا يحدد لهجة بعينها، لكنه شاهد مبكر على استمرار الأمازيغية. واليعقوبي أقدر من المعاجم المتأخرة على تمثيل لحظته، غير أن إثبات دخوله قرى الجبل نفسها غير متاح؛ لذا درجته «رحلة إقليمية ومخبرون» لا «معاينة داخلية مؤكدة».

3.4 ابن الصغير: شاهد تاهرت على الوظيفة السياسية لنفوسة

صاحب «أخبار الأئمة الرستميين» عاش في تاهرت في أواخر القرن الثالث الهجري، ويُعد من خارج الوسط الإباضي على الأرجح. لا يقدم خريطة لقرى الجبل، لكنه يضيء موقع النفوسيين في الدولة الرستمية، وحضورهم العسكري والعلمي، وعلاقة المركز التاهرتي بأطرافه. فائدته الأساسية هي اختبار ما يقوله اليعقوبي والسير الإباضية عن الولاء لتاهرت؛ ولا ينبغي تحميله مادة طبوغرافية لا يقصدها.

3.5 محمد بن يوسف الورّاق: المصدر الغائب الحاضر

محمد بن يوسف الورّاق (ت 363هـ/974م) أندلسي أقام زمناً طويلاً بالقيروان ثم عاد إلى قرطبة وكتب في خدمة الأفق الثقافي للحكم المستنصر. نُسب في بعض الأخبار إلى جذور زناتية، لكن الأثبت صلته بالأندلس والقيروان. كتابه في «مسالك وممالك إفريقية» مفقود، ولا نعرفه إلا من قطع صرّح البكري باسم صاحبها ومن مختصرات لاحقة عند ابن عذاري.

حين يقول البكري: «قال محمد بن يوسف: أم قرى جبل نفوسة مدينة شروس»، فهو يمنحنا سنداً كتابياً نادراً داخل الجغرافيا. معنى ذلك أن وصف شروس والقرى الكثيرة ليس مشاهدة بكرية من القرن الخامس، بل مادة قيروانية/أندلسية من القرن الرابع. وقد أعاد الصادق زياني سنة 2023 جمع طائفة من نصوص الورّاق المفقودة من البكري وابن عذاري؛ وهي بداية ضرورية، لكنها لا تغني عن تحقيق تراكمي لجميع المواضع ومقارنة ألفاظ النسخ.

3.6 ابن حوقل: النواة البيئية والعمرانية

أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي رحالة خرج سنة 331هـ/943م وجاب أقاليم واسعة، وأتم صيغة «صورة الأرض» نحو 367هـ/977م. عمل داخل تقليد البلخي والإصطخري، لكنه وسّع المغرب توسعاً كبيراً من سفره ومخبريه. انتماؤه المذهبي وصلته بالفاطميين موضوعان للنقاش، فلا يصح تحويل الفرضيات إلى سيرة يقينية.

النواة النصية: «جبل عال منيف... مياه جارية وكروم وأعناب... وأكثر زروعهم الشعير»

يسمي مدينتين: شروس في وسط الجبل، وجادو من ناحية نفزاوة؛ ويذكر المنبر والجامع، ووفرة التين، وصناعة خبز الشعير، ويصف الجبل بأنه دار هجرة الإباضية الوهبية. هذه أول حزمة باقية تسمح بدراسة البيئة الزراعية والتدرج الحضري والمؤسسات الدينية معاً. كما أن خريطته جزء من الدليل، وإن كانت خريطة تصورية لا إسقاطاً هندسياً حديثاً.

حدود المصدر ثلاثة. أولاً: سفر ابن حوقل إلى المغرب ثابت، أما دخوله الجبل فليس مصرحاً به بعبارة لا تحتمل؛ فيُعامل المقطع بوصفه خبر رحلة إقليمية قوي. ثانياً: وصف الإباضية بعبارات «الشراة» و«الخوارج» لغة خارجية. ثالثاً: إرجاع بعض الشخصيات الإباضية المؤسسة إلى الجبل ووفاتها فيه غير متماسك تاريخياً، ويكشف امتزاج الجغرافيا بخبر طائفي غير محقق.

3.7 البكري: أغنى ملف، وأوضح مثال على النقل

أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت 487هـ/1094م) أندلسي من بيت إمارة محلية ومن الوسط الأدبي المالكي. ألّف «المسالك والممالك» سنة 460هـ/1068م، ولم يزر إفريقية أو جبل نفوسة. لذلك لا تُقاس قيمته بمسافة سفره، بل بدقة جمعه لمصادر أقدم ضاعت.

يتضمن ملفه أسماء جماعات وحصون بصيغ تحتاج إلى تحقيق-بنو زمور/رمور، تيرفت/تيرقت، بنو تدرميت-ويصف جادو مدينة ذات أسواق ويسكنها يهود كثير، ويجعل شروس «أم قرى» الجبل، مدينة كبيرة آهلة، حولها أكثر من ثلاثمائة قرية. ويورد المسافة من طرابلس إلى شروس، والزيتون والنخيل والثمار، وعدداً عسكرياً قدره ستة عشر ألف مقاتل، ثم طريق نفوسة-زويلة بمحطات جادو وتيري وأودرف وترغين.

القيمة هنا استثنائية لتاريخ الاستيطان والتجارة واليهود والطرق الصحراوية. لكن ثلاثة أرقام لا تُقرأ كإحصاء حديث: «ثلاثمائة قرية»، «ستة عشر ألف مقاتل»، وعدد أيام

المسير. إنها تقديرات أو صيغ خبرية، وقد تكون متوارثة. كما أن قوله بعدم وجود جامع في شروس وقراها يتوتر مع ذكر ابن حوقل المنبر؛ وربما دل على اختلاف الزمن أو معنى الجامع الجمعة أو اختلاف المصدر، لا على انعدام المساجد.

أهم تصحيح في نسبة المادة: كلما وردت عبارة البكري عن شروس بعد قوله «قال محمد بن يوسف»، يجب فهرستها أولاً تحت الورّاق (القرن الرابع)، ثم تحت البكري بوصفه الحافظ. وإلا تحولت مادة القرن العاشر الميلادي إلى شاهد زائف على القرن الحادي عشر.

3.8 أبو زكرياء والسلسلة الإباضية: من الأخبار إلى "سيرة الجماعة"

ألّف أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الورجلاني «السيرة وأخبار الأئمة» في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ويرجح وضعه بين 471 و474هـ. وهو إباضي من ورجلان، تنقل بين تجمعات إباضية وتلقى عن مشايخها، يمنح نفوسة مكاناً داخل شبكة مغاربية تشمل تاهرت ووادي ريغ وورجلان والجريد وجربة.

لا يقتصر عمله على نقل أسماء؛ إنه يرتب الذاكرة بعد سقوط الدولة الرستمية ويصل العلماء بعضهم ببعض. وقد بيّن بول لوف أن تقليد السير المغاربي يعمل كسيرة جماعية أو بروصوغرافيا: شبكة بشرية ومخطوطية تُعاد صياغتها بحسب حاجات كل قرن. لذلك تُستخرج منه أسماء القرى والشيوخ والرحلات التعليمية، لكن يُسأل دائماً: من روى؟ ومتى كُتبت الرواية؟ وما المسافة بين صاحب الترجمة والمؤلف؟

3.9 الإدريسي: تركيب صقلي بين القديم والجديد

الشريف محمد الإدريسي (493-560هـ/1100-1165م) مغربي إدريسي النسب، تكوّن في المجال الأندلسي-المغربي وعمل في بلاط روجر الثاني النورماني في صقلية. أتم «نزهة المشتاق» سنة 548هـ/1154م مستعيناً بكتب، وتجار، ومبعوثين، وأسئلة موجهة؛ ولا دليل على زيارته نفوسة.

يحدد مراحل بين قفصة ونفوسة وطرابلس وورجلان ودمر، ويكرر وصف شروس والماء والكروم والتين والشعير والخبز بصياغة قريبة جداً من ابن حوقل. هذا التشابه يثبت الاعتماد، فلا يعد المقطع شهادة مستقلة ثانية على كل عنصر. في المقابل، تحمل مواضع أخرى أخباراً أقرب إلى القرن السادس، مثل التحولات السياسية في إفريقية وطرابلس، ما يجعل الكتاب تركيباً متعدد الأزمنة.

تصحيح "السبعين حصناً": عبارة الإدريسي عن كثرة الحصون تقع في وصف

السلسلة الجبلية الكبرى الممتدة من جبال المغرب الأقصى شرقاً. ويأتي فيها مثال تينمل؛ وليست إحصاءً لحصون جبل نفوسة وحده. اقتطاعها من سياقها أحدث رقماً شائعاً بلا سند محلي.

3.10 الزهري: مصدر متداول في الهوامش، غير مثبت في النص المفحوص

ينسب «كتاب الجغرافية» إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، وهو أندلسي عاش في منتصف القرن السادس الهجري. هوية المؤلف لم تُعرف إلا من مخطوط، والنسخ المتأخرة ناقصة كثيرة التصحيف. تذكر دراسات حديثة الصفحة 107 أو 110 عند الحديث عن نفوسة، لكن البحث اللفظي في نص الطبعة المحققة التي راجعتها لم يُظهر «نفوسة» إلا في موضعين في سياق آخر ولا يوجد ذكر لشروس ولا جادو.

لا يثبت هذا غياب الخبر من كل نسخة، لكنه يوجب نقله من قائمة المصادر المؤكدة إلى «قائمة التحقق»: على من يستشهد به أن يقدم صورة الصفحة والطبعة واللفظ، لا إحالة متسلسلة مأخوذة من مراجع لاحقة. وهذه نتيجة نقدية بحد ذاتها.

3.11 الوسياني والبغطوري: أعلى كثافة محلية

أبو الربيع سليمان الوسياني (ت 557هـ/1161م) إباضي من بلاد الجريد، تحرك في وادي ريغ وورجلان. رتب «السير» ترتيباً مكانياً، وصرح بمصادر شفهية ومكتوبة، وأثبت عبارات أمازيغية، كما ضم الكرامات والمواعظ. ميزته لنفوسة أنه يحفظ الخبر داخل جغرافيا الشبكة الإباضية، لكن مادته غير متجانسة زمنياً ولا جنساً.

أما «روايات الأشياخ، أشياخ جبل نفوسة» المشهور بسير البغطوري، المنسوب إلى مقرين بن محمد البغطوري النفوسي في أواخر القرن السادس، فهو أكثر تخصصاً بالمجال نفسه. يسمي العلماء والنساء والقرى ويحتفظ بألفاظ أمازيغية؛ لذا لا يجوز اختزاله إلى كتاب وعظ. وتاريخ مخطوطاته الحديثة مهم: نجاة النص عبر نسخ متأخرة بعد ضياع أو احتراق أصول تجعل نقد النسخة جزءاً من نقد الخبر.

3.12 الاستبصار: جغرافيا مفيدة وسجال مذهبي خطير

«كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار» لمؤلف مراكشي مجهول كُتب بين 587 و591هـ/1191-1195م في أفق الدولة الموحدية. يتابع البكري متابعة وثيقة، ويضيف من رحلات أو أخبار تجار. يكرر طول الجبل ومسافاته وشروس وجادو والقرى، لكنه يجعل جادو

«أم القرى» بعد أن جعل البكري شروس كذلك. ويقول إن الحكم فيهم إلى مشايخهم وفقهائهم، وهو ما يتطابق مع مراحل الكتمان عند الإباضية، وبالرغم من ذلك وجب الحذر من التعامل مع هكذا نصوص.

أخطر ما فيه حكايات منسوبة إلى «ثقة» عن تساهلات دينية وجنسية شاذة. لا توجد قرائن داخلية أو خارجية تبرر اتخاذها وصفاً اجتماعياً لنفوسة؛ وهي تنتمي إلى مخزون التشنيع على الفرق. قيمتها الحقيقية مزدوجة: دليل على نظرة الكاتب الموحدي/السني إلى الإباضية، وإنذار منهجي بعدم تحويل أدب الفرق إلى إثنوغرافيا.

3.13 ياقوت الحموي: معجم للنقل لا نافذة على القرن السابع

ياقوت (574-626هـ/1179-1229م) رومي الأصل، أُسر صغيراً ورباه تاجر بغدادي من حماة، ثم عتق واشتغل بالوراقة والأسفار في المشرق. لم يزر المغرب. أتم «معجم البلدان» نحو 621هـ/1224م، وضم فيه مدخل نفوسة ومدخلاً لشروس/سروس.

المقارنة اللفظية تكشف تركيباً واضحاً: بداية المدخل من ابن حوقل-الجبل العالي، شروس، جادو، خبز الشعير، الإباضية الوهبية-ثم مادة البكري-الطول ستة أيام، بنو زمور، القرى، الثمار، العدد العسكري، خبر الفتح. وتحولت «ثلاثة أيام» عند ابن حوقل إلى «ثلاثة أميال» في النص المتداول، وهو تصحيف جغرافي يكشفه المصدر الأقدم.

ياقوت مهم جداً لضبط انتشار الاسم وأشكاله، ولرؤية كيف جُمعت طبقتان سابقتان في مدخل واحد. لكنه لا يصلح دليلاً على أن شروس وجادو ظلتا في القرن السابع على الحال نفسه. تاريخ تأليف المعجم ليس تاريخ كل معلومة فيه.

3.14 ابن سعيد، التيجاني، وأبو الفداء: من الاقتصاد إلى التلخيص

يضع ابن سعيد المغربي (610-685هـ/1213-1286م) جبل نفوسة شرق جربة وجنوبها، متصلاً بجبل دمر، ويعطي له طولاً وعرضاً، ثم يصف دوره في إمداد طرابلس بالخضر والفواكه والزيت والزبيب والتمر. هذه الإضافة مهمة لأنها تنقل السؤال من «ما مدن الجبل؟» إلى «كيف عمل الجبل مع السوق الساحلية؟». إلا أن أبعاده وصورة السلسلة مرتبطان بتراث الإدريسي، ولا توجد قرينة قاطعة على معاينة ابن سعيد للجبل.

خرج عبد الله التُّجّاني من تونس مع الأمير الحفصي أبي يحيى زكرياء اللحياني بين 706 و708هـ. عاين جنوب إفريقية وطرابلس، وعند غمراسن وصف جبل درن ممتداً إلى

دمر ثم إلى مسافة تسمى جبل نفوسة، قبل أن يرق بمحاذاة طرابلس. هذا شاهد رحلة حقيقي على تصور السلسلة والمجال المجاور، لكنه ليس وصفاً لمدن نفوسة؛ فلا ينبغي إدخاله في زمرة من «زاروا الجبل» من غير دليل مسار داخلي.

أما أبو الفداء (672-732هـ/1273-1331م)، الأمير الأيوبي صاحب حماة، فحوّل مادة الجغرافيا السابقة إلى «تقويم» ذي مواقع وأبعاد وجداول. أهميته في توحيد الإحداثيات والمقارنة، لا في إضافة قرى نفوسية. ويعتمد في المغرب على ابن سعيد والإدريسي وياقوت، فيمثل درجة اشتقاقية متأخرة.

3.15 الدرجيني وابن خلدون: طبقات العلماء وطبقات النسب

أبو العباس أحمد الدرجيني (ت نحو 670هـ/1272م) عالم إباضي مغاربي، نظّم «طبقات المشائخ بالمغرب» في طبقات زمنية، مستفيداً من السير السابقة والرواية. يحفظ تراجم نفوسيين كثيرة ويتيح دراسة التخصصات والرحلات والروابط الأسرية، لكنه يعيد ترتيب الأشخاص وفق نموذج طبقي ومقاصد الجماعة. وقد خصصت نادية المقدمي سنة 2025 دراسة لنفوسة والنفوسيين في هذا الكتاب.

عبد الرحمن ابن خلدون (732-808هـ/1332-1406م) تونسي مالكي، رجل دولة ومؤرخ، ينتسب في تقليده الأسري إلى أصل حضرمي. لا يعيد وصف شروس وجادو على طريقة البلدانيين، بل يفتتح أخبار «البتر» بنفوسة: يجعلها من ولد نفوس بن زحيك بن مادغيس، ويسمي بني زمور وبني مكسور/مسكور وماطوسة، ويجعل جمهور مواطنهم بجهات طرابلس والجبل المعروف بهم.

نسبه يعتمد «نسابة البربر» ومنهم سابق المطماطي وغيره، فلا يؤخذ بوصفه شجرة بيولوجية يقينية. قيمته أعلى في حفظ تقليد النسب كما كان متداولاً، وفي سرد الوقائع؛ ومن ذلك معركة سنة 606هـ عند جبل نفوسة بين أبي محمد الحفصي/الموحدي وجموع ابن غانية والعرب والملثمين. هنا يصبح الجبل مسرحاً استراتيجياً في تاريخ إفريقية، لا مجرد موضع في معجم.

3.16 الحميري: ذروة الدمج والتشويش

«الروض المعطار في خبر الأقطار» معجم مغربي متأخر، وهوية مؤلفه محمد بن عبد المنعم الحميري وتاريخ وفاته مختلف فيهما؛ تنسبه طبعات إلى 900هـ/1495م، بينما

طرحت دراسات تواريخ أقدم. مادته عن نفوسة تجمع فقرة الإدريسي الزراعية بمدخل ياقوت ومادة الاستبصار.

تكشف الحواشي نفسها اضطراباً: أكثر ما نُقل في مدخل «نفوسة» ينطبق على شروس، ويختلط لقب «أم القرى» بين شروس وجادو. كما انتقلت إليه الحكايات الطائفية المشكوك فيها من الاستبصار. لذلك هو شاهد ممتاز على عمر الرواية الطويل وعلى دمج المداخل، لكنه من أضعف المصادر لإثبات واقع جديد في الجبل.

3.17 الشماخي: جامع الذاكرة النفوسية الوسيطة

أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي (ت 928هـ/1522م) عالم إباضي نفوسي، جمع في «كتاب السير» تراجم وأخباراً من أبي زكرياء والمزاتي والوسياني والبغطوري والدرجيني والبرادي، واستفاد أيضاً من مؤرخين غير إباضيين مثل ابن الصغير والرقيق. وبحسب تحليل بول لوف، يمثل كتابه نهاية تقليد البروصوغرافيا الإباضية الوسيط، إذ استوعب كتب السلف في مجموعة أوسع.

قيمته لنفوسة ضخمة من حيث كثافة الأعلام والمواضع وامتداد الذاكرة قروناً. لكن عبارته المتأخرة لا تجعل كل خبر معاصراً له؛ يلزم رد كل ترجمة إلى أقرب مصدر سابق، وتسجيل الإضافات الشماخية، وفحص ترتيب الشبكة. وقد تناولت حنان الطرابلسي سنة 2025 جبل نفوسة وعلماءه في عيون كتب السير مع اتخاذ الشماخي نموذجاً.

3.18 الحسن الوزان/ليون الإفريقي: خاتمة مبكرة لا "مصدر وسيط" خالص

ولد الحسن بن محمد الوزان في غرناطة نحو 894هـ/1488-1494م، ونشأ في فاس في أسرة مسلمة أندلسية، وتعلم وعمل في الدبلوماسية الوطاسية. أُسر سنة 1518 وقُدم إلى روما، وعُمّد سنة 1520 باسم يوحنا ليون دي مديتشي، وكتب بالإيطالية «الكوسموغرافيا وجغرافية إفريقيا» سنة 1526. أما رجوعه إلى الإسلام ووفاته في تونس فاحتمال مشهور لا خبر مقطوع به.

في فقرة جبال بني يفرن ونفوسة يصف جبالاً عالية باردة، قليلة الشعير، وسكاناً شجعاناً ذوي مذهب متميز يُخفونه في المدن. لا يصرح في هذه الفقرة بأنه دخل الجبل، كما أن المسافات والجمع بين بني يفرن ونفوسة يحتاجان إلى قراءة جغرافية دقيقة. الترجمة الإنجليزية القديمة لجون بوري صاغت المذهب بعبارة عدائية من نوع «نبذ شريعة محمد»، وهي ليست لغة محايدة ولا ينبغي نقلها كحقيقة.

المشكلة النصية أساسية: طبعة راموزيو سنة 1550 عدّلت المخطوط. ثم بنت ترجمات كثيرة عليها. الترجمة الإنجليزية الحديثة لأنتوني أوسا-ريتشاردسون وريتشارد أوسترهوف (2023) عادت إلى مخطوط روما المؤرخ 1526، ودراسة أوسا-ريتشاردسون (2024) كشفت كيف صنعت طبعة إيبولار الفرنسية الناجحة نصاً استعمارياً-تحريرياً له تاريخ خاص. لذلك يجب تحقيق فقرة نفوسة من المخطوط أو هذه الترجمة الحديثة قبل أي استنتاج تفصيلي.

4. من أخذ ممن؟ خريطة انتقال المادة

الأسهم التالية تعني «نقل نصي مثبت أو اعتماد مرجح قوي»، لا أن الكتاب اللاحق خالٍ من أي إضافة. أما الخطوط المتقطعة المفهومة من العبارة «تأثر محتمل» فتبقى فرضيات تحتاج إلى مقابلة مخطوطية.

ملاحظة نقدية	مسار الانتقال	الأصل	الخط
صلة التفاصيل الجزئية ليست كلها مثبتة؛ لا تساوٍ بين الخبر المبكر وصيغته المتأخرة.	البكري في خبر الفتح ← ياقوت والحميري	ابن عبد الحكم/أخبار الفتح	طبقة الفتح
وصف شروس والماء والكروم والتين والشعير والخبز شديد التشابه.	الإدريسي ← ياقوت ← الحميري	ابن حوقل	النواة الجغرافية الأولى
البكري يصرح «قال محمد بن يوسف»؛ وهو الدليل الأقوى في السلسلة.	البكري ← الاستبصار؛ والبكري ← ياقوت/الحميري	محمد بن يوسف الورّاق	النواة القيروانية المفقودة
مدخل نفوسة عند ياقوت يلصق كتلتين سابقتين ويورث تصحيف «الأميال».	ياقوت	البكري + ابن حوقل	التركيب المعجمي
يندمج وصف الجبل بوصف شروس وتنتقل الحكايات المذهبية.	الحميري	الإدريسي + ياقوت + الاستبصار	التركيب المتأخر
ليست سلسلة نسخ آلي؛ كل مؤلف يعيد ترتيب شبكة الجماعة ويضيف رواية ومصادر.	الدرجيني والبرادي ← الشماخي	أبو زكرياء ← الوسياني/ البغطوري	السير الإباضية

5. القضايا التي لا تُحسم بجمع الاقتباسات

5.1 شروس أم جادو: أين «أم القرى»؟

يجعل ابن حوقل شروس وجادو مدينتين ذواتي منبر، ويخص جادو بجامع. يجعل الورّاق/البكري شروس أم قرى الجبل، ويصف جادو بالأسواق وكثرة اليهود. ثم يجعل الاستبصار

جادو أم القرى، بينما يدمج الحميري الصفات. لا يجوز اختيار واحدة وإلغاء الباقي؛ الاختلاف قد يعكس تحول المركز عبر الزمن، أو اختلاف شبكات الطريق، أو سقطاً نصياً. الحسم يتطلب تحديد شروس وجادو أثرياً، وتأريخ طبقات العمران والمساجد، ودراسة النسخ.

5.2 «لا جامع» لا تعني «لا مسجد»

يذكر ابن حوقل المنبر والجامع، بينما يقول البكري والاستبصار إن شروس لا جامع بها. في المصطلح الوسيط قد يعني الجامع مسجد الجمعة لا مطلق موضع الصلاة. كما يمكن أن تكون الجماعة الإباضية قد اختلفت في إقامة الجمعة أو الإمام، أو تغير الوضع بين القرن الرابع والخامس. لذلك فصياغة «لم تكن في شروس مساجد» خطأ منهجي ولغوي.

5.3 الأعداد والمسافات

أيام المسير وحدات طريق تتغير بالمسار والحمولة والماء، وليست كيلومترات ثابتة. والأرقام الديموغرافية-ثلاثمائة قرية، ستة عشر ألف مقاتل-قد تكون تقديراً أو تعظيماً أو تكراراً. تستخدم للمقارنة النسبية: كثافة عمران وقدرة تعبئة، لا لإنتاج تعداد سكاني دقيق. كما يجب فصل طول الجبل عن المسافة من مدينة إلى أخرى.

5.4 الهوية المذهبية ولغة الخصم

دلالته النقدية	اللفظ الغالب	المصدر
تسمية مباشرة نسبياً مع وصف سياسي.	إباضية كلهم	اليعقوبي
لغة خارجية تمزج اسم الجماعة بتصنيف الفرق.	شراة، وهبية، إباضية	ابن حوقل/ياقوت
يحتمل خلطاً بين الوهبية والنكارية أو فساد نقل.	خوارج نكّار في موضع	الإدريسي
تشنيع طائفي؛ لا إثنوغرافيا قابلة للتصديق بلا شواهد.	حكايات عن عادات شاذة	الاستبصار/الحميري
لغة داخلية تبني الشرعية والحدود والذاكرة.	أهل الدعوة، الوهبية، أهل الاستقامة	السير الإباضية
يجب ردها إلى مخطوط 1526 وفصل تحرير راموزيو والمترجمين.	صياغة مسيحية/أوروبية عدائية	ليون في الترجمات القديمة

5.5 اليهود في جادو

كثرة اليهود في جادو من أهم أخبار البكري، وانتقلت إلى مصادر لاحقة. لكنها شهادة زمنية مركبة عبر الورّاق، لا وصف دائم لكل العصور، ولا تكفي وحدها لإثبات

نسبة سكانية. ينبغي مقابلتها بالنقوش والقبور والتقاليد المحلية ووثائق الجنيزة ومسارات التجارة. كما يلزم فحص اختلاف ألفاظ النسخ بين «يسكنها يهود كثير» وعبارات أشد تعميماً إن وجدت.

5.6 أسماء المواضع والقبائل

تتبدل شروس/سروس/شاروس، جادو/جادوا، زمور/رمور، تيرفت/تيرقت، وأودرف وغيرها بتبدل النقط والنسخ والترجمات. لا يصح إسقاط الاسم الحديث على القديم بالتشابه الصوتي وحده. المطلوب سجل لكل صيغة، ورسمها في المخطوط، وسياق الطريق، والمسافات، والاسم الأمازيغي المحلي، ثم الدليل الأثري. هذه المهمة أهم من اقتراح تحديدات كثيرة غير قابلة للاختبار.

6. الرحالة: من دخل الجبل فعلاً؟

الرحالة	ما يثبت	الحكم
ابن حوقل	جاب المغرب يقيناً؛ دخول الجبل غير مصرح به صراحة	خبر إقليمي قوي، لا يُسمى «مشاهدة شروس» بلا نص.
التُّجّاني	عاين جنوب إفريقية وطرابلس وغمراسن	شاهد على المجال المجاور وامتداد السلسلة، لا على قرى الجبل الداخلية.
العبدري	مساره حجي ساحلي في الغالب	لا يُعد مصدراً رئيسياً لنفوسة ما لم يقدم موضعٌ محدد من النص.
ابن بطوطة	مرّ بطرابلس في طريق الحج سنة 725هـ/1325م	لا يقدم وصفاً معتبراً للجبل؛ ذكر طرابلس ليس ذكر نفوسة.
ليون الإفريقي	رحالة ودبلوماسي واسع الأسفار	فقرة نفوسة لا تثبت دخوله؛ ربما خبر شخصي أو مخبرون أو مادة كتابية.

الخلاصة أن الرحلة جنس أدبي لا شهادة عيان تلقائياً. المؤلف الرحالة قد ينسخ الكتب، والمؤلف المقيم قد يحفظ خبراً محلياً أفضل. المعيار هو صيغة المتكلم، ومسار الرحلة، وتوقيت المرور، وحدود ما عاينه.

7. الدراسات النقدية الحديثة: ماذا أنجزت؟

قيمته النقدية	العمل	الباحث/السنة
أساسي لتمييز مصادر البكري، ومنها أخبار الفتح والورّاق؛ منهجي لا يختص بنفوسة.	مصادر البكري ومنهجه الجغرافي	عبد الله يوسف الغنيم، 1974

قيمته النقدية	العمل	الباحث/السنة
يدرس تمثيل الإباضية ومواقف البلدانيين؛ مدخل مباشر لنقد اللغة المذهبية.	الإباضية عند الجغرافيين وأصحاب الرحلات	إبراهيم بحّاز، 2003
أقرب دراسة تركيبية للفترة المبكرة، تجمع المصادر الداخلية والخارجية.	جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال	مسعود مزهودي، 2005
يقابل ابن حوقل والبكري والاستبصار بالمساجد والآثار والنقوش في نالوت وكاباو وفرسطاء وشروس وغيرها.	بعض الآثار الإسلامية بجبل نفوسة	محمد سالم المقيد الورفلي، 2007
تضع نفوسة في شبكة الجريد وجربة وورجلان، وتستخدم المصادر السيرية والبلدانية نقدياً.	المغامرة الإباضية في الجنوب التونسي	فيرجيني بريفوست، 2008
تركيب تاريخي للفترة الرستمية والثورات؛ يحتاج مع كل نتيجة إلى ردّها إلى طبقة مصدرها.	التاريخ السياسي والحضاري لجبل نفوسة في القرنين 2-3هـ	عوض الشرقاوي، 2011
يقرأ النص بصفته مختصر إيمان وذاكرة طائفية، لا مجرد مستودع أخبار.	قراءة جديدة لكتاب ابن سلام	سيريل آيبه، 2015
أقوى جسر بين العمارة والتاريخ الديني من القرن 8 إلى 13م؛ ضروري لمسألة الجامع والمنبر.	مساجد جبل نفوسة الإباضية	فيرجيني بريفوست، 2017
تحليل نقدي لسلسلة أبي زكرياء-الوسياني-الدرجيني-البرادي-الشماخي بوصفها شبكة وذاكرة جماعية.	إباضيو شمال إفريقيا: المخطوطات والتعبئة وصناعة التقليد	بول لوف، 2018
يركز على تغير مدلول المجال وحدوده عبر حركة القبيلة والنصوص.	تطور مجال جبل نفوسة في العصر الوسيط	محمد الزواري، 2021
يعيد جمع شذرات الورّاق من البكري وابن عذاري؛ بالغ الأهمية لنسبة مادة شروس زمنياً.	نصوص الورّاق المفقودة	الصادق زياني، 2023
تدرس قيمة الجبل في مدونة السير وكثافة العلماء النفوسيين.	جبل نفوسة وعلماؤه... الشماخي نموذجاً	حنان الطرابلسي، 2025
تحليل حديث لمكانة العلماء النفوسيين ومنهج الترجمة عند الدرجيني.	نفوسة والنفوسيون في طبقات الدرجيني	نادية عيسى المقدمي، 2025
نقد تاريخ طبعات الكوسموغرافيا، وخصوصاً طبعة إيبولار الفرنسية الاستعمارية.	اختفاء ليون الإفريقي	أوسا-ريتشاردسون، 2024

دراسات مساعدة لا غنى عنها

إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي: لتاريخ الأجناس والمصادر والنسخ.

أندريه ميكيل، الجغرافيا البشرية للعالم الإسلامي إلى منتصف القرن الحادي عشر: لفهم آليات الخبر الجغرافي وصورة الإنسان والمجال.

هـ. ر. إدريس، إفريقية الشرقية في العهد الزيري؛ وروبير برنشفيغ، إفريقية الشرقية في العهد الحفصي: لفحص الأحداث السياسية التي تحيط بنفوسة.

جون ديبوا، جبل نفوسة: دراسة جغرافية ميدانية (1935؛ ترجمة تاوالت 2006): لاختبار المسافات والاقتصاد والموارد على جغرافيا فعلية، مع نقد سياقها الاستعماري.

باربرا باريش (تحرير)، Hunters of the Mountain (2024): سياق أثري وبيئي طويل المدى؛ فائدته الأساسية ما قبل التاريخ والبيئة، لا نقد النصوص الوسيطة مباشرة.

8. برنامج بحث نقدي مقترح لجبل نفوسة

إعداد «سينوبسيس» مقابل: يوضع نص ابن حوقل والورّاق/البكري والإدريسي والاستبصار وياقوت والحميري في أعمدة متوازية، وتلوّن العبارات المشتركة والإضافات والتصحيفات.

تصوير مخطوطات المواضع الرئيسة لا الاكتفاء بالطبعات الرقمية، خصوصاً نفوسة وشروس وجادو وتيرفت وأودرف، وتسجيل كل اختلاف في النقط والحركات.

إنشاء معجم طوبونيمي ثلاثي: الرسم العربي الوسيط، الاسم الأمازيغي المحلي بصيغه، والتحديد الأثري بدرجة يقين معلنة.

تحويل أيام المسير إلى نطاقات احتمالية عبر نمذجة طرق القوافل ومصادر الماء والانحدار، لا إلى رقم كيلومتري واحد.

فحص شروس وجادو أثرياً: طبقات الاستيطان، المساجد والمنابر، النقوش، الخزف، المقابر، وحدود السوق؛ فهذا هو الطريق لحسم تغير المركز.

جمع ملف اليهود في جادو من النصوص والآثار والجنيزة والتقاليد المحلية، مع منع إسقاط خبر القرن الرابع على جميع العصور.

فصل طبقات السير الإباضية داخل قاعدة بيانات: صاحب الترجمة، الراوي، المؤلف الأول، أول نسخة باقية، المؤلف الذي أعاد النقل، والموضع.

تحقيق فقرة نفوسة عند ليون الإفريقي من مخطوط روما 1526 ومقارنتها براموزيو 1550 وإيبولار 1956 وبوري 1600 والترجمة الحديثة 2023.

9. الخاتمة

إذا رُتبت المصادر بحسب وفاة مؤلفيها فقط بدا كأن لدينا عشرين شاهداً مستقلاً. أما إذا رُتبت بحسب تاريخ المعلومة ونسب النص، تنكمش الصورة إلى عدد قليل من النوى: اليعقوبي لصورة أواخر القرن الثالث؛ ابن حوقل والورّاق لصورة القرن الرابع؛ البكري حافظاً ومركباً؛ ثم سلسلة طويلة من إعادة الاستعمال. وفي الجانب المحلي تتكون نواة موازية من كتب السير، تبدأ بالذاكرة الإباضية المبكرة وتبلغ ذروتها الجامعة عند الشماخي.

أهمية جبل نفوسة في هذه النصوص ليست واحدة. عند اليعقوبي هو مجال سياسي-لغوي مستقل مرتبط بتاهرت؛ عند ابن حوقل مجال زراعي ومديني إباضي؛ عند الورّاق/البكري عقدة قرى وأسواق وحصون وطريق إلى زويلة؛ عند ابن سعيد ظهير اقتصادي لطرابلس؛ عند ابن خلدون قبيلة ومسرح دولة وحرب؛ وعند كتب السير مركز لإنتاج العلماء وحفظ المذهب. جمع هذه الوظائف دون خلط أزمنتها هو المدخل الصحيح لكتابة تاريخه.

ولا تزال الحاجة قائمة إلى دراسة نقدية شاملة للنصوص نفسها. الدراسات الحالية قوية في أجزاء منفصلة-مصادر البكري، تمثيل الإباضية، الورّاق المفقود، السير والمخطوطات، المساجد والآثار، وليون الإفريقي-لكنها لم تكتمل بعد في «طبعة مقابلة لنصوص نفوسة» تربط العبارة بمصدرها الأول ونسختها ومكانها الأثري. هذا هو المشروع الأكثر إلحاحاً والأكثر قابلية لإنتاج نتائج جديدة.

10. ببليوغرافيا مختارة ومشروحة

10.1 المصادر الأولية

ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق تشارلز توري، ييل، 1922؛ ويُراجع موضع نفوسة وصبراتة في طبعاته العربية. -

ابن سلام: كتاب فيه بدء الإسلام وشرائع الدين، تحقيق فيرنر شفارتس وسالم بن يعقوب، بيروت/فيسبادن، 1986. -

اليعقوبي: كتاب البلدان، ضمن الطبعات العربية والنص المحقق؛ المقطع النفوسي من أوسع نصوص القرن الثالث. -

ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، طبعات محققة متعددة؛ يستخدم للسياق السياسي الرستمي.

ابن حوقل: صورة الأرض، تحقيق ي. هـ. كرامرس، ليدن، 1938–1939؛ وتراجع الصفحات الخاصة بشروس وجادو. –

الورّاق: كتاب مسالك وممالك إفريقية مفقود؛ بقاياه عند البكري وابن عذاري، ويستعان بجمع الصادق زياني. –

البكري: المسالك والممالك، وقسم المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب؛ المقطع يصرح بالنقل عن محمد بن يوسف. –

أبو زكرياء الورجلاني: السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر 1979؛ وطبعة عبد الرحمن أيوب، تونس 1985. –

الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أتمه 548هـ/1154م؛ يراجع الإقليم الثالث، الجزء الثاني. –

الزهري: كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية؛ نسبة خبر نفوسة إليه تحتاج إعادة تحقق من الصفحة والنسخة. –

الوسياني: سير الوسياني، تحقيق عمر بن لقمان بوعصبانة، مسقط، وزارة التراث والثقافة، 2009، 3 مجلدات. –

البغطوري: روايات الأشياخ: أشياخ جبل نفوسة، تحقيق عمر بن لقمان بوعصبانة، بركاء، 2017. –

مجهول مراكشي: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985. –

ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت؛ مدخل نفوسة ومدخل سروس/شروس. –

ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا/بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، تطوان، 1958. –

الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، 1974، جزآن. –

التُّجّاني: رحلة التجاني في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي 706–708هـ، تقديم

حسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1958. –

أبو الفداء: تقويم البلدان، تصحيح رينو ودي سلان، باريس، 1840؛ مادة المغرب تلخيصية في الغالب. –

ابن خلدون: كتاب العبر، قسم أخبار البربر: خبر نفوسة وبطونها وواقعة سنة 606هـ. –

الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، بيروت، 1980. –

الشماخي: كتاب السير، تحقيق أحمد بن سعود السيابي، مسقط، وزارة التراث القومي والثقافة، 1987، مجلدان. –

الحسن الوزان/ليون الإفريقي: The Cosmography and Geography of Africa، ترجمة وتحرير Anthony Ossa-Richardson و2023، Penguin Classics، Richard Oosterhoff؛ من مخطوط 1526. –

10.2 الدراسات الحديثة المباشرة والمنهجية

الغنيم، عبد الله يوسف: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، الكويت: ذات السلاسل، 1974. –

بحّاز، إبراهيم: «الإباضية عند الجغرافيين وأصحاب الرحلات (البلدانيون)»، 2003. –

مزهودي، مسعود: جبل نفوسة منذ انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال، مؤسسة تاوالت، 2005. –

ديبوا، جون: جغرافية جبل نفوسة، ترجمة عبد الله زارو، إعداد موحمد وُمادي، مؤسسة تاوالت، 2006؛ الأصل الميداني 1935. –

المقيد الورفلي، محمد سالم: بعض الآثار الإسلامية بجبل نفوسة في ليبيا، منشورات مصلحة الآثار الليبية، 2007. –

Prévost, Virginie: L’aventure ib□□ite dans le Sud tunisien (VIIIe-XIIIe siè-cle), Helsinki, 2008 –.

الشرقاوي، عوض: التاريخ السياسي والحضاري لجبل نفوسة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، مؤسسة تاوالت، 2011. –

Aillet, Cyrille: "A Breviary of Faith and a Sectarian Memorial: A New Read-
ing of Ibn Sall□m's Kit□b"، ضمن Ibadi Theology، 2015، ص 67-82. -

Prévost, Virginie: Les Mosquées ibadites du Djebel Nafusa: architecture,
histoire et religions du nord-ouest de la Libye (VIIIe-XIIIe siècle)، London،
2017. -

Love, Paul M. Jr.: Ibadi Muslims of North Africa: Manuscripts, Mobilization,
and the Making of a Written Tradition، Cambridge UP، 2018. -

الزواري، محمد: «تطور مجال جبل نفوسة في العصر الوسيط»، ضمن الحدود والمجال
والحركية ببلاد المغرب، تونس، 2021، ص 91 وما بعدها. -

زياني، الصادق: «نصوص جغرافية وتاريخية من كتاب المسالك والممالك المفقود لمحمد
بن يوسف الوراق»، المجلة التاريخية الجزائرية 7/2 (2023): 159-178. -

Ossa-Richardson, Anthony: "The Disappearance of Leo Africanus: Rival
Repertoires of Historical Scholarship in the Mid-Twentieth Century", 2024. -

الطرابلسي، حنان: «جبل نفوسة وعلماؤه في عيون مؤلفي سير الإباضية وطبقاتها:
الشماخي أنموذجاً»، مجلة شروس العلمية، 2025. -

المقدمي، نادية عيسى: «نفوسة والنفوسيون في طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني»،
مجلة شمال إفريقيا للنشر العلمي 3/1 (2025): 66-81. -

Barich, Barbara E. (ed.): Hunters of the Mountain: The Archaeology of Jebel
Gharbi/Nefusa، Rome، 2024؛ للسياق الأثري والبيئي طويل المدى. -

العلاقة التاريخية بين الامازيغية والمذهب الاباضي

عيسى مسعود بغني

ملخص:

تتناول هذه الورقة، العلاقة التاريخية العميقة بين الأمازيغية كلغة، والمذهب الإباضي كاعتقاد ديني، في المنطقة المغاربية عامة وجبل نفوسة على وجه الخصوص، وتُبرز كيف تحوّل هذا التفاعل من مجرد تبنٍّ ديني، إلى إطار حضاري وثقافي، ساهم في تشكيل مجتمعات مستقلة، حافظت على خصوصيتها اللغوية والاجتماعية عبر القرون. تعرض الورقة أوضاع الأمازيغ في القرن الأول الهجري أثناء الفتح العربي لشمال إفريقيا، وتوضح تعامل بعض الولاة الأمويين القائم على التمييز العرقي والجباية وليس تعاليم الإسلام السمحة. كما تناقش ظهور الفكر الإباضي في البصرة وتطوره في بيئة مضطربة سياسيًا، واعتماده على التنظيم العلمي والكتمان بدل المواجهة المسلحة، كما توضح الورقة الدور الذي لعبته الإباضية في الحفاظ على اللغة الأمازيغية، وتحلل ظاهرة تبني العلماء الأمازيغ للغة العربية في التأليف، باعتبارها لغة الحضارة الإسلامية والعلم، مما أدى تدريجيًا إلى ضعف التقاليد الكتابية الأمازيغية واتساع الفجوة بين لغة المجتمع ولغة المعرفة.

الكلمات الافتتاحية: الامازيغية، الاباضية، جبل نفوسة، التعريب، الهوية.

مقدمة

تُعدّ العلاقة بين اللغة الأمازيغية والمذهب الإباضي من أهم الظواهر التاريخية والثقافية في المنطقة المغاربية عامة وجبل نفوسة على وجه الخصوص، إذ ارتبط انتشار الإباضية في شمال إفريقيا ارتباطًا وثيقًا بالمجتمعات الأمازيغية منذ القرون الأولى للإسلام. ولم تكن هذه العلاقة مجرد تبنٍّ ديني عابر، بل شكّلت إطارًا حضاريًا وثقافيًا ساهم في بناء كيانات سياسية ومنارات علمية وأنظمة اجتماعية استمرت آثارها قرونًا طويلة، خاصة بجبل نفوسة في ليبيا وواد ميزاب بالجزائر وجربة بتونس.

شكّلت الإباضية في شمال إفريقيا، أحد العوامل المهمة التي ساعدت على استمرار اللغة الأمازيغية عبر القرون، رغم موجات التعريب والتحولات السياسية والثقافية التي

عرفتها المنطقة. ولم يكن ذلك نتيجة مشروع لغوي منظّم بالمعنى الحديث، بل جاء من طبيعة المجتمع الإباضي نفسه، الذي اعتمد على البنية المحلية والقرى الجبلية والتعليم الأهلي والاستقلال الاجتماعي.

أحوال الامازيغ في القرن الأول الهجري:

دخل الإسلام إلى شمال افريقيا خلال القرن السابع الميلادي، في سياق الفتوحات الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب ثم توقفت الفتوحات عند صبراتة على الساحل الليبي وشروس بجبل نفوسة. الانطباع الاولي للأمازيغ حول الدين الجديد تتقاسمه مجموعتين: الأولى مجموعة الساحل وهي التي اعتادت تبني دين ولغة الوافد من جهة، وان لها خبرة ممارسة الديانات التوحيدية على نطاق واسع مثل اليهودية والنصرانية، فكان الموقف عدم الممانعة، وبسبب ذلك كان استقبال الامازيغ للدين الإسلامي في بداياته من سنة 23 الى 27 للهجرة بلا حروب تذكر. أما القسم الاخر فهم اهل الدواخل، فرغم وصول بعض تلك الديانات الى مدن جبل نفوسة خاصة، ونراه في الحوريات الدوناتية والمعابد اليهودية والكنائس بفرسطا ويفرن ونالوت وجادو، والتي تحولت الى مساجد بعد الإسلام، إلا ان قطاع كبير من المجتمع وثني الديانة متوجس من الوافد تبعا لخبرته السابقة مع الروم والوندال، ولذا رفض ذلك الدين.

في سنة 27 للهجرة ارسل عثمان بن عفان عبدالله بن سعد (اخوه من الرضاعة) على راس جيش من المسلمين لفتح افريقية، فحارب جرجير قائد الروم وهزمه في اسبيطلة، ونتيجة الحرب لم تكن إقامة العدل بل جمع المال كما دونه بن عذاري حيث يقول « وجمعوا من الأموال والذهب والفضة والسبايا الشي الكثير بل ان امير المؤمنين عثمان نفل خمس الخمس لابن سعد مما اوجد سخطا كبيرا بين المسلمين)[10]، وتكرر جمع الأموال والسبي مع غزوة معاوية ابن حديج سنة 45 هـ وعقبة بن نافع الفهري سنة 50 للهجرة، وبذلك تحول الامر من نشر الدين الى جمع الغنائم.

ومن مفارقة التاريخ ان يولى رجل صالح له قيم الإسلام وليس قيم القبلية العروبية السائدة في نهاية عهد معاوية (من 55 الى 62 ه)، وهو ابو المهاجر دينار ليغير صورة الإسلام في المنطقة المغاربية، يقول ابن خلدون « ولما نزل أبو المهاجر تلمسان سنة خمس وخمسين كان كسيلة ابن لزم مرتادا بالمغرب الاقصى في مجموعة من اوربة وغيرهم، فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فاسلم واستنفذه وأحسن اليه وصحبه»[11].

10 - ابن عذاري، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، ص 9.
11 - اغسال: الجزائر في القديم ص 143 نقلا عن كتاب تاريخ الجزائر للشيخ الميلي.

وذلك التصرف من قادة المشارقة بين تبني قيم الإسلام السمحة وبين الشطط في جمع الغنائم، أشكل الفهم على الامازيغ عن طبيعة الإسلام، وجعلهم يرتدون عن الدين عشرات المرات، فكلما تولى ولي جائر رفضوا حكم العرب ورفضوا الدين معه لأنهم لا يفرقون بين الدين وتصرف الاستبداد المشرقي، ويرجع ذلك ان الكثير من المجموعات الامازيغية قديما وحديثا لا تعتبر الدين جزء من الهوية القومية، بل هو جزء من الوافد الغازي.

لقد عبر اركون[12] عن هذا التقلب بين قبول الإسلام والردة حيث قال» كان البربر أولاً يظنون ان هذا الدين الة بيد العرب يخضعون به الأمم لسلطانهم... فكانوا إذا ثاروا على العرب ثاروا سياسيا ودينيا. وفي خلافة عمر بن عبد العزيز (في نهاية القرن الأول الهجري)... ادركوا انه أداة سعادة للبشر ... وليس من تلازم بين العرب والإسلام» ويمكن تشخيص جنوح الولاة الامويين في أمور ثلاث: تمييز قبلي عروبي وإظهار الفوقية العرقية امام الامازيغ، والاستمرار في فرض الاتاوات والضرائب والسبي وجمع الأموال بالباطل، والاقصاء السياسي والعسكري لأهل البلد مع تمسك الولاة بتقاسم السلطة والغنائم بين قبيلتي قيس ومضر العربيتين، ويستثنى من ذلك ولاية عمر بن عبدالعزيز التي دامت لسنوات قليلة[13].

أحوال الفكر الاباضي في القرن الأول الهجري:

كقراءة تاريخية، فإن وضع الإباضية في البصرة زمن الحجاج بن يوسف الثقفي في الفترة من 694-714م (75-95ه) كان معقدًا وحساسًا جدًا، لأن تلك المرحلة قد شهدت بدايات تشكل المذهب الإباضي، وهي كذلك زمن صعود الدولة الأموية العروبية القوي. رافق ذلك محاربة الحركات المعارضة للامويين في العراق، مثل الازارقة والصفرية والنجدات، وفرق الشيعة والمعتزلة والاباضية. في هذا الوسط تشكل التيار الإباضي المبكر بقيادة عبد الله بن إباض ثم أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، مستندين الى فقه الامام جابر بن زيد.

عملت الدولة الاموية على قمع خصومها منذ تولي معاوية الحكم، ووصل ذروته في

12 - محمد اركون: رهانات المثاقفة بالمغرب الكبير بعد الاستقلال. مقاربة تاريخية وانتروبولوجية.
13 - شهدت شمال إفريقيا في عهد عمر بن عبد العزيز 99-101هـ (717-720م) تحولًا مهمًا مقارنة بالفترة الأموية السابقة، وقد ترك أثرًا سياسيًا ودينيًا واجتماعيًا عميقًا، خصوصًا في علاقة الدولة بالأمازيغ.. ومن هذه إيقاف الجزية عن المسلمين، والمساواة والتخفيف من الطغيان العرقي للامراء . ونشر الإسلام بدل الجباية السابقة.

عهد الحجاج، حيث سجن امام الاباضية ابوعبيدة واذاقه الامويين سوء العذاب[14]، لكن الاباضية استطاعت ان تنجوا من ذلك الهلاك بعدة طرق منها انها لم تتبنَّ العنف المفتوح مثل الأزارقة او النجدات، ولم تكفّر عموم المسلمين بنفس الحدة، واعتمدت "الكتمان" والتنظيم السري، مما جعل دعاة الاباضية يمارسون نشاطهم العلمي والدعوي بهدوء، بعيدا عن المواجهة العسكرية المباشرة مع الدولة الاموية، مما وفر لها تكوين فكر ناضج، يساعد عند المناظرة، وإعداد دعاة، مع الحفاظ على المذهب من التصفية الجسدية.

الا ان حضور الاباضية مع الخوارج في معركة النهروان وهيمنة ثقافة الرواية على الكتابة جعل معظم كتاب الملل والنحل يعتبرون الاباضية من الخوارج حتى بعد زوال تلك الفرق، يقول محمود إسماعيل « لكن الذي نؤكده ان الازارقة قُضي عليهم نهائيا بعد قتل قائدهما قطرى بن الفجاءة وعبيد بن هلال سنة 696م (77 ه) على يد المهلب بن صفرة... اما النجدات فقد فتك عمر بن عبيد الله بن معمر قائد عبد الملك بن مروان بزعيمهم ابي فديك سنة 692م (72ه) وقتل معه ستة الاف من أصحابه بالبحرين فتضاءل شانهم بعد ذلك»[15] .

لقد كان لقمع الحجاج للإباضية تأثيرا إيجابيا، منها التوسع في شبكة التعليم للعقائد الاباضية سراً، والتفكير في ارسال دعاة الى المناطق البعيدة عن مركز الدولة الاموية، أي الى شمال افريقيا وعُمان، وأصبح ذلك ضروريا بعد ان حوصروا في البصرة وفي أماكن سرية محددة. والجدير بالذكر ان تهميش ومحاربة الفكر الاباضي في المشرق (رغم انه فكر يستقي اصوله من القرآن الكريم والسنة النبوية وله باع كبير في المسائل العقدية) كان بسبب الأفكار الثورية التحررية التي تبناها، ومنها جواز الخروج عن الحاكم الجائر وعدم اعتماد القريشية كشرط للإمامة، اضافة إلى عدم وجود غطاء قبلي لتلك الفئة، والتي جعلت الفكر ورجاله من أعداء الدولة الاموية ومن الأقلية المهمشة في المشرق.

تمذهب الامازيغ بالإباضية:

ربما الأكثر استبدادا وقهرا لشمال إفريقيا كان في عهد هشام بن عبد الملك 724-743م (105-125هـ) ، وهي مرحلة حاسمة وخطيرة في تاريخ المغرب الإسلامي، لأنها كانت الفترة التي تراكمت فيها التوترات السياسية والاجتماعية والدينية التي انتهت

14 - ابي زكريا يحي بن بكر، كتاب سير الائمة وأخبارهم ص 15

15 - محمود إسماعيل عبدالرزاق، الخوارج في بلاد المغرب، ص 44.

بالقطيعة مع المشرق وبداية تكوين دول محلية. من تلك المثالب عودة الضرائب الثقيلة والتميز الاداري المجحف بين العرب والامازيغ (رغم دخولهم للإسلام) ووصفهم بالموالي تارة وبالمؤلفة قلوبهم تارة اخرى. فكانت دولة ميسرة المظغري في المغرب، وبدايات الدول المحلية في ليبيا، والرستمية في الجزائر الحالية.

رغم الاختلاف في زمن بداية انتشار المذهب الاباضي في شمال افريقيا بين سنة 78 ه عندما قام الحجاج بحملة على معارضيه ومنهم الاباضية والصفرية ورحيل بعضهم لشمال افريقيا، أو رواية عبد الرحمن بن رستم: ان اول وصول للفكر الاباضي الى القيروان كان على يد سلامة بن سعد[16] في بداية القرن الثاني للهجرة مع الداعي الصفري عكرمة مولى بن عباس. ولأسباب كثيرة كان قبول تعاليم المذهب الاباضي جيدة من قطاع كبير من المسلمين حتى كان بعد سنوات قليلة افرزت قيادات لها ثلاث محاولات لتكوين دول اباضية في طرابلس منهم عبد الله بن مسعود التجيبي الهواري الذي قتل سنة 743 م (126 هـ)، ثم ال الحكم من بعده الى عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي، ثم إسماعيل بن زياد النفوسي من 132 الى 140ه. وعمل ذلك على نشر الاباضية في قبائل هوارة وزناتة ونفوسة[17] بالغرب الليبي، مما ساعد على تكوين دولة اباضية راسخة في شمال افريقيا بقيادة أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ومن معه من حملة العلم الخمسة بعد عودتهم من البصرة وكان اجتماعهم للإمامة في صياد غرب طرابلس سنة 757 م.

هذا اللقاء بين الإباضية والامازيغ تدفعه عدة عوامل تاريخية من الطرفين، فمن حيث الاباضية هو تعويض الفشل في تأسيس دولة بالمشرق عدا دولة عمان وهي متزامنة مع الدعوة في شمال افريقيا، كما ان أئمة الاباضية في البصرة اتجهوا الى شعوب تمقت الامويين الذين هم اعدائهم في المشرق، يقول المزهودي « انهم كانوا على دراية وافية بتدمر البربر من عمال بني امية فأرسلوا دعاتهم الى هذه المنطقة لإثارتهم وبث مبادئهم السياسية وتعاليمهم الدينية بينهم»[18].

من الأمور التي سارعت في تقبل الامازيغ للمذهب الاباضي انه يرتكز على مفاهيم القرآن الكريم وليس الفوقية القبلية او العرق او اللغة (كما تعاملوا معه في العصر الاموي لقرابة قرن من الزمان)، فالشورى عند الاباضية تحتم اختيار الامام وإمكانية عزله،

16 - بحسب أغلب المصادر الإباضية والتاريخية، فإن سلمة بن سعد الحضرمي وصل إلى القيروان وإفريقية في بداية القرن الثاني الهجري، أي تقريبًا بين 100هـ - 110هـ الموافق تقريبًا 718م - 728م.

17 - تادايوش ليفيتسكي ، دراسات شمال افريقيا ، الجزء الثاني، منشورات مؤسسة تالت الثقافية ص 12.

18 - مسعود المزهودي، جبل نفوسة في العصر الإسلامي الوسيط، دار الضامري عمان .2010

والشورى بين اهل الحل والعقد هي المرجع، وهذا أقرب الى المجالس الاباضية التي خرج منها نظام العزابة لاحقا. كما ان دعاة الاباضية الأوائل لم يمتشقوا السيوف بل عملوا على نشر التعليم الديني وتعاليم المذهب في حلقات العلم. وساعد على ذلك الجغرافيا الطبيعية التي تتميز بشكل واحات شمال افريقيا المنعزلة والبعيدة عن سلطة المركز مثل مدن جبل نفوسة وزوارة وجربة والمزاب ونفزاوة وغدامس وسوكنه.

وخلال سنوات قليلة تم امزغة المذهب الاباضي بثقافة محلية انتجت علماء وفقها ورجال القضاء، وقد تجلّت قوة التحالف التاريخي بين الأمازيغ والإباضية في قيام الدولة الرستمية سنة 776م في مدينة تيهرت بقيادة الإمام عبد الرحمن بن رستم. ورغم أن ابن رستم كان ذا أصول فارسية، فإن الدولة الرستمية اعتمدت بشكل كبير على القبائل الأمازيغية التي شكّلت عمودها السياسي والعسكري والاجتماعي. وقد أصبحت تيهرت مركزًا علميًا وتجاريًا مهمًا، واستقطبت العلماء والتجار من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، كما عُرفت بدرجة من التسامح الديني والتنوع الثقافي، إضافة الى ان طرق التجارة المفتوحة بين جبل نفوسة والمدن الافريقية جنوب الصحراء ساهم في نشر الاباضية في تمبكتو وغاو واغاديس وشمال السودان حتى زنجبار بشرق افريقيا.

لسان المجتمعات الامازيغية الاباضية:

إن دراسة العلاقة بين الأمازيغية والمذهب الإباضي تساعد على فهم جانب مهم من تاريخ ليبيا والمنطقة المغاربية، خاصة أن تلازم الاباضية للأمازيغ لم ينقطع منذ القرون الأولى للإسلام، ولقد انتشرت الإباضية بين المدن الأمازيغية بلغاتها الأصلية، فكان الدعاة والعلماء يخاطبون الناس بلغتهم اليومية، وبقيت العربية لغة القرآن والفقه والتأليف الديني، واستمرت اللغة الأمازيغية كلغة المجتمع والحياة والتعليم الشفهي. وهنا ظهر نوع من الازدواجية اللغوية: العربية للعلوم الشرعية، والأمازيغية للحياة الاجتماعية والثقافة المحلية، ولقد ساعدت عدة عوامل على حماية الأمازيغية من الاندثار منها:

أولا: العزلة الجغرافية النسبيّة للتجمعات الامازيغية:

الواضح ان التجمعات السكانية الامازيغية كان أغلبها في مناطق جبلية أو صحراوية منذ غزو الوندال لشمال افريقيا مثل جبل نفوسة ومطماطة وجبال الاطلس والمزاب وسوكنة واوجلة وغات، والتي هي بعيدة عن مراكز السلطة بالساحل (التي تجنح كثيرا الى ترسيخ لغة الوافد).

ثانيًا: نظام اهل الحل والعقد:

أهل الحل والعقد نظام يعتمد على تولي عالية القوم وحكماء المجتمع مهام التنظيم الداخلي للمجتمع، ويعتقد انه موجود قبل الإسلام كطبيعة بشرية، واستمر حضوره في القرون الهجرية الثلاث الأولى ثم تبلور على شكل نظام العزابة على يد الشيخ محمد بن بوبكر، وهو نظام اجتماعي حقوقي وتعليمي إباضي، حافظ على استقلال المجتمع المحلي بعد سقوط الدولة الرستمية. فقد كانت القرية الإباضية تُدار ذاتيًا عبر العلماء والأعيان، مما سمح باستمرار العادات والتقاليد بصبغة اللغة الامازيغية المحلية داخل الحياة اليومية.

ثالثًا: قوة البنية الأسرية للمجتمع الامازيغي الاباضي:

المجتمعات الإباضية الأمازيغية كانت ولازالت شديدة الترابط، فالزواج والتعليم والحياة الاقتصادية كلها تتم داخل البيئة اللغوية الواحدة، مما ساعد على تواصل الأمازيغية عبر الأجيال.

رابعًا: غياب سياسة دينية تفرض التعريب الكامل:

الإباضية تاريخيًا لم تربط الإيمان بالانتماء العرقي أو باللغة العربية كلغة قومية، بل اعتبرت العربية لغة الدين والفقه، دون السعي إلى محو اللغات المحلية. لذلك بقي الأمازيغ الإباضيون أمازيغًا في ثقافتهم ولسانهم، ومسلمين إباضيين في عقيدتهم، وهي نفسها عوامل قبول وتفضيل المذهب الاباضي عند الامازيغ، أي لا يشترط الامامة في قريش ولا في سقوط خطبة الجمعة عند عدم القائها بالعربية كما في المذاهب الأخرى.

في حين ان المدن الكبرى على الساحل خضعت كثيرا للتعريب الذاتي منذ الفتح الإسلامي منها: اعتبار العربية كلغة المكانة الاجتماعية والعلم، وفرص الوصول الى السلطة او المكانة العالية في الامارة، فالشاعر بالعربية ورجل الدين له الحظوة أكثر من غيره عند السلطان، وهذا جعل التعليم منصبا على العربية وعلومها واوهن تدوين الامازيغية كثيرا. وقد أدى ذلك إلى مفارقة تاريخية مهمة: ان الإباضية حافظت على الوجود الأمازيغي الاجتماعي، لكنها في الوقت نفسه ساهمت (بشكل غير مباشر) في ترسيخ العربية كلغة علم ودين، فمعظم العلماء الإباضين ألّفوا بالعربية، وأصبحت العربية لغة الفقه والقضاء والمراسلات، بينما بقيت الأمازيغية محصورة في التداول الشفهي.

تبني العلماء الامازيغ للغة العربية:

تُعدّ مسألة تماهي الكثير من العلماء الأمازيغ مع اللغة العربية، وعدم تطوير تقاليد واسعة للكتابة بالأمازيغية، من أكثر القضايا تعقيدًا في تاريخ شمال إفريقيا الثقافي، فالمفارقة التاريخية ان عددا كبيراً من كبار علماء المغرب الإسلامي كانوا أمازيغً عرقيا، لكن إنتاجهم الفكري والعلمي كُتب بالعربية، حتى في المناطق التي بقيت أمازيغية اللسان لقرون طويلة مثل جبل نفوسة والسوس ووادي ميزاب وجربة والاطلس، بل ان انتاجهم الغزير كان معظمه في العقائد واحكام الشريعة، والقليل في السير والاقل من ذلك في الصنائع والفنون والعمران. لفهم هذه الظاهرة يجب النظر إليها ضمن سياقها التاريخي، لا بمنطق العصر الحديث، ومن أسباب تراجع الامازيغية ما يأتي.

أولًا: أن العربية بعد الإسلام لم تكن مجرد لغة الدين، بل أصبحت لغة العلم والإدارة والحضارة في دول المشرق الإسلامي، فمن أراد دراسة الفقه أو التفسير أو الحديث أو الفلسفة أو الطب، كان مضطرًا إلى استعمال العربية، تمامًا كما أصبحت اللاتينية في أوروبا الوسيطة لغة الكنيسة والعلم، ولذلك رأى كثير من العلماء الأمازيغ أن الكتابة بالعربية تمنحهم انتشارًا أوسع ومكانة علمية أكبر.

ثانيًا: لم تكن اللغة الأمازيغية في أغلب المناطق الداخلية لغة تدوين مؤسسية، فمعظم الثقافة الأمازيغية قبل الإسلام كانت شفهية، مثل القصص والحكايات الشعبية والشعر والأمثال والفن الشعبي والأغاني، في حين ان الساحل تلون كالعادة بلغة الوافد من اغريق وفينيقيين ورومان واندمج معها وأنتج معارفه بها. وعندما احتاجت العلوم الدينية إلى لغة مكتوبة ذات مصطلحات دينية مستقرة بعد قرن من وصول الإسلام الى شمال افريقيا، كانت العربية جاهزة لهذا الدور، ولذا تبنى معظم علماء الامازيغ العربية في كتباتهم.

ثالثًا: ان غياب وجود كتاب منزل او رسول مرسل قد ساهم في تعطيل تشكل لغة معيارية امازيغية، كما أن تباعد تلك المدن عن بعضها أحدث مشكلة تواصل ثقافي/لغوي جعلت النحت العضوي للأسماء والكلمات يتفرع كثيرا ضمن قواعد لغوية موحدة، وهو ما اوجد لهجات لا حصر لها، ولقد عبر عنها البغطوري بقوله (لا يكون الكلام بينهم في المجلس الا بترجمان)[19].

رابعا: بالمقابل يرى الكثير من العلماء الأمازيغ انه لا تناقضً بين أمازيغيتهم

19 - مقر بن محمد البغطوري، سير مشائخ نفوسة ص 31.

واستعمالهم للعربية، فالهوية في تلك العصور لم تكن تُبنى أساسًا على اللغة كما هو الحال في الفكر القومي العروبي الحديث، بل على الدين والانتماء المحلي والمذهبي، ولذلك يمكن لعالم أمازيغي أن يعتز بأصله وقبيلته، لكنه يكتب بالعربية دون شعور بأنه يتخلى عن ثقافته أو إنتمائه العرقي.

مع ذلك، فإن هذا التماهي اللغوي كان له ثمن تاريخي كبير: إذ أدى تدريجيًا إلى ضعف التقاليد الكتابية الأمازيغية، وخلق فجوة بين "لغة العلم" و"لغة المجتمع". فأصبح المثقف أو الفقيه يرتقي اجتماعيًا كلما اقترب من العربية، بينما بقيت الأمازيغية مرتبطة بالحياة اليومية والرواية الشفاهية. وفي بعض الحالات، تحوّل هذا الوضع إلى نوع من الاستعلاء الثقافي غير المقصود، حيث اعتبر بعض العلماء أن العربية لغة "التمدن" والعلم، بينما الأمازيغية مجرد لهجات محلية لا تصلح للتأليف. وهذا التصور ساهم مع الزمن في تسريع التعريب اللغوي والثقافي.

خامسا: مع وصول هجرات بني سليم وبني هلال الى شمال افريقيا وانتشار المذهب الشيعي في المغرب الأوسط بعد سقوط الدولة الرستمية وقرار المعز بن باديس حاكم الدولة الزيرية بالتحول الى المذهب المالكي نكاية في الدولة الفاطمية، ثم تبني الموحدين والمرابطين للمذهب المالكي، عمل كل ذلك على انحسار المذهب الاباضي وتحول الكثير من المدن في شمال افريقيا الى المذهب المالكي الذي يكرس العروبة بربط المتعلمين منهم بتراث المالكية وثوابتها مثل اقرار امامة القريشي (الأفضل) وافضلية العرب على غيرهم وأن العربية لغة اهل الجنة. كل ذلك ساعد على تسارع تعريب اللسان في المناطق التي تركت الاباضية واتخذت المذهب المالكي كمرجعية لها.

تأثير الاباضية على التنوع الثقافي:

إن تبني اللغة العربية كلغة العلم والثقافة من العلماء الاباضية بالمدن الامازيغية منذ القرن الثاني للهجرة، وطرح بن خلدون لنسب البربر الى قبائل اليمن العربية، اوجد وضعا ناكرا للذات الامازيغية بعد ظهور الدولة القومية والوطنية، وأصبح تبني الدين بما يحتويه من العربية ركن أساسي من هوية شمال افريقيا خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، ولم يكن مستساغا الخروج من هذا الإطار وهو ما ساعد أكثر على التعريب مع نشاط حركة التأليف والطباعة. ويظهر ذلك جليا في مقولة زعيم الإصلاحيين الجزائريين الشيخ بن باديس الى ترديد قوله « شعب الجزائر مسلم ... والى العروبة ينتسب»[20] . وعلق على ذلك محمد الصغير ضيف في كتابه

20 - محمد علي دبوز تاريخ المغرب الكبير الجزء الأول ص 31.

الإسلام الامازيغي (ان زعيم الإصلاح في الجزائر يهدم كل رابط موجود بين الاقانيم الثلاث: الأرض والدين واللغة وكذا الانسان)[21]. الا ان التطور الفكري للهوية الوطنية (الذي نتبناه) يبتعد عن الطرح السابق بجعل الجغرافيا والتاريخ المشترك هما أسس الهوية الوطنية، وبعيدا عن اللغة والدين اللذان عملا على تشظي المجتمعات المغاربية بتهميش الثقافات المحلية، من لغة ودين وعادات وتقاليد[22].

ان هكذا تصريح من الشيخ بن باديس، قد عرقل جهود النشطاء الامازيغ مثل علي الحمامي[23] أبرز المطالبين بالهوية المغاربية الامازيغية في ثلاثينات القرن الماضي، وساعد على اعتلاء حكم الدولة الوطنية (بعد تصفية الاستعمار) الكثير من العسكر العروبيين في ليبيا وتونس والجزائر بل تماهى حتى النظام الملكي لسنوات مع النهج العروبي.

وهكذا فان المشكلة الأساسية كانت في غياب مشروع ثقافي أمازيغي مغاربي مكتوب يكون من روافده الخصوصيات اللغوية والثقافية ومنها التمذهب الاباضي لبعض اجزائه، ومن زاوية تاريخية، يمكن القول إن العلماء الأمازيغ الإباضين ساهموا في بناء الحضارة العربية الإسلامية، لكنهم لم يبنوا بالقدر نفسه مؤسسة معرفية باللغة الأمازيغية. وهذا ما جعل كثيرًا من التراث الأمازيغي يظل شفهيًا أو يضيع مع الزمن.

21 - محمد الصغير ضيف، الإسلام الامازيغي، ص 113، الناشر دار نزهة الالباب.

22 - عيسى مسعود بغني، إشكاليات الهوية الليبية، الناشر المركز الليبي للثقافة الامازيغية.

23 - 53-ASJP, Volume 15, Numéro 1, Pages 11 (علي الحمامي بين القومية المغاربية والجامعة الإسلامية من خلال «إدريس» رواية شمال إفريقيا)

الوقف الجربي في مصر ووظائفه التنموية

قراءة تحليلية نقدية في كتاب[24]
الدكتور أحمد مصلح
عن وكالة الجاموس

ملخص

يتناول هذا التقرير كتاب «الوقف الجربي في مصر ودوره في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجريين (وكالة الجاموس نموذجاً)» لأحمد بن مهني بن سعيد مصلح، بوصفه دراسة تجمع بين تاريخ الوقف، وتاريخ جماعات المهاجرين المغاربة في القاهرة، وتاريخ تداول المعرفة الإباضية. ينطلق التقرير من قراءة بنية الكتاب ومصادره، ثم يعيد تركيب أطروحته المركزية: لم تكن وكالة الجاموس دار إقامة عابرة لأبناء جزيرة جربة، بل مؤسسة متعددة الوظائف جمعت السكن والتعليم والعبادة والتكافل والنشاط التجاري وحفظ الكتب ونسخها ونشرها. وتتمثل أهم إضافة للكتاب في إخراج هذه المؤسسة من الذاكرة الشفوية إلى مجال الإثبات الوثائقي، ولا سيما من خلال حجة الوقف وسجلات المحاكم الشرعية ورسائل العلماء وتقييدات المخطوطات وشهادات آخر المقيمين. كما يكشف الكتاب عن شبكة بشرية واقتصادية امتدت بين جربة وجبل نفوسة ووادي مزاب والقاهرة، واتصلت بعُمان وزنجبار، وأسهمت في حركة الزيت والجلود والبن والحبوب والنسيج والعقار والكتاب. ويبيّن التقرير، مع ذلك، أن القيمة الوثائقية لا تعفي الكتاب من مشكلات منهجية، منها اضطراب بعض المقابلات بين التواريخ الهجرية والميلادية، وتفاوت مستوى نقد المصادر، والانتقال أحياناً من قرائن جزئية إلى أحكام واسعة عن «التنمية»، وغياب سلاسل كمية منتظمة للإيرادات والنفقات. وينتهي التقرير إلى أن الكتاب يمثل عملاً تأسيسياً لا خاتمة للموضوع؛ إذ يتيح بناء برنامج بحث جديد يعتمد الرقمنة، والتحقيق

24 -عنوان الكتاب وأصله رسالة ماجستير نوقشت سنة 1427هـ/2006م بعنوان الوقف الجربي في مصر ودوره في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجريين (وكالة الجاموس نموذجاً) لمؤلفه الدكتور أحمد بن مهني بن سعيد مصلح.

الدبلوماسي للوثائق، والتحليل الشبكي للأعلام، والفهرسة المادية للمخطوطات، والمقارنة بين أوقاف جماعات المهاجرين في حوض البحر المتوسط.

الكلمات المفتاحية: الوقف الجربي؛ وكالة الجاموس؛ جربة؛ جبل نفوسة؛ الإباضية؛ القاهرة العثمانية؛ أوقاف المهاجرين؛ تاريخ اجتماعي؛ تاريخ اقتصادي؛ المخطوطات؛ رواق المغاربة؛ شبكات المعرفة.

1. مقدمة موجزة: من تاريخ المؤسسة إلى تاريخ الشبكة

تتخذ الدراسات الحديثة للوقف مسارين متكاملين: أولهما يقرأ الوقف مؤسسة قانونية تضبط علاقة المال بالغرض الخيري، وثانيهما يقرأه بنية اجتماعية تنتج المكان والهوية وشبكات الثقة وتوزيع الموارد. يقع كتاب أحمد بن مهني بن سعيد مصلح عند نقطة التقاء هذين المسارين؛ فهو يبدأ من وكالة محددة في حي طولون بالقاهرة، ثم يتابع ما انبثق عنها من أدوار في الإقامة والتعليم والتجارة والنسخ والطباعة والرعاية الاجتماعية. ومن ثم فإن موضوعه الحقيقي أوسع من المبنى نفسه: إنه تاريخ جماعة مهاجرة صاغت لنفسها بنية وسيطة بين موطن الأصل ومدينة الاستقبال، وبين الانتماء المذهبي والانخراط في المجتمع القاهري. وتلك الزاوية هي التي تمنح الكتاب أهميته في تاريخ الوقف وفي تاريخ المغاربة بمصر معاً.[25]

لا يقدّم الكتاب وكالة الجاموس باعتبارها مؤسسة ساكنة أو معزولة، بل يضعها داخل حركة طويلة تبدأ بهجرة أفراد من جربة إلى مصر طلباً للعلم أو الرزق أو الحج أو الملاذ، ثم تتبلور في وقف عقاري ذي شروط معلومة، قبل أن تتوسع وظائفه وتتغير هيئاته وتنكمش موارده إلى أن ينتهي حضوره المادي في منتصف القرن العشرين. وقد صاغ المؤلف أسئلته حول أصل الوكالة، ومؤسسيها، وموضعها، وطريقة إدارتها، وعلاقتها بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وأسباب تراجعها وإمكان إحيائها. هذه الأسئلة تجعل الكتاب قريباً من «السيرة المؤسسية» التي تجمع بين لحظة التأسيس، ودورة الحياة، والتحولات والذاكرة اللاحقة.[26]

ويهدف هذا التقرير إلى أداء ثلاث وظائف مترابطة. الأولى وصف محتويات الكتاب

25 - أحمد بن مهني بن سعيد مصلح، الوقف الجربي في مصر ودوره في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجريين (وكالة الجاموس نموذجاً)، الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، ط1، 1433هـ/2012م، ولا سيما ص 9-31.

26 - مصلح، الوقف الجربي في مصر، ص 11-16، حيث صاغ المؤلف المشكلة والفرضية وحدود البحث المكانية والزمانية.

وصفاً تحليلياً يحفظ تماسك حجته ولا يختزله في فهرس موضوعات. والثانية تحديد المعلومات الجديدة فيه بحسب درجة توثيقها وأثرها في المعرفة القائمة. والثالثة تقويم بنيته المنهجية واقتراح ما يلزم لتحويل مادته إلى برنامج بحث قابل للتراكم. ولذلك يُميّز التقرير بين ثلاثة مستويات من الخطاب: نص الوثيقة أو السجل؛ استنتاج المؤلف المباشر من النص؛ والتفسير الأوسع الذي يربط الوقائع بمفهوم التنمية أو بدور الجالية. هذا التمييز ضروري لأن قوة الكتاب الكبرى تكمن في مادته الأولية، بينما تختلف قوة استنتاجاته باختلاف قربها من تلك المادة.

2. بنية الكتاب ومادته المصدرية

2.1 من الرسالة الجامعية إلى الكتاب

الكتاب أصله رسالة ماجستير نوقشت في كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية ببيروت سنة 1427هـ/2006م، ويحتفظ النص بسمات الرسالة الجامعية: مقدمة مطولة نسبياً، وفصول تتدرج من التأصيل الفقهي إلى الدراسة التاريخية، ومراجعة للدراسات السابقة، وتعريف بالمناهج والحدود، ثم خاتمة وملاحق ووثائق وفهارس للمصادر. وقد أفاد النشر من إخراج المادة إلى جمهور أوسع، لكنه أبقى كذلك بعض آثار الانتقال من الرسالة إلى الكتاب، مثل تكرار بعض القضايا، وكثرة المقدمات العامة، وعدم توحيد بعض التواريخ والإحالات.[27]

يغطي العنوان أربعة قرون هجرية، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، غير أن المادة لا تتوزع بالتساوي على هذه المدة. فالقرن العاشر يمثل في الغالب خلفية للهجرة الجربية واتصال الطلبة بمصر قبل تشكل الوقف الرسمي، بينما تتركز الوثيقة المؤسسة والمعطيات الغنية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وما بعدهما. أما القرن الرابع عشر الهجري فيحضر خصوصاً من خلال الطباعة والصحافة، وشهادات المقيمين، وتدهور المبنى، وتدخل الإدارة الرسمية. ومن ثم فالأدق قراءة المدة بوصفها «تاريخاً سابقاً للمؤسسة ثم تاريخاً للمؤسسة ثم تاريخاً لتفككها»، لا خطاً زمنياً متجانساً.

2.2 خريطة الفصول

تُظهر الخريطة كما سوف نرى أن الثقل التوثيقي يقع في الفصل الثاني وما يتصل به من ملاحق، في حين يتوزع التأويل الوظيفي على الفصلين الثالث والرابع، ويأتي الفصل

27 - المرجع نفسه، التصدير ص 6-7، والمقدمة ص 9؛ وقد نوقشت الرسالة في كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية ببيروت سنة 1427هـ/2006م.

الخامس ليحوّل التاريخ إلى تقويم واقتراح. وهذه البنية موفقة من حيث الانتقال من التعريف إلى الوصف فالتفسير، لكنها تؤدي أحياناً إلى تكرار المعلومة الواحدة في أكثر من موضع: فاسم الناظر أو العالم قد يرد في تاريخ التطور، ثم في النشاط الاجتماعي، ثم في النشاط الثقافي، ثم في قوائم الملحق. كان من الممكن تلافي ذلك بجدول زمني موحد أو قاعدة تراجم تُحال إليها المناقشة.

الإضافة الرئيسة	المضمون	ص	قسم
تحويل الوقف الجربي من ذكر متفرق إلى موضوع بحث مستقل	المشكلة والفرضية والحدود والمنهج ومراجعة المصادر والدراسات السابقة	9-31	المقدمة
تأصيل فقهي واجتماعي لفكرة الوقف الجماعي العابر للأقاليم	الوقف في الإسلام وعند الإباضية والجربيين	33-48	الأول
تعيين المؤسسين والأسماء والموقع والبنية وشروط الانتفاع والإدارة	نشأة وكالة الجاموس وتطورها وتحليل حجة الوقف	49-90	الثاني
ربط السكن والتعليم والتكافل بتجارة الزيت والجلود والبن والحبوب والنسيج والعقار والنسخ	الأدوار الاجتماعية والاقتصادية	91-126	الثالث
إعادة بناء حلقات الدرس والمكتبة والتأليف والطباعة والصلة بالأزهر ورواق المغاربة	الأدوار الثقافية	127-170	الرابع
تحليل عوامل القوة والضعف واقتراح الاستبدال وإعادة التوظيف	التقويم وأسباب التراجع وإمكانات الإحياء	171-201	الخامس
تحويل الملحق إلى أرشيف أولي قابل للتحقيق والتوسيع	نتائج ووثائق ورسائل وقوائم نظار وواقفين وناسخين	202-231	الخاتمة والملاحق

2.3 طبقات المصادر

جمع المؤلف طيفاً واسعاً من المصادر: كتب الفقه الإباضي والفقه المقارن، وتواريخ جربة والمغرب ومصر، وسجلات المحاكم الشرعية، وحجة الوقف المحفوظة ضمن سجل محكمة طولون الشرعية، ومخطوطات سالم بن يعقوب ودفاتره المتعلقة بالأسر الجربية في القاهرة، ورسائل علماء الوكالة، وقيود الوقف والتملك والنسخ المثبتة على الكتب، إلى جانب المقابلات الشفوية مع من أدركوا الطور الأخير للمؤسسة. كما استعان بدراسات عبد الرحيم عبد الرحمن عن المغاربة في مصر العثمانية وبأعمال تاريخ الوقف والوكالات والأسواق. هذا التنوع مكّن المؤلف من وصل التاريخ القانوني بالتاريخ الاجتماعي، ومن قراءة الأسماء والألقاب والمهن والحدود المكانية بوصفها بيانات تاريخية لا مجرد تفاصيل عرضية.[28]

28 - المرجع نفسه، ص 17-31، في عرض المصادر والدراسات السابقة، وانظر قائمة المخطوطات والمراجع ص 233-251.

تتفاوت هذه المصادر في طبيعتها وحجيتها. فحجة الوقف نص قانوني يثبت صيغة التخصيص وشروط الإدارة والانتفاع وحدود العقار في لحظة معينة، لكنه لا يثبت وحده تنفيذ كل شرط في جميع الأزمنة. وسجلات المحاكم تكشف التصرفات والنزاعات والديون والعقارات، لكنها تميل بطبيعتها إلى الأحداث التي بلغت القضاء. أما التراجم والرحلات والرسائل فتقدم صوت الجماعة وصورتها عن ذاتها، في حين تحفظ المقابلات الذاكرة المتأخرة بما فيها من دقة وانتقاء ونسيان. ويظهر نضج القراءة حين تتساند هذه الأنواع، لا حين يُحمَّل أحدها ما لا يحتمل. والكتاب ينجح في مواضع كثيرة في هذا التساند، لكنه لا يصرح دائماً بدرجة اليقين التي ينتقل بها من نوع إلى آخر.[29]

من المزايا اللافتة أن المؤلف لم يكتف بالمصادر المطبوعة، بل حاول تعقب نسخ مخطوطة وصور وثائق محفوظة في مكتبات خاصة بجربة وغيزن وغيرها. كما ناقش نسب بعض المؤلفات، ومن ذلك ترجيحه هوية صاحب «مؤنس الأحبة» في سياق الجدل حول أبي راس الجربي وأبي راس المعسكري. ومع أن هذه المناقشات قد تبدو جانبية عن موضوع الوقف، فإنها تكشف وعياً بأن تاريخ المؤسسة لا يُبنى إلا بعد ضبط هوية منتجي نصوصها. غير أن قيمة هذه الاجتهادات ستزداد إذا دعمتها أوصاف مادية كاملة للمخطوطات، وأرقام حفظ ثابتة، وصور رقمية عالية الدقة، وسجل يبين تاريخ كل نسخة ومالكها وقيودها.

3. محتويات الكتاب: قراءة فصلية تحليلية

3.1 الفصل الأول: الوقف في الإسلام وعند الإباضية والجربيين

يؤدي الفصل الأول وظيفة الإطار المفاهيمي. يبدأ المؤلف بالمعنى اللغوي والاصطلاحي للوقف، ومشروعيته، وتقسيمه إلى خيري وأهلي أو ذري ومشترك، ثم ينتقل إلى أحكامه في الفقه الإباضي. ويبرز في هذا السياق مبدأ لزوم شرط الواقف ما دام غير مصادم لمقصد شرعي أو مصلحة معتبرة، كما يناقش موقف الإباضية من الوقف الخيري والوقف على الذرية ومن قضايا الاستحقاق والإقصاء. لا يقدم الفصل نظرية فقهية جديدة بقدر ما يهيئ القارئ لفهم حجة وكالة الجاموس: لماذا حدد الواقف المستفيدين؟ كيف انتقل النظر؟ وما أثر الإخلال بالشروط في مصير المؤسسة؟[30]

29 - حول طبقات المصادر وقيمة السجلات في إعادة بناء تاريخ المغاربة، انظر إحالات المؤلف إلى عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798م)، الجزائر-تونس، 1982م.

30 - مصلح، الوقف الجربي في مصر، ص 33-47، في مشروعية الوقف وأنواعه وموقعه في الفقه الإباضي وفي الخبرة الجربية.

ثم يوسع المؤلف الدائرة إلى البيئة الجربية، فيربط الوقف بمؤسسات محلية مثل الخلوة والمدرسة ودار الجماعة، وبنظام العزابة الذي نهض بأدوار دينية وتعليمية واجتماعية. ويُفهم من هذا العرض أن الجربيين لم يخترعوا في القاهرة شكلاً غريباً عن خبرتهم، بل نقلوا معهم تقاليد تنظيم جماعي ثم أعادوا تركيبها وفق المجال العمراني والقانوني المصري. هذه الملاحظة مهمة لأنها تمنع تفسير الوكالة بوصفها مجرد تقليد لوكالات التجار في القاهرة؛ فقد جمعت بين قالب عمراني وتجاري مصري وبين ثقافة تضامن إباضية مغاربية.

ويعرض الفصل دوافع انتقال الجربيين إلى المشرق: التجارة، وطلب العلم، والحج، والهرب من الاضطراب، والبحث عن مجال أوسع للحركة. ويستفيد الكتاب من تراجم أفراد سبقوا تأسيس الوكالة لإثبات أن المؤسسة جاءت بعد وجود بشري واتصالات متراكمة. بهذا المعنى لا يصنع الوقف الهجرة من الصفر، لكنه يخفض كلفتها ومخاطرها، ويمنح الوافد نقطة استقبال وشبكة ثقة وحيزاً لتعلم قواعد المدينة. وهذه وظيفة وسيطة يمكن مقارنتها بوظائف الأروقة والمدارس والربط ودور الضيافة المخصصة لأهل إقليم أو مذهب.

3.2 الفصل الثاني: النشأة والتطور ووثيقة الوقف

3.2.1 المؤسسون وتعدد الأسماء

يمثل هذا الفصل قلب الكتاب. يحدد المؤلف شخصيتين محوريتين في التأسيس. أولهما الحاج عبد العزيز بن منصور البحّار، المنسوب إلى أجيم في جربة، والمرتبط بتجارة الحبوب، وتدل وثيقة مؤرخة سنة 1036هـ/1626م تقريباً على حضوره العقاري في القاهرة. ومن اسمه جاء أحد أسماء المبنى: «وكالة البحّار». وثانيهما أحمد بن سعيد الجملي، وهو تاجر بن وقهوة ومستثمر في الالتزام الزراعي، وقد أوقف حصة مقدارها الربع، أي ستة قراريط من أربعة وعشرين، من الوكالة. ويتيح هذا التعيين الانتقال من القول العام بوجود وقف جربي إلى تحديد فاعلين ورؤوس أموال ومهن وروابط قرابة وبلدة أصل.[31]

ولا يظهر اسم «وكالة الجاموس» في حجة الوقف وحدها بوصفه الاسم القانوني الوحيد، بل تتجاور أسماء «وكالة البحار» و«وكالة السادة الغوابية» و«وكالة الجاموس». ويرجح الكتاب، اعتماداً على رواية شفوية نقلها باحثون عن سالم بن يعقوب أن اسم

31 - المرجع نفسه، ص 51-54، في ترجمة عبد العزيز بن منصور البحار وأحمد بن سعيد الجملي والقرائن على نشاطهما التجاري والعقاري.

الجاموس ارتبط بتخزين جلود الجاموس أو الاتجار بها، لا بإيواء الحيوان نفسه. أما «الغوابية» فيحيل إلى تسمية اجتماعية مثبتة في الوثيقة. وتعدد الأسماء هنا ليس تفصيلاً لغوياً؛ إنه يكشف اختلاف دوائر التسمية بين اسم المؤسس، والوصف الجماعي، والذاكرة المهنية للمكان.[32]

3.2.2 الموقع والعمران

يضع المؤلف الوكالة في حي طولون بالقاهرة، في درب كان يعرف بالمغربي ثم بدرب الأتفوحي، قريباً من جامع أحمد بن طولون. وتصف الحجة واجهة ومدخلاً وممراً وصحن وكالة ودكاكين وحوضاً أو حنفية ومصرفاً وسلالم وطوابق ومرافق، وتثبت حدودها الأربعة بالأملاك والطرق المجاورة. هذه التفاصيل تمنح الباحث مادة لإعادة بناء العقار في خريطة القاهرة العثمانية، وتسمح بربط الوقف بأسواق الحي وممرات الحركة والسكن المجاور. غير أن الرواية المتأخرة والرسم التقريبي المنسوب إلى الدكتور محمد علي حنبلة يذكران ثلاثة طوابق وستاً وثلاثين غرفة، في حين يوحي وصف الوثيقة بصورة أصغر أو مختلفة؛ والأرجح أن البنية تعرضت لتوسعات وتحويرات، أو أن الذاكرة جمعت أكثر من مرحلة، وهو أمر يحتاج إلى مقابلة خرائط المساحة وملفات التنظيم.[33]

يُظهر وصف المكان وحدة الوظائف: الدكاكين تولد مورداً أو تستوعب نشاطاً تجارياً، والغرف تؤوي الطلبة والعابرين، والماء والصرف يضمنان الحد الأدنى من العيش، وقرب جامع ابن طولون يتيح الارتباط بحلقات العلم والعبادة. ولا يتعامل المؤلف مع العمارة تعاملاً فنياً مفصلاً، لكنه يقدم ما يكفي لفهم أن الوكالة ليست مدرسة خالصة ولا خاناً تجارياً خالصاً ولا رباطاً خالصاً؛ إنها تركيب مرن من هذه الأنماط. ومن هنا تأتي صعوبة تصنيفها، وتأتي كذلك قدرتها على خدمة جماعة صغيرة بموارد محدودة.

3.2.3 غرض الوقف وشروط الانتفاع والإدارة

تحدد الحجة المستفيدين في الطلبة المغاربة الإباضية المقيمين، ولا سيما حفظة القرآن، وتربط السكن بالتعلم والعبادة والانضباط. ومن الشروط التي يبرزها الكتاب التزام المقيمين بورد قرآني جماعي مكثف في رمضان، بما يجعل الإقامة عقداً أخلاقياً وتعليمياً لا مجرد منفعة سكنية. كما تنظم الحجة الإيجار والدين والتنازل للغير والسلوك الذي يجيز إخراج المنتفع. ويقرأ المؤلف هذه الشروط بوصفها آلية لحماية

32 - المرجع نفسه، ص 54-56، في أسماء الوكالة وتفسير نسبة «الجاموس» وربطها المحتمل بتجارة الجلود.
33 - المرجع نفسه، ص 55-56 و69-90؛ والرسم التقريبي المنسوب إلى الدكتور محمد علي حنبلة في ملحق الوثائق، ص 231.

مقصد الواقف ومنع تحول الوقف إلى ملك شخصي أو مورد لفئة مغلقة من غير قيام بوظيفتها.[34]

أما النظارة فتبدأ بالواقف مدة حياته، ثم تنتقل وفق صيغة تجعل جماعة المقيمين المؤهلين طرفاً في الإدارة. ويتابع الكتاب أسماء عدد من النظار أو القائمين عبر الزمن، ويستخرج من الرسائل والنزاعات مؤشرات على تفاوت الأداء. ومن منظور تاريخ الإدارة، تكشف هذه الصيغة ميزة ومأزقاً في آن: فهي تمنح المستفيدين قدراً من الحكم الذاتي، لكنها تجعل المؤسسة عرضة لتشتت المسؤولية حين تضعف الجماعة أو يقل المقيمون أو تتباعد الأعيان الموقوفة. ويظهر هذا المأزق في الطور الأخير حين أصبح تحصيل الغلال ومتابعة أراضي الجيزة والديون أكثر صعوبة من قدرة الإدارة الداخلية.

3.2.4 أطوار التطور

يقسم المؤلف تاريخ الوكالة إلى أطوار متعاقبة تمتد من مرحلة وجود جربي سابق على التأسيس إلى مرحلة الانحلال. وتتحرك في هذه الأطوار أسماء علماء وتجّار وطلبة من جربة ونفوسة ومزاب: سعيد الجادوي، وسليمان المداني، وأبو القاسم اليديسي، وعبد الرحمن الحيالتي، ومحمد بن عمر بن أبي ستة المعروف بالمحشي، وعمرو التلاتي، ويوسف المصعبي، ويحيى الأفضلي، وسعيد وعَبْد الله البارونيان، وسعيد الشماخي، ومحمد يوسف الباروني، وإبراهيم أبو إسحاق أطفيش، وسالم بن يعقوب، وغيرهم. ولا يراد من هذه القائمة مجرد التراجم؛ فهي توضح انتقال مركز الثقل من حلقات الدرس والنسخ إلى الطباعة والصحافة ثم إلى ذاكرة مؤسسة آيلة للخراب.[35]

من النتائج المهمة في هذا الفصل أن تاريخ الوكالة لا يساوي تاريخ المبنى فحسب. فبعض العلماء أقام فيها، وبعضهم درس أو نسخ أو أدار من خلالها، وبعضهم اتصل بشبكتها من غير إقامة طويلة. كذلك انتقلت الكتب والأموال والرسائل بين القاهرة وجربة ومزاب ونفوسة وزنجبار. لذلك ينبغي التمييز بين «جماعة المكان» و«شبكة الوكالة»: الأولى تضم من سكن فعلاً، والثانية أوسع وتشمل الممولين والواقفين والنساخ والمراسلين والمتلقين. والكتاب يوفر عناصر كثيرة لبناء هذه الشبكة، وإن لم يصغها في نموذج تحليلي صريح.

34 - المرجع نفسه، ص 70–89، في نص حجة الوقف وشروط السكن والورد القرآني والنظارة ومنع التصرف الضار بالمصلحة الوقفية.

35 - المرجع نفسه، ص 57–68، في أطوار تطور الوكالة وأسماء المدرسين والمقيمين والقائمين عليها.

3.2.5 حجة الوقف بوصفها مصدراً مركباً

يعرض الكتاب صورة حجة الوقف ونصها المطبوع وتحليلاً لمضامينها، ويحدد موضعها في سجل محكمة طولون الشرعية رقم 224، ضمن أوراق السجل التي تغطي 1151–1153هـ، في الصفحتين 361–362 وبالوثيقة رقم 868 بحسب إثبات المؤلف. والتاريخ الذي يظهر في التحليل الدبلوماسي هو الثامن عشر من ذي الحجة سنة 1152هـ، الموافق تقريباً 27 مارس/آذار 1740م. كما تشير الحجة إلى تسجيلات أو إجراءات سابقة في جهات قضائية أخرى. هذه البيانات تجعل الوثيقة قابلة للاسترجاع والمقابلة، وهو مكسب منهجي كبير مقارنة بالإحالات العامة.[36]

ويستثمر المؤلف أسماء الشهود والوسطاء والجيران في رسم البيئة الاجتماعية المحيطة: مسعود بن سليمان بن حديد، وعمر بن يوسف الشماخي، وسعيد بن محمد العدْلوني شيخ التجار المغاربة، ورمضان البحار، ورمضان القلال، وغيرهم. كما يقرأ المهن والأنساب والألقاب بوصفها علامات على شبكات التجارة والثقة. هذا الاستخدام للوثيقة يقترب من منهج التاريخ الجهري؛ إذ تتحول صيغة قانونية واحدة إلى نافذة على جماعة ومكان وسوق. إلا أن توسيع الاستنتاج ينبغي أن يظل مرتبطاً بما تسمح به كل علامة: فوجود شاهد لا يثبت بالضرورة شراكة اقتصادية مستمرة، وذكر الجار لا يثبت انتماءه إلى شبكة الوقف من غير قرائن أخرى.

3.3 الفصل الثالث: التنمية الاجتماعية والاقتصادية

3.3.1 الوظائف الاجتماعية

يبني المؤلف مفهوم التنمية الاجتماعية على حزمة من الخدمات: إتاحة السكن للطلبة والوافدين، وتيسير التعليم، واستقبال الحجاج والعابرين، وتقديم الطعام والماء، والتوسط في العمل، وتقوية صلة القادمين بتجار الجماعة، والإقراض الحسن، والمساعدة في الزواج، ورعاية المرضى والفقراء، والعناية بأحوال الموتى والمقبرة، وتقليل الفوارق داخل الجماعة. ويستند في بعض هذه الوظائف إلى وثائق أو رسائل أو تراجم مباشرة، بينما يستخلص بعضها الآخر من طبيعة الوقف وممارسات الجالية الأوسع. لذلك فإن الفصل غني في رسم الإمكان الاجتماعي للمؤسسة، لكنه متفاوت في مقدار ما يثبت تحققه على نحو منتظم.[37]

36 - المرجع نفسه، ص 69–90، يثبت المؤلف الحجة في سجل محكمة طولون الشرعية رقم 224، ص 361–362، الوثيقة 868، مؤرخة في 18 ذي الحجة 1152هـ؛ والإحالة إلى بيانات السجل هنا عبر الكتاب.

37 - المرجع نفسه، ص 91–102، في مظاهر الدور الاجتماعي للوقف والسكن والتعليم والتكافل والخدمات.

مع ذلك، يقدم الكتاب فهماً مقنعاً للوكالة باعتبارها مؤسسة لخفض مخاطر الهجرة. فالوافد لا يحتاج إلى شراء سكن، ويحصل على معلومات عن الأسواق وفرص العمل، ويلتقي بمن يتكلم لغته ويعرف موطنه، ويدخل في دائرة ثقة تسمح بالقرض أو الشراكة أو التلمذة. هذه الخدمات لا تظهر دائماً في دفاتر مالية، لكنها رأس مال اجتماعي حقيقي. كما أن الجمع بين طلبة العلم والتجار داخل فضاء واحد يفسر كيف استطاعت جماعة محدودة العدد تمويل نسخ الكتب وإقامة الدروس وربط القاهرة بجزيرة جربة.

ويستوقف الكتاب حضور النساء في بعض التصرفات الوقفية، فيذكر آسية بنت الحاج محمد الشروني التي أوقفت دارين قريباً من الوكالة، وزينب بنت سعيد الجوادِي التي خصصت نفعاً لطلبة جربة. وتكمن أهمية هذه الإشارات في أنها تكسر الصورة الذكورية الخالصة لتاريخ الجالية، وتبين أن النساء شاركن في تثبيت البنية العقارية للتكافل ولو لم يظهرن في إدارة الوكالة اليومية. كما ترد إشارات إلى الأتباع والعتقاء والخدم، وهي مادة أولية يمكن أن تقود إلى دراسة الطبقات الأقل ظهوراً في السجلات السردية.[38]

لا تنغلق منافع الوكالة على الجربيين حصراً في التطبيق التاريخي الذي يعرضه الكتاب. فقد أقام أو اتصل بها إباضية من جبل نفوسة ووادي مزاب، وتبادلت هذه الجماعات العلماء والكتب والمراسلات والمصاهرة. ويكشف هذا الاتساع أن الانتماء الجغرافي للوقف كان مرناً داخل فضاء مذهبي مغاربي أوسع. كما تظهر صلات بعُمان وزنجبار من خلال الرسائل والكتب والتبرعات، فتغدو القاهرة نقطة عبور بين مغرب إباضي ومشرق إباضي، لا نهاية طريق أحادي من جربة إلى مصر.[39]

3.3.2 الوظائف الاقتصادية

ينتقل الفصل بعد ذلك إلى الاقتصاد، ويبدأ من حقيقة أن الوكالة نفسها أصل عقاري يجمع الدكاكين والسكن ويولد منافع مباشرة وغير مباشرة. ثم يتابع نشاط الجربيين في تجارة الزيت، وهي حرفة ارتبطت بخبرة الجزيرة وإنتاجها، وفي جلود الجاموس التي يربط بها اسم الوكالة، وفي البن والحبوب والمنسوجات والأحرمة. ويستخرج المؤلف من الأسماء المهنية والعقود مواضع في الأسواق والوكالات القاهرية، ويبين أن التجار

38 - المرجع نفسه، ص 98-102، وما أورده في الملاحق من أوقاف آسية بنت الحاج محمد الشروني وزينب بنت سعيد الجوادِي وغيرها.

39 -المرجع نفسه، ص 102-109، في العلاقات بين جربة وجبل نفوسة ووادي مزاب، والصلات الأوسع بعُمان وزنجبار.

الجربيين لم يعيشوا على هامش الاقتصاد، بل شاركوا في مسالك التموين والتوزيع والائتمان.[40]

ومن أكثر أقسام الفصل دلالةً مناقشة الالتزام الزراعي. فقد استثمر أحمد بن سعيد الجملي وآخرون في حقوق مرتبطة بأراضي الجيزة، وذكر الكتاب مساحات وحصصاً في الخيزرانية والطالبية، كما أشار إلى تمويل بعض القوى العسكرية أو المملوكية مقابل حقوق جباية أو استغلال. ويقدّر المؤلف أحياناً هامش ربح محتمل في بعض صور الالتزام، لكن المادة لا تسمح بعد بسلسلة مالية كاملة تقيس رأس المال والعائد والمخاطر عبر الزمن. ومع ذلك فإن إدخال الالتزام في سيرة الوقف يوسع فهم مصادر ثروة الواقفين: لم تكن التبرعات منفصلة عن بنية الاقتصاد السياسي في مصر العثمانية.[41]

كما يحتل العقار مكانة مركزية: دور وحوانيت وحصص موقوفة أو مؤجرة، وحقوق خلو وحكر، وحدود وأجرة وديون. وتدل هذه المادة على أن الوقف اعتمد على محفظة متفاوتة القرب من الوكالة؛ وكان بُعد بعض الأعيان، ولا سيما الأراضي، عاملاً في صعوبة المتابعة لاحقاً. ويتيح هذا الجانب للباحثين الانتقال من «تاريخ النية الخيرية» إلى «تاريخ الإدارة» بسؤال: ما بنية الأصول؟ من كان يجبي؟ كم كلف الإصلاح؟ كيف عولج التعثر؟ وهي أسئلة لا يجيب عنها الكتاب كمياً، لكنه يحدد مواضع البحث عنها.

ويضيف المؤلف النسخ إلى أوجه النشاط الاقتصادي. فالناسخ يكتسب أجراً أو مكانة، والكتاب الموقوف يوفر مادة للتعلم، والنسخة المنقولة تعود إلى جربة أو مزاب فتؤسس مكتبة جديدة. يسجل الكتاب أسماء عدد كبير من النساخ وعناوين ما نسخوه وأماكن وجود بعض النسخ لاحقاً. والنسخ هنا نشاط معرفي واقتصادي معاً: إنه استثمار في رأس المال البشري، وتقنية لحفظ النص وتكثيره، وسوق للخدمات الكتابية. ومع ظهور المطابع الجربية أو الإباضية في القاهرة انتقلت الشبكة من اقتصاد النسخة المفردة إلى اقتصاد النشر والتوزيع.

3.4 الفصل الرابع: التنمية الثقافية وشبكات المعرفة

3.4.1 حلقات الدرس والمناهج

يعيد الفصل الرابع بناء الحياة العلمية في الوكالة عبر تراجم المدرسين والطلبة وما

40 - المرجع نفسه، ص 110-120، في تجارة الزيت وجلود الجاموس والبن والحبوب والمنسوجات والأحرمة.

41 - المرجع نفسه، ص 120-125، في الالتزام الزراعي والعقار وبعض استثمارات أحمد بن سعيد الجملي في الجيزة.

نُسخ من كتب وما أُلّف من شروح وحواشٍ. وتشمل موضوعات التعليم القرآن وعلومه، والحديث ولا سيما «مسند الربيع»، والعقيدة، والفقه وأصوله، واللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب، والفرائض والمنطق. لم تكن الوكالة جامعة ذات منهج رسمي وشهادات ثابتة، بل فضاء تعلم مرن يختار فيه الطالب الشيخ والكتاب ويجمع بين درس خاص داخل الجماعة ودروس الأزهر أو رواق المغاربة. هذه المرونة ساعدت على حفظ المادة المذهبية التي لم تكن ضمن البرامج الرسمية، مع إبقاء الباب مفتوحاً للاستفادة من المجال العلمي القاهري الأوسع.[42]

تمنح تراجم العلماء للفصل كثافته. ويبرز محمد بن عمر بن أبي ستة، المعروف بالمحشي، الذي أقام بمصر نحو ثمانية وعشرين عاماً ونُسب إليه عدد كبير من الشروح والحواشي في التفسير والحديث والعقيدة والفقه واللغة. كما يتابع الكتاب عمرو التلاتي ويوسف المصعبي ويحيى الأفضلي وإبراهيم بحمان وسعيد الباروني وعبد الله الباروني وسعيد الشماخي ومحمد يوسف الباروني وقاسم الشماخي وأبا إسحاق أطفيش وسليمان الباروني ورمضان اللّيني وسالم بن يعقوب. ويتيح جمعهم في فضاء واحد رؤية الاستمرارية بين عالم مخطوطات القرن السابع عشر ومثقف الطباعة والصحافة في القرن العشرين.

ولا ينبغي فهم هذه الاستمرارية بوصفها خطاً بلا انقطاع. فقد تغيرت أشكال المعرفة ومؤسساتها: من حلقة صغيرة داخل الوكالة إلى دراسة انتقائية في الأزهر، ومن نسخ يدوي إلى مطبعة وصحيفة، ومن إقامة طويلة للعالم إلى سكن مؤقت لطالب جامعي في الطور الأخير. ويُظهر الكتاب هذه التحولات من خلال السير الفردية أكثر مما يقدم تحليلاً مؤسسياً صريحاً لها. ومن المفيد مستقبلاً ربط كل سيرة بتاريخ الإقامة، والكتب المدروسة، والأساتذة، والتمويل، ومآل المؤلفات، كي يظهر التحول في رسم زمني واحد.

3.4.2 المكتبة والوقف على الكتب

لا يثبت الكتاب وجود فهرس كامل لمكتبة وكالة الجاموس، لكنه يجمع قرائن متعددة على تكوينها وتداول كتبها: قيود وقف وتملك، ورسائل تبرع، وقوائم نساخ، وتراجم علماء، ونسخ انتقلت لاحقاً إلى مكتبات في جربة وبني يزقن وغيرها. والمهم أن المكتبة لم تقتصر على المصنفات الإباضية؛ فقد ضمت تفاسير وكتب سيرة وفقه ولغة متداولة

42 - المرجع نفسه، ص 127-156، في حلقات الدرس والعلوم المتداولة وتراجم أبرز العلماء.

في المجال السني أيضاً، إلى جانب الأصول المذهبية. وهذا التنوع يتفق مع طبيعة الطلبة الذين يجمعون بين تعليم الجماعة ودروس القاهرة.[43]

وتكشف الرسائل المرفقة بالكتاب أن التبرع بالكتب كان مشروعاً عابراً للمسافات. تُرسل المصاحف والمصنفات من زنجبار أو عُمان إلى مراكز المغرب، وتُنسخ كتب في القاهرة لتعود إلى جربة أو مزاب، ويطلب العلماء تمويل الطباعة لتعميم النص. بهذا المعنى لم تكن المكتبة مخزناً في غرفة، بل نظام تداول يربط المانح والناسخ والقارئ والطالب والمطبعة. وهذه واحدة من أقوى إضافات الكتاب إلى تاريخ الثقافة الإباضية: نقل التركيز من «المؤلف الكبير» إلى البنية المادية التي أتاحت للنص أن يبقى وينتشر.

3.4.3 الطباعة والصحافة والعلاقة بالأزهر

يتابع الفصل تحول بعض أفراد الشبكة إلى الطباعة والصحافة، فيذكر المطبعة البارونية والمطبعة الأزهرية البارونية ومشاريع صحف ومجلات مثل «نبراس المشارقة والمغاربة» و«الأسد الإسلامي» و«المنهاج» وغيرها. ويبرز في هذا السياق سعيد الشماخي ومحمد يوسف الباروني وأبو إسحاق أطفيش وسليمان الباروني. ولا يعني ذلك أن كل هذه المؤسسات كانت جزءاً إدارياً من وكالة الجاموس، بل إن الوكالة عملت فضاء اتصال وذاكرة وشبكة ثقة خرج منها أو مر بها فاعلون أسسوا أنشطة نشر أوسع. هذا التمييز مهم حتى لا تُنسب إلى العقار ذاته جميع أعمال الجالية.[44]

أما العلاقة بالأزهر ورواق المغاربة فكانت تكاملية ومتوترة في آن. أتاح الأزهر علوم العربية والفقه والحديث وشبكة علماء واسعة، بينما وفرت الوكالة السكن والتعليم المذهبي والرقابة الاجتماعية. وكان بعض الطلبة يسجل رسمياً أو يحضر دروساً منتقاة، في حين لجأ آخرون إلى الرواق في مراحل تدهور الوكالة. وتدل إفادات عن طلاب في خمسينيات القرن العشرين على بقاء الصلة حتى الطور الأخير. وهكذا يتعين النظر إلى الوكالة لا باعتبارها بديلاً كاملاً للأزهر، بل «بوابة جماعية» تنظم دخول أفرادها إلى المؤسسة الكبرى وتحفظ في الوقت نفسه خصوصيتهم.

3.5 الفصل الخامس: التقويم والتراجع ومقترحات الإحياء

يبدأ الفصل الخامس بحصيلة الإنجاز: توفير سكن وعلم وعمل، وتخريج علماء،

43 - المرجع نفسه، ص 156-160، في مكتبة الوكالة والكتب الموقوفة والمنسوخة، مع الجداول والوثائق في ص 207-231.

44 - المرجع نفسه، ص 160-169، في التأليف والطباعة والصحافة والعلاقة بالأزهر ورواق المغاربة.

وإنتاج شروح وحواشٍ ونسخ، وإنشاء مكتبات ومطابع وصحف، وربط أقاليم متباعدة. ويستخدم المؤلف مفهوم «الوجه الحضاري» للوقف ليؤكد أن أثره لا يقاس بدخل العقار وحده، بل بما أنتجه من بشر وكتب ومؤسسات. وهذه الحصيلة مقنعة نوعياً، ولا سيما حين تسندها التراجم وقيود المخطوطات. غير أن قياسها كمياً يظل محدوداً: لا نملك تعداداً سنوياً للمقيمين، ولا ميزانية متصلة، ولا مؤشرات مقارنة قبل الوقف وبعده.[45]

وفي تفسير التراجع يجمع المؤلف بين عوامل داخلية وخارجية: التساهل في شرط الواقف، وضعف بعض القائمين، وتشتت الإدارة، وصعوبة متابعة العقارات والديون، والفجوة بين النظرية الوقفية والتطبيق، ثم الاستعمار والتحول السياسي وسياسات الضم أو المصادرة بعد ثورة 1952، وتناقص الجماعة المقيمة. ويحافظ المؤلف في موضع مهم على قدر من الإنصاف؛ فهو لا يثبت سرقة مباشرة من بعض المديرين الذين انتقد أداءهم، بل يصف قصوراً في الإدارة والمتابعة. هذه التفرقة بين الفساد المثبت وسوء الإدارة ضرورية في الكتابة التاريخية.[46]

تقدم شهادة الدكتور محمد علي حنبلة صورة حسية للطور الأخير: وصل إلى القاهرة سنة 1956 فوجد الوكالة متهالكة تفتقر إلى الماء والكهرباء، وسعى مع آخرين لدى الوزير أحمد حسن الباقوري إلى إعادة الانتفاع بها، ثم ضُمت مرة أخرى قرابة سنة 1958 بحسب الرواية. ويرسم حنبلة مخططاً تقريبياً للمبنى يختلف في تفصيله عن الوصف القديم. قيمة هذه الشهادة أنها تحفظ تجربة شاهد، لكنها لا تكفي وحدها لتحديد الوضع القانوني النهائي أو تاريخ كل قرار؛ فذلك يتطلب ملفات وزارة الأوقاف ومحافظة القاهرة وخرائط التنظيم ومحاضر التسليم.[47]

ويناقش المؤلف الاستبدال بوصفه مخرجاً فقهياً حين يتعذر الانتفاع بالأصل، ويقترح إعادة توظيف العائد في مدرسة قرآن أو مكتبة وقفية أو سكن للطلبة، كما يطرح تصوراً لمكتبة رقمية. هذه المقترحات تكشف حرصاً على استمرار المقصد لا على عبادة الحجر. غير أن تحويلها إلى سياسة يحتاج إلى تثبيت الوضع القانوني للوقف، وتقييم الأصول، وتحديد جهة النظارة، وضمان الرقابة. ويحتاج الاقتراح المتعلق ببيع بعض الأصول المخطوطة والاكتفاء بصورها إلى مراجعة شديدة؛ فالمخطوط الأصلي يحمل قيود تملك

45 - المرجع نفسه، ص 171–182، في تقويم الخدمات الحضارية والخريجين والإنتاج العلمي والثقافي.

46 - المرجع نفسه، ص 183–188، في أسباب التراجع الداخلية والخارجية، مع التمييز بين القصور الإداري والاتهام غير المثبت بالاستيلاء.

47 - المرجع نفسه، ص 66–68 و186–188؛ والرسم التقريبي للوكالة في ص 231. الشهادة الشفوية تحتاج إلى مقابلة بملفات وزارة الأوقاف ومحافظة القاهرة.

ووقف ونسخ ومادة ورقية لا تنقلها الصورة كاملة، والتصرف غير القابل للعكس قد يهدر قيمة تراثية وقانونية فريدة.[48]

3.6 الخاتمة والملاحق: من البرهنة إلى بناء أرشيف

تلخص خاتمة الكتاب النتائج المتعلقة بتثبيت هوية الوقف ومؤسسيه وموقعه ووظائفه، وتؤكد دور سجلات المحاكم في اكتشاف أملاك جربية أخرى. ثم تأتي الملاحق لتضيف مادة لا تقل أهمية عن المتن: رسالة سعيد بن قاسم الشماخي في مشروع مطبعة إباضية بالقاهرة وربط ريعها بتعليم الطلبة؛ ورسالة محمد بن ناصر العلوي من زنجبار بشأن إرسال مصاحف وكتب وأعمال خيرية إلى مزاب ونفوسة؛ وتراجم لأسر وعلماء؛ وقائمة للنظار والقائمين والديون والنزاعات؛ ومقتطفات من دفاتر سالم بن يعقوب عن أملاك الجربيين وأوقافهم؛ وجداول للواقفين والكتب والنساخ؛ وصور لوثائق وقيود وقف ورسم تقريبي للوكالة.[49]

تتجاوز هذه الملاحق وظيفة «الإثبات» المعتادة؛ فهي نواة أرشيف موزع. ففيها مادة لمشاريع مستقلة عن الطباعة الإباضية، والصدقات العابرة للمحيط الهندي، والملكية النسائية، وتاريخ الأسر، وسوسيولوجيا النظارة، وحركة المخطوط. وربما كانت أفضل طريقة لاستثمار الكتاب مستقبلاً هي تحرير هذه الملاحق تحريراً مستقلاً: نسخ دبلوماسي، وصور مقابلة، وفهارس أسماء وأماكن وكتب، وروابط بين كل وثيقة والفقرة التي استندت إليها. عندئذ يصبح الكتاب بوابة إلى corpus وثائقي، لا مجرد سرد تاريخي.

4. المعلومات الجديدة والإضافة العلمية

لا ينبغي قياس جدة الكتاب بادعاء أن كل معلومة ترد فيه غير مسبوقة؛ فبعض الأعلام والتجار والأوقاف معروف في دراسات المغاربة أو في التراجم الإباضية. تكمن الإضافة الحقيقية في الجمع والتعيين والربط: جمع المادة المتفرقة حول وكالة واحدة، تعيينها في وثيقة ومكان وأسماء، ثم ربط بنيتها العقارية بوظائف اجتماعية واقتصادية وثقافية عبر مدة طويلة. ويمكن ترتيب جديده في ستة مجالات متداخلة:

48 - المرجع نفسه، ص 189–201، في الاستبدال ومشروعات الإحياء. ويحتاج أي تصرف في المخطوطات الأصلية إلى فحص قانوني وتراثي مستقل؛ فالرقمنة لا تعوض خصائص الأصل المادية.

49 - المرجع نفسه، ص 202–231، في الخاتمة والملاحق والرسائل وقوائم النظار والواقفين والنساخ وملحق الوثائق.

تقدير القوة	المعلومة الجديدة	قاعدة الدليل	مجال الجدة
عالٍ؛ مع ضرورة اعتماد التاريخ الهجري الأصلي عند التعارض	إثبات المؤسسين والأسماء والموقع وشروط الإقامة والإدارة	حجة الوقف وسجلات المحكمة	**التعيين المؤسسي**
عالٍ في بناء الشبكة، ومتوسط في قياس أثرها	كشف شبكة جربة-نفوسة-مزاب-القاهرة واتصالها بعُمان وزنجبار	التراجم والرسائل وشهادات المقيمين	**الجغرافيا الاجتماعية**
عالٍ وصفياً؛ يحتاج إلى سلاسل كمية للإيرادات والنفقات	ربط الوقف بأسواق الزيت والجلود والبن والحبوب والنسيج والالتزام والنسخ	الألقاب المهنية والتصرفات العقارية والسجلات	**الاقتصاد الحضري**
عالٍ؛ ويحتاج إلى فهرس كوديكولوجي موحّد	تحويل الوكالة إلى عقدة لإنتاج المخطوط وتداوله وطباعته	فهارس الكتب وقيود الوقف والنسخ والتراجم	**تاريخ المعرفة**
واعد؛ لكن المادة المتاحة لا تكفي بعد لكتابة تاريخ اجتماعي كامل	إظهار حضور النساء وبعض الفئات التابعة داخل اقتصاد الوقف	وثائق واقفات وذكر الأتباع والعتقاء	**الفاعلون الهامشيون**
مهم؛ ويستلزم مقابلة الذاكرة بالملفات الرسمية والخرائط	توثيق طور الخراب والضم الإداري في منتصف القرن العشرين	مقابلات آخر المقيمين والرسم التقريبي	**التاريخ الشفوي**

4.1 نقل الوكالة من الرواية إلى الإثبات المؤسسي

أبرز جديد الكتاب أنه يثبت أن «وكالة الجاموس» لم تكن اسماً شعبياً غامضاً فحسب، بل وقفاً له مؤسسون وحصص وشروط ونظار وحدود. تحديد سجل محكمة طولون ونص الحجة وأسماء الشهود يحول المؤسسة إلى موضوع قابل للتحقق. كما أن الكشف عن الأسماء المتعددة يمنع الباحث من إضاعة الأثر حين يبحث في السجلات تحت اسم واحد. وقد يقود الجمع بين «البحار» و«الغوابية» و«الجاموس» إلى العثور على وثائق إضافية كانت ستبدو متعلقة بأماكن مختلفة.[50]

وتزداد قيمة هذا التعيين لأن الكتاب يربط بين لحظتين: ملك أو تصرف سابق لعبد العزيز البحار في القرن الحادي عشر الهجري، ووقف حصة أحمد الجملي في القرن الثاني عشر. وبذلك يتجنب اختزال التأسيس في تاريخ حجة واحدة، ويقترح أن الوكالة تراكمت عبر مساهمات وتحولات. غير أن هذا التراكم يحتاج إلى شجرة ملكية دقيقة تبين متى انتقلت كل حصة، وما إذا كانت جميع أجزاء المبنى موقوفة، وكيف تغيرت الحدود والبنية.

50 - المرجع نفسه، ص 51-56 و69-90. وتفيد الأسماء البديلة في توسيع البحث الأرشيفي وعدم قصره على لفظ «وكالة الجاموس».

4.2 اكتشاف مؤسسة مركبة لا وقفاً أحادي الوظيفة

المعلومة الجديدة الثانية هي الطبيعة المركبة للوكالة. فالوقف كان في الوقت نفسه سكناً ومدرسة ومكتبة وفضاء عبادة ومكان لقاء وواجهة تجارية. هذه الوظائف لم تكن إضافات تجميلية، بل كان بعضها يمول بعضاً: المال والعقار يتيحان السكن، والسكن يثبت الطلبة، والطلبة ينسخون ويحفظون ويعلمون، والتجار يقدمون العمل والقرض والتبرع، والكتب تعيد إنتاج الهوية العلمية. يتيح هذا النموذج تجاوز التقسيم الصارم بين الوقف التعليمي والوقف الاجتماعي والوقف الاقتصادي.

وتفيد هذه النتيجة في النظرية العامة للوقف؛ إذ تبين أن وحدة الوقف ليست دائماً «الغرض» المفرد، بل سلسلة قيم مترابطة. فإذا تعطل السكن انقطع التعليم، وإذا ضعفت التجارة قل تمويل الكتب، وإذا تشتتت الجماعة صَعُبت النظارة. ومن هنا فإن أسباب الانهيار لا تُفهم بعامل واحد، بل بفك الارتباط بين حلقات المنظومة. هذا الاستنتاج يمكن تطويره بمفهوم المرونة المؤسسية: ما الوظائف الجوهرية التي حافظت على الوقف؟ وما الوظائف التي كان يمكن نقلها أو تحديثها؟

4.3 رسم شبكة إباضية مغاربية–مشرقية

يبرز الكتاب محوراً جغرافياً متعدد المراكز: جربة موطن واقفين وطلاب وكتب؛ القاهرة مجال التعليم والتجارة والطباعة؛ جبل نفوسة ووادي مزاب شريكان في الإقامة والتعلم والنسخ؛ عُمان وزنجبار مصدران للاتصال والتبرع والنصوص. والجديد ليس وجود كل صلة منفردة، بل اجتماعها حول مؤسسة حضرية صغيرة. ويتيح ذلك إعادة تعريف الوكالة بوصفها عقدة في شبكة لا «مستعمرة» منعزلة. كما يفسر كيف حافظت جماعات قليلة العدد على تقليد علمي واسع المسافة.

ومن النتائج الدقيقة أن المستفيد الفعلي لم يكن مطابقاً دائماً لوصف «الجربي». فالقرائن على مشاركة نفوسيين ومزابيين تجعل وصف الوقف بأنه «مذهبي-جماعي» أدق من استعمال وصف عرقي بالمعنى الحديث. فالجماعة تشكلت من الأصل الجغرافي والانتماء المذهبي والقرابة العلمية والمصلحة العملية، ولم تكن عرقاً مغلقاً. وتصحيح المصطلح لا ينقص من خصوصية الوقف، بل يجعلها أكثر تاريخية وأقل إسقاطاً لمفاهيم معاصرة على وثائق قديمة.[51]

51 - يستخدم المؤلف في الخاتمة، ص 202 تقريباً، تعبيراً يزاوج بين الوصف المذهبي والعرقي؛ ويقترح التقرير وصف «وقف جماعة مهاجرة عابرة للأقاليم» اتساقاً مع تنوع المنتفعين الذي يثبته الكتاب نفسه.

4.4 ربط اقتصاد الجالية بتاريخ الوقف

يجمع الكتاب للمرة الأولى في إطار الوكالة بين قطاعات تبدو متباعدة: تجارة الزيت والحبوب والبن والجلود والنسيج، والاستثمار في الالتزام الزراعي، والتصرف في العقار، والنسخ. وهو ربط مهم لأنه يعيد الواقفين والعلماء إلى الاقتصاد المادي الذي موّل نشاطهم. فالعالِم المقيم لا ينفصل عن التاجر الذي وفر الغرفة أو الورق أو السفر، والتبرع بالكتاب لا ينفصل عن القدرة على نسخه ونقله. كما أن الاستثمار في أراضي الجيزة يكشف أن موارد الجماعة لم تكن محصورة في دكاكين الحي.

غير أن أهمية الاكتشاف وصفية أكثر منها قياسية في صورته الحالية. فلا يقدم الكتاب ميزانيات سنوية أو حسابات نظارة منتظمة تسمح بحساب العائد أو نسبة الإنفاق على التعليم أو السكن. ولذلك ينبغي تجنب تحويل أمثلة نجاح تجاري إلى حكم عام على ربحية الوقف. الجديد المؤكد هو تنوع المحفظة والأنشطة والأشخاص؛ أما حجم الأثر الاقتصادي فيحتاج إلى دفاتر حساب وسلاسل أسعار وأجور وإيجارات وبيانات مقارنة.

4.5 تاريخ مادي للمعرفة: من القيد إلى المطبعة

يقدم الكتاب مادة ثرية لفهم كيفية صنع المعرفة وتداولها. فقيود النسخ والوقف والتملك تحدد من كتب ومتى ولمن، والرسائل تشرح لماذا جُمعت الأموال أو أرسلت المصاحف، والتراجم تكشف مجالس الدرس، والمطابع والصحف توضح التحول التقني. هذه السلسلة من المخطوط إلى المطبوع نادراً ما تُجمع داخل دراسة وقف واحدة. وهي تؤكد أن الوقف لم يمول «محتوى» مجرداً، بل موّل الورق والمكان والوقت والإقامة وشبكات النقل.

ويُعد انتقال نسخ من القاهرة إلى مكتبات جربة وبني يزقن دليلاً على الأثر طويل المدى. فقد يفنى المبنى وتبقى النسخة شاهداً مادياً يحمل أثر الشبكة. ويمكن لعلم المخطوطات أن يختبر ذلك بفحص الورق والخطوط والمقابلات وقيود القراءة والتملك. فإذا جُمعت بيانات النسخ في قاعدة موحدة أمكن رسم مسارات الكتب، وتحديد النساخ الأكثر مركزية، وقياس تغير المقررات، وربط كل نسخة بسيرة ناسخها ومولها.

4.6 إدخال النساء والطور الأخير في سجل المؤسسة

تقدم إشارات الوقف النسائي وشهادات القرن العشرين نوعين من الجديد كانا عرضة للضياع. الأول يوسع خريطة الفاعلين وراء أسماء التجار والعلماء، ويبين أن النساء

ساهمن بأصول عقارية في دعم الطلبة. والثاني يحفظ ذاكرة الانهيار: انقطاع المرافق، والسكن المؤقت، ومحاولات الاسترداد، والرسم التقريبي للمكان. وتمثل المادتان طرفي التاريخ الاجتماعي؛ فإحداهما تكشف من موّل بصمت، والأخرى تكشف من عاش النهاية.

لكن الكتاب يورد هذه المواد في صورة بذور لا دراسات مكتملة. فليس لدينا تحليل لنسب أوقاف النساء إلى مجموع أوقاف الجالية، ولا لشروطهن الخاصة، ولا لموقعهن في شبكات القرابة. كما أن شهادات المقيمين تحتاج إلى تاريخ شفوي منهجي يثبت أسئلة المقابلة وتاريخها وسياقها ويقارن بين رواة متعددين. الجديد هنا فتح الحقل وتحديد الأسماء، لا حسم جميع أسئلته.

5. تقويم نقدي للكتاب

5.1 نقاط القوة

الأصالة الوثائقية: يعين حجة الوقف وسجلها، وينشر صورتها ونصها، ويستثمر سجلات المحاكم والمخطوطات والرسائل والمقابلات.

المدى الزمني الطويل: يتابع المؤسسة من ما قبل التأسيس الرسمي إلى طور التفكك في القرن العشرين، فيكشف تغير الوظائف والفاعلين.

تعدد الحقول: يجمع التاريخ الفقهي والعمراني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، ويبرهن أن الوقف لا يُفهم من زاوية قانونية منفردة.

استعادة تاريخ جماعة وسيطة: لا يعزل الجربيين عن القاهرة ولا يذيبهم فيها، بل يوضح آليات الحفاظ على الهوية والانخراط في المدينة.

قيمة الملاحق: يحفظ نصوصاً وقوائم ورسومات وقيوداً تصلح لتأسيس بحوث لاحقة، لا لمجرد تأييد السرد.

الوعي بأزمة الإدارة: يميز، في مواضع مهمة، بين سوء التدبير والاتهام غير المثبت بالاختلاس، ويربط التدهور بتفاعل الداخل والخارج.

إجمالاً، تكمن قوة الكتاب في أنه يغيّر وضع موضوعه المعرفي. قبل جمع هذه المادة كان يمكن أن تبقى وكالة الجاموس خبراً في تراجم متفرقة أو ذاكرة محلية؛ وبعده أصبحت مؤسسة ذات ملف أولي: وثيقة تأسيس، ومكان، وأسماء، وأطوار، ووظائف.

ونهاية تقريبية. وهذه هي سمة العمل التأسيسي الناجح حتى إن بقيت فيه فجوات.

5.2 ملاحظات منهجية وتحريرية

أ. اضطراب بعض التحويلات الزمنية

تظهر في مواضع من الكتاب مقابلات غير منسجمة بين السنة الهجرية والميلادية؛ فالسنة 1152هـ تُربط في التحليل الدقيق بتاريخ 27 مارس 1740م تقريباً، بينما تظهر في مواضع أخرى إلى جانب سنوات ميلادية لا توافقها. كما ترد صيغ مشابهة مع 1036هـ و1305هـ. لا يمس ذلك وجود الوثيقة أو مضمونها، لكنه قد يربك التسلسل التاريخي ويؤثر في نسبة الفاعلين إلى السياقات السياسية والاقتصادية. والحل المنهجي هو اعتماد التاريخ الهجري الوارد في الأصل، ثم إجراء تحويل موحد ببرنامج موثوق مع التنبيه إلى أن المقابلة الميلادية تقريبية.[52]

ب. تفاوت درجة نقد المصدر

يمارس المؤلف نقداً جيداً حين يناقش نسب كتاب أو يحدد سجل وثيقة، لكنه لا يطبق دائماً بطاقة مصدر موحدة. كان ينبغي، لكل مخطوط أو رواية شفوية، بيان رقم الحفظ أو المالك، والمادة، وعدد الأوراق، وتاريخ التصوير، وحالة الأصل، واسم المحاور وتاريخ المقابلة، ثم الفصل بين النص المنقول والتعليق. كذلك فإن نقل مضمون سجلات سابقة عبر دراسة وسيطة يختلف عن معاينة السجل مباشرة. توحيد هذه البيانات سيجعل الاستنتاجات قابلة لإعادة الاختبار.

ج. الانتقال من المثال إلى مفهوم التنمية

يستخدم الكتاب «التنمية» بمعنى واسع يشمل التعليم والتكافل والعمل والهوية والإنتاج الثقافي. هذا الاتساع مناسب لإظهار وظائف الوقف، لكنه يحتاج إلى تعريف إجرائي. فوجود غرفة لطالب أو نسخة كتاب دليل على خدمة، لا يكفي وحده لقياس أثر تنموي طويل الأمد. ويمكن تحسين الحجة بوضع مؤشرات: عدد المقيمين، مدة الإقامة، نسبة من واصلوا التعليم، قيمة المنح والقروض، حجم الأصول والعوائد، عدد الكتب والنسخ، وتوزيعها الجغرافي. عند غياب هذه المؤشرات ينبغي استعمال لغة «المساهمة» و«الوظيفة» لا لغة السببية القاطعة.

52 - للمقارنة الداخلية، انظر ص 52 و71 و74 و87، حيث ترد السنة الهجرية ذاتها أو سنوات متقاربة مع مقابلات ميلادية غير متسقة؛ بينما يوافق 18 ذي الحجة 1152هـ أواخر مارس/آذار 1740م تقريباً. ينبغي اعتماد التاريخ الأصلي ومراجعة جميع التحويلات قبل النشر.

د. حدود التعميم بين الوكالة والجالية

تتداخل في السرد ثلاثة كيانات: الوكالة بوصفها عقاراً موقوفاً، والجماعة الجربية في القاهرة، والشبكة الإباضية المغاربية. بعض الأنشطة التجارية أو الصحفية قام بها أفراد من الشبكة من غير أن يثبت أن ريع الوكالة موّلها مباشرة. لذلك يلزم وسم كل واقعة: «داخل الوكالة»، أو «بتمويل الوقف»، أو «ضمن شبكة خريجيها والمتصلين بها». هذا التمييز لا يقلل أثر المؤسسة؛ بل يمنع تضخمه ويحوله إلى أثر شبكي قابل للبرهنة.

هـ. الحاجة إلى تحليل مالي وعمراني مستقل

يقدم الكتاب أسماء أصول وحصص وإيجارات وديوناً متفرقة، لكنه لا يعيد بناء حسابات الوقف. ومن دون ذلك يصعب تفسير متى بدأ العجز، وهل سببه انخفاض الإيجار الحقيقي، أو كلفة الصيانة، أو تغير سوق الحي، أو ضعف التحصيل، أو تدخل الدولة. كما أن اختلاف وصف المبنى بين الحجة والرسم المتأخر يحتاج إلى دراسة عمرانية تستعين بالخرائط والصور الجوية ودفاتر المكلفات وملفات التنظيم. وقد تكشف هذه الدراسة أن «الانهيار» كان سلسلة تحويرات وضم لا حادثة واحدة.

و. مصطلحات الجماعة والهوية

تستخدم الخاتمة وصفاً قريباً من «وقف مذهبي عرقي»، وهو تعبير يحتاج إلى احتراز. فالمادة نفسها تبين انفتاح المنفعة على إباضية من نفوسة ومزاب، واتصالها بعمان وزنجبار، كما تكشف اندماج أجيال في القاهرة. لذا تبدو مفاهيم «الوقف الجماعي»، و«وقف جماعة مهاجرة»، و«الوقف المذهبي العابر للأقاليم» أكثر دقة من العرق. المصطلح ليس شأناً لغوياً فقط؛ فهو يوجه السؤال بين الانغلاق والتضامن والاندماج.

ز. مقترحات الإحياء وحماية التراث

تظل مقترحات الاستبدال وإعادة توظيف الوقف مفيدة بوصفها دعوة إلى حفظ المقصد، لكنها لا تُنقل مباشرة إلى سياسة معاصرة من دون مراجعة التشريع النافذ والملكية والحيازة وحالة المبنى والأصول. كما ينبغي رفض أي إجراء يبدد المخطوطات الأصلية قبل فهرستها وتقييمها وحسم صفتها الوقفية. الرقمنة مكمل للحفظ لا بديل منه؛ والصورة لا تنقل العلامات المادية كلها. والأولوية لوقف التدهور، وإثبات السلسلة القانونية، وإتاحة نسخ رقمية، ثم تقرير الاستخدام من جهة مختصة وبشفافية.

5.3 القيمة بالنسبة إلى حقول البحث

بالنسبة إلى تاريخ الوقف، يقدم الكتاب مثالاً على أصل صغير نسبياً أنتج وظائف واسعة بفضل الشبكة. وبالنسبة إلى تاريخ القاهرة، يكشف عن وكالة ذات هوية مغاربية قرب جامع ابن طولون ويسهم في رسم خريطة سكن التجار والطلبة. وبالنسبة إلى تاريخ جربة والإباضية، يثبت أن مراكز إنتاج المعرفة لم تكن محلية فقط، وأن القاهرة أدت دور المختبر والواسطة. وبالنسبة إلى تاريخ الكتاب، يقدم مساراً من الوقف على النسخة إلى النسخ التجاري ثم المطبعة والصحافة. أما بالنسبة إلى دراسات الهجرة، فيبرهن أن المهاجرين يبنون مؤسسات تخفض المخاطر وتحفظ الهوية وتسرّع الاندماج في آن واحد.

وتكمن فرادة الحالة في التقاء هذه الحقول داخل مبنى واحد. غير أن المقارنة ضرورية لاختبار ما إذا كانت وكالة الجاموس استثناءً أم نموذجاً. ينبغي مقارنتها بوكالات المغاربة الأخرى، وبأروقة الأزهر، وأوقاف أهل الحرمين والأناضول، وبمؤسسات إباضية في جربة ومزاب ونفوسة. المقارنة ستحدد ما هو قاهري، وما هو جربي، وما هو إباضي، وما هو سمة عامة لأوقاف جماعات المهاجرين.

6. برنامج بحث مقترح انطلاقاً من الكتاب

6.1 تحقيق الوثائق

الخطوة الأولى هي جمع جميع صور حجة الوقف والتصرفات السابقة واللاحقة في ملف رقمي، ثم نسخها دبلوماسياً ومقابلتها بالأصول. ينبغي تصوير كامل السجل لا الصفحتين فقط، لأن السياق قد يكشف كتبة وشهوداً ومعاملات مجاورة. كما يلزم تتبع الأسماء الثلاثة للوكالة، وأسماء المؤسسين والنظار والعقارات، في سجلات محاكم طولون والصالح وباب العالي وغيرها. ويمكن أن تنتج هذه العملية سلسلة ملكية ونظارة ونزاع من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين.

6.2 قاعدة بيانات للأعلام والشبكات

يضم الكتاب عشرات الأعلام بأشكال مختلفة من الأسماء والنسب والألقاب. ويمكن تحويلهم إلى قاعدة بيانات تسجل الأصل، والمهنة، وتاريخ الإقامة، والدور في الوكالة، والأساتذة والتلاميذ، والعقود، والكتب المنسوخة أو المؤلفة، والمراسلات. ثم يُستخدم التحليل الشبكي لتحديد الوسطاء بين جربة والقاهرة ومزاب ونفوسة، والتمييز بين

مركزية العالم ومركزية التاجر أو الناسخ. وسيساعد الضبط الاسمي على كشف الأشخاص المكررين تحت صيغ هجائية مختلفة.

6.3 أطلس مكاني للوقف الجربي

يمكن تمثيل حدود الوكالة والعقارات والدور والأسواق ومسارات الحجاج والطلاب على خريطة تاريخية للقاهرة والجيزة. ويجمع الأطلس بين نصوص الحدود وخرائط الحملة الفرنسية والخرائط المساحية ودفاتر المكلفات والصور الجوية والزيارات الميدانية. ولا يقتصر الهدف على تحديد الموقع، بل اختبار قربه من الجامع والأسواق ومساكن المغاربة وشبكات النقل، ورصد تغير الكتلة العمرانية حتى اختفاء المبنى أو ضمه.

6.4 تاريخ مالي مقارن

يتطلب قياس الأثر الاقتصادي البحث عن حسابات الغلة والإيجار والصيانة والديون والضرائب وأجور النساخ وتكاليف الطباعة. وإذا لم تتوفر سلسلة كاملة، يمكن بناء نقاط زمنية قابلة للمقارنة. وتُقارن هذه البيانات بأسعار الحبوب والزيت والبن والعقار، وبأوقاف أو وكالات مشابهة. عندها يمكن اختبار فرضيات الكتاب حول الربح، وتآكل الإيراد، وتأثير البعد المكاني للأصول، والفرق بين سوء الإدارة والتحول البنيوي في الاقتصاد.

6.5 فهرس مادي للمخطوطات والكتب

ينبغي جمع النسخ المنسوبة إلى الوكالة أو نساخها في فهرس موحد يثبت عنوان النص، والمؤلف، والناسخ، وتاريخ ومكان النسخ، والمادة، والمقاس، وعدد الأوراق، وبدايات النص ونهاياته، وقيود الوقف والتملك والقراءة، والمكتبة الحالية ورقم الحفظ والصورة الرقمية. وسيمكن هذا الفهرس من التمييز بين كتاب كان في مكتبة الوكالة، وكتاب نسخه أحد المقيمين ثم خرج منها، وكتاب وصل إلى الشبكة من خارجها. هذا التمييز أساس لكتابة تاريخ مكتبة لا مجرد قائمة كتب.

6.6 تاريخ اجتماعي للفئات الأقل ظهوراً

تستحق الواقفات والزوجات والخدم والعتقاء والطلاب الفقراء دراسة مستقلة. ويمكن تتبع النساء المذكورات في عقود الوقف والميراث والبيع، وقراءة شروطهن ومواقع دورهن، وفحص أثر الزواج والمصاهرة في انتقال المال. كما يمكن جمع حالات السكن المؤقت والقرض والعلاج والدفن من السجلات. وسينقل ذلك البحث من تاريخ النخبة العالمة والتاجرة إلى تاريخ المستفيدين الفعليين وطرائق تفاوضهم مع المؤسسة.

6.7 التاريخ الشفوي والملفات الحديثة

روايات آخر المقيمين نقطة بدء لا نقطة نهاية. ينبغي البحث عن أسرهم وصورهم ورسائلهم ووثائق الدراسة والإقامة، وإجراء مقابلات مسجلة وفق بروتوكول واضح. وبالتوازي تُفحص ملفات وزارة الأوقاف والأزهر ومحافظة القاهرة من 1930 إلى 1960 على الأقل، لتحديد قرارات الإدارة والضم والصيانة أو الإزالة. والجمع بين الذاكرة والملف سيعيد بناء النهاية بأكبر قدر من الدقة.

7. خاتمة

يستحق كتاب أحمد بن مهني بن سعيد مصلح موقعاً بارزاً في دراسات الوقف والجماعات المغاربية بمصر لأنه أنجز الخطوة الأصعب: جعل وكالة الجاموس موضوعاً تاريخياً محدداً بعد أن كانت موزعة بين الذاكرة والتراجم والدفاتر. وقد بين أن الوقف الجربي لم يكن عقاراً جامداً، بل بنية مركبة لخفض مخاطر الهجرة، وتكوين العلماء، وربط التجارة بالتكافل، وحفظ الكتب ونسخها وطباعتها، وبناء اتصال بين جربة والقاهرة ومزاب ونفوسة وعُمان وزنجبار. وتبلغ حجته أقصى قوتها حين تتكلم حجة الوقف والسجلات والقيود والرسائل، وحين تُقرأ الأسماء والمهن والحدود بوصفها بيانات عن شبكة كاملة.[53]

وفي المقابل، لا ينبغي تحويل العمل التأسيسي إلى مرجع نهائي مغلق. فاضطراب بعض التواريخ الميلادية، وتفاوت توثيق المخطوطات والمقابلات، واتساع مفهوم التنمية، وغياب الحسابات المتسلسلة، والتداخل بين نشاط العقار ونشاط الجالية، كلها مسائل تستدعي المراجعة. لكن هذه الملاحظات لا تلغي قيمة الكتاب؛ بل تحدد المرحلة التالية التي جعلها ممكنة: تحقيق الوثائق، وبناء قاعدة بيانات للأعلام، وفهرسة المخطوطات مادياً، ورسم الخريطة، وقياس الاقتصاد، ومقارنة الحالة بأوقاف جماعات أخرى.

الخلاصة أن جديد الكتاب مزدوج: جديد في المادة، لأنه يتيح نصوصاً وأسماء وخرائط أولية وشهادات لم تكن مجتمعة؛ وجديد في زاوية الرؤية، لأنه يكشف كيف يستطيع وقف محلي محدود الحجم أن يعمل عقدة في شبكة حضرية وعابرة للأقاليم. وإذا أُعيد استثمار هذا الرصيد بأدوات التحقيق الرقمي والتاريخ الاجتماعي والاقتصادي المقارن، فلن تظل وكالة الجاموس هامشاً في تاريخ القاهرة أو جربة، بل ستصبح نموذجاً تفسيرياً لفهم علاقة الوقف بالهجرة والهوية وتداول المعرفة في العالم الإسلامي الحديث المبكر والحديث.[54]

53 - مصلح، الوقف الجربي في مصر، ص 202-205، في النتائج العامة التي خلص إليها المؤلف.

54 - تسند الملاحق، ص 207-231، إمكان تحويل دراسة الحالة إلى برنامج بحث في شبكات الكتب والأوقاف

المراجع والمصادر

أولاً: المصدر محل التقرير

مصلح، أحمد بن مهني بن سعيد. الوقف الجربي في مصر ودوره في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجريين (وكالة الجاموس نموذجاً). الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، الطبعة الأولى، 1433هـ/2012م.

ثانياً: المصادر الوثائقية والمخطوطة التي اعتمد عليها الكتاب

دار الوثائق القومية المصرية، سجلات محكمة طولون الشرعية، السجل رقم 224، الصفحتان 361-362، الوثيقة رقم 868، حجة وقف مؤرخة في 18 ذي الحجة 1152هـ (الإحالة بحسب مصلح).

ابن بحمان، إبراهيم. الرحلة الحجازية. مخطوط، صورة كانت بحوزة مؤلف الكتاب.

أبو اليقظان، إبراهيم بن عيسى. ملحق السير. مخطوط، صورة كانت بحوزة مؤلف الكتاب.

ابن يعقوب، سالم. من أصول تاريخ أهل جربة. مخطوط، صورة كانت بحوزة مؤلف الكتاب.

ابن يعقوب، سالم. أسر جربية بمصر. مخطوط، صورة كانت بحوزة مؤلف الكتاب.

ابن يعقوب، سالم. مجموعة آثار إباضية. مخطوط مصور، مكتبة سالم بن يعقوب بغيزن، جربة، بحسب وصف الكتاب.

التلاتي، عمرو. نزهة الأديب وريحانة اللبيب. مخطوط، صورة كانت بحوزة مؤلف الكتاب.

بحاز، محمد بن أحمد الشريف. التحفة البهية في الرحلة الحجازية. مخطوط، صورة كانت بحوزة مؤلف الكتاب.

ثالثاً: دراسات ومراجع ذات صلة مباشرة

أبو زهرة، محمد. محاضرات في الوقف. القاهرة: دار الفكر العربي، دون تاريخ.

أمين، محمد محمد. الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (648-923هـ): دراسة

والهجرة؛ وهي من أكثر أقسام الكتاب قابلية لإعادة الاستخدام العلمي بعد التحقيق والفهرسة.

تاريخية وثائقية. القاهرة: دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، 1980م.

بوركبة، السعيد. دور الوقف في الحياة الثقافية في المغرب في عهد الدولة العلوية. مطبعة فضالة العرب، الطبعة الأولى، 1996م.

الجعبيري، فرحات. نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة. تونس: المطبعة العصرية، الطبعة الأولى، 1975م.

حنا، نللي. تجار القاهرة في العصر العثماني. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 1418هـ/1997م.

الزرقاء، مصطفى. أحكام الأوقاف. عمّان: دار عمار، الطبعة الثانية، 1419هـ/1998م.

عبد الرحيم، عبد الرحمن. المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798م). الجزائر-تونس: منشورات المجلة التاريخية المغاربية وديوان المطبوعات الجامعية، 1982م.

عبد الرحيم، عبد الرحمن. الريف المصري في القرن الثامن عشر. القاهرة: مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، 1986م.

عفيفي، محمد. الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر في العصر العثماني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991م.

قحف، منذر. الوقف الإسلامي: تطوره، إدارته، تنميته. دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1421هـ/2000م.

مجموعة باحثين، جمعية التراث بالقرارة. معجم أعلام الإباضية. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م.

محفوظ، محمد. تراجم المؤلفين التونسيين. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1406هـ/1986م.

موسى، رفعت. الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 1413هـ/1993م.

ابن يعقوب، سالم. تاريخ جزيرة جربة. تونس: دار الجويني، الطبعة الأولى، 1986م.

الهيتي، عبد الستار. دور الوقف في التنمية. الدوحة: وزارة الأوقاف، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م.

ملحق ببعض أسماء الطلبة النفوسيين البارزين الذين مروا بالوكالة

تزخر السجلات بأسماء العديد من الشخصيات النفوسية التي سكنت في الوكالة واستفادت منها، ومن أبرزهم:

الشيخ عيسى بن سعيد الباروني: سافر من جبل نفوسة لطلب العلم بالأزهر الشريف، وتولى التدريس بوكالة الجاموس لمدة عشرين سنة. كان مكثراً من نسخ المخطوطات وتجميعها، وعاد بكنز علمي ثمين أسس به "المكتبة البارونية" التي إنتقلت إلى جربة.

الشيخ عبد الله بن يحيى الباروني: درس بالأزهر وبرع في المعقول والمنطق ودرّس لعامة الطلبة والمبتدئين بوكالة الجاموس، وكان له دور تربوي كبير.

المجاهد والشاعر سليمان باشا الباروني: كان نشطاً في الوكالة مع طلبتها. أسس مطبعة "الأزهار البارونية" في مصر، وأصدر جريدة "الأسد الإسلامي" وله مؤلفات مطبوعة هناك.

الشيخ يوسف بن محمد الباروني: درس بالأزهر الشريف وتولى نظارة الوكالة لفترة. وهو مؤسس "المطبعة البارونية" في مصر التي طبعت ونشرت التراث والكتب العلمية.

الشيخ عمر بن عيسى التندميرتي العزابي: سكن الوكالة وتخرج من الأزهر، وتولى نظارة أوقاف الوكالة فقام بتدبير شؤونها المالية والمعيشية ورعاية الطلبة والوفود بحزم وأمانة.

الشيخ قاسم بن صالح الكاباوي: درس بالوكالة وتولى مسؤولية وكيل النظارة، وكان نساخاً أميناً ومتقناً نسخ العديد من المخطوطات والكتب.

الشيخ أحمد الفساطوي: صحفي وكاتب ليبي درس بالأزهر وجاور برواق المغاربة، وأسس جريدة "المرصاد" الأسبوعية في مصر.

الشيخ عيسى علي مادي، درس بالأزهر وجاور برواق المغاربة، قاضي بمدينة يفرن عمر طويلا حيث توفي سنة 1962

الدكتور محمد علي حنبولة: من أواخر الطلبة الليبيين الذين سكنوا في غرف الوكالة بالقاهرة وتخرج من كلية دار العلوم.

الشيخ عبد الله الفرسطائي: من طرابلس، أقام بالوكالة في فترتها الأخيرة مجاوراً ودارساً بالأزهر بين عامي 1937م و1952م.

الطالب بلقاسم بن يحيى الباروني: سكن بالوكالة إبان دراسته بالأزهر في المراحل الأخيرة للوكالة قبل تأميم أوقافها.

الفهرس

مقدمة	3
كتاب «مسائل نفوسة» مصدرًا لفقه النوازل	10
جدول النوادر التاريخية «مسائل نفوسة»	22
التحولات الديموغرافية في نفوسة	33
جبل نفوسة في مشروع ليبيا	47
المكتبة النفوسية المنسية	54
الملحق	68
الحصر الكرونولوجي للمؤلفين	68
الأثر بوصفه وثيقة صامتة	77
بيبليوغرافيا البحوث الأثرية	95
جبل نفوسة في المصادر الإسلامية الوسيطة	110
العلاقة التاريخية بين الامازيغية والمذهب الاباضي	133
الوقف الجربي في مصر ووظائفه التنموية	143
ملحق ببعض أسماء الطلبة النفوسيين الذين مروا بالوكالة	169
إرشادات النشر في دورية	173

إرشادات النشر في دورية
أمزروي نّغ/تاريخنا

انطلاقًا من الحاجة المتزايدة إلى دوريات أكاديمية محكَّمة تُعنى بالدراسات التاريخية، تصدر دورية «أمزروي نّغ/تاريخنا» بوصفها مبادرة علمية متخصصة تسعى إلى دعم البحث التاريخي وتطوير مناهجه، مع اهتمام خاص بتاريخ ليبيا وشمال أفريقيا، وتاريخ المجتمعات الأمازيغية، وجبل نفوسة على وجه الخصوص.

وتشمل مجالات اهتمام الدورية التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والديني والفكري، وتاريخ العلوم والمؤسسات والعمارة والعمران، والتاريخ المحلي، والتاريخ الشفهي، والدراسات الأثرية، وتحقيق المخطوطات والوثائق، ودراسة النقوش والمسكوكات والخرائط والصور التاريخية، وغيرها من الحقول المتصلة بالبحث التاريخي.

وتؤمن الدورية بأن إعادة بناء التاريخ لا ينبغي أن تقتصر على النصوص التاريخية الكلاسيكية المعروفة، بل تتطلب توسيع دائرة المصادر والاستفادة من فقه النوازل، وكتب السير والطبقات، والمخطوطات، والوثائق العائلية والرسمية، والروايات الشفوية، والمعطيات الأثرية، والنقوش، والعملات، والصور، والخرائط، والسجلات الإدارية والقضائية، إلى جانب توظيف المناهج العلمية الحديثة، مثل التاريخ الرقمي، ونظم المعلومات الجغرافية، والدراسات الأنثروبولوجية واللغوية والجينية، مع مراعاة الضوابط المنهجية والأخلاقية الخاصة بكل مجال.

كما تسعى دورية «أمزروي نّغ/تاريخنا» إلى توفير بيئة علمية جادة تراعي جودة البحث والمعايير الأكاديمية المتعارف عليها، وتفسح المجال للنشر باللغة الأمازيغية والعربية، إلى جانب اللغات الأخرى ذات الصلة، بما يعزز التواصل بين الباحثين ويفتح البحث التاريخي المحلي على مختلف المدارس والمناهج العلمية.

وقد أُعدّت هذه الإرشادات لتوضيح مسار التعامل مع المواد المقدَّمة إلى الدورية، بدءًا من استلامها ومراجعتها وتحكيمها، وصولًا إلى اعتمادها ونشرها في الصيغتين الورقية والرقمية.

أولًا: تقديم المقالات والبحوث

ترحب الدورية بالأبحاث التاريخية الأصيلة التي تقدم إضافة علمية واضحة، أو تكشف عن مصادر ووثائق ومواد جديدة، أو تعيد قراءة قضايا تاريخية معروفة من منظور نقدي ومنهجي حديث.

كما ترحب الدورية بالدراسات التي تعالج الفجوات التي سكتت عنها المصادر المكتوبة، وتستعين بالمصادر الموازية والعلوم المساعدة للتاريخ، شريطة الالتزام بالمنهج العلمي، والتمييز الواضح بين الحقائق الموثقة والفرضيات والاستنتاجات المحتملة.

ويُرجى من الباحثين مراعاة الدقة العلمية، وسلامة اللغة، وتوثيق الإحالات والمراجع، ونقد المصادر، ووضع المعلومات في سياقاتها الزمنية والجغرافية، والالتزام قدر الإمكان بالأسلوب والشكل المعتمدين لدى الدورية.

ويُفضّل أن تكون المادة المقدَّمة:

أصيلة، ولم يسبق نشرها أو تقديمها بالتزامن إلى جهة أخرى.

مرتبطة بمجالات اهتمام الدورية وتخصصها التاريخي.

واضحة الإشكالية والأهداف والمنهج والحدود الزمنية والجغرافية.

قائمة على مصادر محددة وموثقة توثيقًا علميًّا دقيقًا.

متضمنة نقدًا للمصادر وبيانًا لقيمتها وحدودها عند الحاجة.

مرفقة بملخص وكلمات مفتاحية وفق متطلبات الدورية.

مكتوبة بلغة أكاديمية سليمة وواضحة.

مرفقة بقائمة كاملة للمصادر والمراجع المعتمدة.

موضحة لمصدر الصور والوثائق والخرائط والجداول والمواد الأرشيفية المرفقة.

ملتزمة بحقوق الملكية الفكرية وشروط استعمال الوثائق والصور والمواد الأرشيفية.

وتقبل الدورية، إلى جانب البحوث العلمية، الأنواع الآتية من المواد:

الدراسات النقدية للمصادر التاريخية.

تحقيق المخطوطات والوثائق والنصوص النادرة.

ترجمة الدراسات التاريخية المهمة، بعد الحصول على الحقوق اللازمة.

تقارير الاكتشافات والمسوح الأثرية والميدانية.

دراسات التاريخ الشفهي والذاكرة الجماعية.

عروض الكتب والمخطوطات والوثائق والمجموعات الأرشيفية.

الدراسات المتعلقة بالنقوش والمسكوكات والأختام والصور والخرائط التاريخية.

البيبليوغرافيات والكشافات وقواعد البيانات التاريخية.

التعريف بالمكتبات والخزائن والمجموعات الخاصة ذات القيمة التاريخية.

ثانيًا: مراجعة البحوث وتحكيمها

تخضع المواد المقدَّمة إلى مراجعة أولية يجريها هيئة التحرير؛ للتأكد من ملاءمتها لتخصص الدورية، وأصالتها، واستيفائها المتطلبات العلمية والتحريرية الأساسية.

وتشمل المراجعة الأولية، بحسب طبيعة البحث، النظر في وضوح الإشكالية، وسلامة المنهج، ودقة التوثيق، وطريقة التعامل مع المصادر، ومدى التمييز بين الرواية التاريخية والتحليل والاستنتاج.

ثم تُحال المواد المناسبة إلى التحكيم العلمي المزدوج السري (Double-Blind Peer Review)، حفاظًا على النزاهة والموضوعية واستقلالية التقييم. وتُحجب هوية الباحث عن المحكّمين، كما لا تُكشف هوية المحكّمين للباحث.

ويجري تقييم المادة في ضوء جملة من المعايير، من أبرزها:

أصالة الموضوع وأهميته.

القيمة العلمية للمصادر المستعملة.

سلامة المنهج التاريخي.

دقة المعلومات والتواريخ والأسماء والأماكن.

قدرة الباحث على نقد الروايات والمصادر ومقارنتها.

وضوح التحليل وتسلسل الأفكار.

سلامة النتائج وارتباطها بالأدلة المقدَّمة.

جودة التوثيق والإحالات وقائمة المراجع.

ويُمنح الباحث وقتًا مناسبًا للنظر في ملاحظات المحكّمين وإجراء التعديلات المطلوبة، أو توضيح وجهة نظره العلمية بشأنها. ويُتخذ القرار النهائي في ضوء تقارير التحكيم، ومدى استجابة البحث للمعايير العلمية والتحريرية المعتمدة في الدورية.

ثالثًا: التعامل مع المصادر والشهادات التاريخية

ينبغي للباحث أن يوضح طبيعة المصادر التي اعتمد عليها، وظروف إنتاجها، وتاريخها، ومؤلفيها أو الجهات التي أصدرتها، ومدى قربها من الأحداث المدروسة.

وعند استعمال الروايات الشفوية، يُرجى بيان اسم الراوي، وتاريخ المقابلة ومكانها، وعمره أو علاقته بالموضوع، وطريقة تسجيل الشهادة وحفظها، مع مراعاة موافقته وخصوصيته.

أما الوثائق والمخطوطات والصور والخرائط والمواد الأرشيفية، فينبغي وصفها وصفًا يساعد على التعرف عليها، مع ذكر مكان حفظها ورقمها أو رمزها الأرشيفي، إن وُجد، وبيان ما إذا كانت منشورة من قبل أو تُنشر للمرة الأولى.

وعند الاعتماد على نتائج أثرية أو لغوية أو جينية أو أنثروبولوجية، يجب عرضها ضمن حدودها العلمية، وتجنب تحويل الاحتمالات والقرائن إلى حقائق تاريخية قطعية، أو بناء استنتاجات تتجاوز ما تسمح به الأدلة المتاحة.

رابعًا: أخلاقيات البحث والنشر

تحرص دورية «أمزروي نّغ/تاريخنا» على احترام مبادئ الأمانة العلمية وأخلاقيات البحث والنشر. ولهذا يُرجى من الباحثين التأكد من:

توثيق جميع المصادر والأفكار والنصوص والصور المنقولة توثيقًا دقيقًا.

تجنب الاقتباس غير الموثق أو الانتحال العلمي.

عدم تكرار نشر المادة نفسها في أكثر من جهة.

عدم تحريف النصوص أو الوثائق أو الشهادات التاريخية.

عدم إخفاء الأدلة التي تخالف فرضية البحث أو نتائجه.

التمييز بين النص الأصلي وتفسير الباحث وتعليقه.

عرض البيانات والنتائج بأمانة ووضوح.

احترام حقوق أصحاب الشهادات الشفوية والوثائق والمجموعات الخاصة.

الحصول على الموافقات اللازمة لنشر الصور والوثائق والمواد المحمية.

تجنب توظيف البحث التاريخي في الإساءة إلى الأفراد أو الجماعات أو إثارة الأحقاد.

الإفصاح عن أي تضارب محتمل في المصالح.

بيان مساهمة كل باحث في الأعمال المشتركة عند الحاجة.

الإفصاح عن استعمال أدوات الذكاء الاصطناعي في إعداد المادة، إذا كان استعمالها مؤثرًا في البحث أو التحليل أو الصياغة، مع بقاء المسؤولية العلمية كاملة على عاتق الباحث.

وفي حال ظهور ملاحظة تتعلق بالأمانة العلمية أو بصحة المعلومات أو بملكية الوثائق والصور، تتواصل هيئة التحرير مع الباحث للاستفسار والتوضيح قبل اتخاذ الإجراء المناسب، وفق طبيعة الحالة والمعايير الأكاديمية المعمول بها.

خامسًا: حقوق المؤلف والنشر

تلتزم الدورية بحفظ الحقوق الفكرية والأدبية لأصحاب البحوث والدراسات والمواد المنشورة. وتُحدَّد حقوق المؤلف والدورية المتعلقة بالنشر وإعادة النشر والإتاحة الرقمية وفق الاتفاق المعتمد عند قبول المادة.

ولا يجوز إعادة نشر البحث المنشور أو جزء جوهري منه إلا مع الإشارة الواضحة إلى نشره الأول في دورية «أمزروي نّغ/تاريخنا»، ومراعاة الترتيبات المتفق عليها بين الدورية والمؤلف.

كما يلتزم الباحث بالحصول على الأذونات الضرورية لاستعمال الصور والخرائط والوثائق والمخطوطات والشهادات والمواد الأرشيفية التي لا يملك حقوقها، وتقديم ما يثبت ذلك إلى هيئة التحرير عند الطلب.

ويمكن تزويد الباحث بنسخة من العدد المنشور أو نسخة رقمية من بحثه، وفق الإمكانات المتاحة.

سادسًا: المساندة العلمية والتحريرية

تسعى دورية «أمزروي نّغ/تاريخنا»، بالتعاون مع المركز الليبي للدراسات الأمازيغية، إلى مساندة الباحثين وتشجيع المشاريع التاريخية الجادة، ولا سيما المشاريع التي تكشف عن مصادر غير معروفة، أو توثق جوانب مهددة بالضياع من تاريخ المجتمعات المحلية.

وقد تشمل هذه المساندة، بحسب طبيعة البحث والإمكانات المتاحة:

المراجعة العلمية والمنهجية.

المساعدة في نقد المصادر وتصنيفها.

التحرير والمراجعة اللغوية.

تفريغ بعض الوثائق والمخطوطات والشهادات المسجلة.

تنسيق المادة وإعدادها للنشر.

إعداد الخرائط والجداول والفهارس والكشافات.

معالجة الصور والوثائق وإعدادها فنيًّا للنشر.

تصميم الغلاف والإخراج الفني.

دعم بعض المشاريع ذات القيمة التاريخية أو الأرشيفية أو التراثية المتميزة.

ويُنظَر في كل طلب دعم بصورة مستقلة، بما يراعي أهمية المشروع، وقيمته العلمية، وإمكانات الدورية والمركز.

دعوة إلى المساهمة

تدعو دورية «أمزروي نّغ/تاريخنا» الباحثين والأكاديميين وطلبة الدراسات العليا والمهتمين بالتاريخ والتراث، من ليبيا وخارجها، إلى المساهمة بأبحاثهم ودراساتهم في هذه المنصة العلمية المتخصصة.

وترحب الدورية على وجه الخصوص بالدراسات التي تعيد قراءة تاريخ ليبيا وشمال أفريقيا والمجتمعات الأمازيغية، وتكشف عن مصادر ووثائق جديدة، وتسد الفجوات التي

تركتها المدونات التاريخية التقليدية، وتُبرز تاريخ المناطق والقرى والمدن والجماعات التي لم تحظ بالعناية الكافية.

كما تشجع الدورية البحوث المتعلقة بتاريخ جبل نفوسة، ومدنه وقراه وسكانه، ومؤسساته العلمية والدينية والاجتماعية، وتراثه المادي وغير المادي، وصلاته بالمجالات الليبية والمغاربية والمتوسطية والأفريقية.

وتدعو الدورية إلى تجاوز الاكتفاء بتكرار ما ورد في المصادر الكلاسيكية، والانفتاح على الوثائق المحلية، والمخطوطات، وفقه النوازل، وكتب السير، والآثار، والنقوش، والمسكوكات، والخرائط، والصور، والروايات الشفوية، والمناهج العلمية الحديثة؛ من أجل بناء معرفة تاريخية أكثر دقة واتساعًا وتوازنًا.

مختصر لمحتويات الدورية

يُخصَّص هذا العدد من دورية «أمزروي نّغ/تاريخنا» لمصادر تاريخ جبل نفوسة، ويسعى إلى توسيع مفهوم المصدر التاريخي، وعدم الاقتصار على كتب التاريخ والجغرافيا التقليدية، من خلال توظيف النصوص الفقهية، والمخطوطات، والآثار، والمعطيات الجينية، والوثائق الوقفية، مع التنبيه إلى المناهج النقدية اللازمة لقراءتها.

يفتتح العدد بدراسة لكتاب «مسائل نفوسة» بوصفه مصدرًا لفقه النوازل والحياة الاقتصادية والاجتماعية، بما يتضمنه من معلومات عن الزراعة والرعي والتجارة واللباس والزواج والعادات والقضاء. كما يتناول الحمض النووي بوصفه أرشيفًا مكمّلًا لدراسة تاريخ السكان والهجرات والتحولات الديموغرافية، مع التحذير من مساواة السلالات الجينية بالهويات القومية أو اللغوية.

ويضم العدد دراسة عن «المكتبة النفوسية المنسية»، ترصد تاريخ التأليف الإباضي في جبل نفوسة، وما بقي من مؤلفاته وما فُقد منها، ودور النساخ والخزائن المحلية والخارجية في حفظ هذا التراث. كما يقدم دراسة موسعة عن أهمية اللقى والمواقع الأثرية في سد فجوات التاريخ المكتوب، وضرورة توثيقها وحمايتها، مرفقة ببيليوغرافيا للبحوث الأثرية المتعلقة بالجبل ومدنه وقراه.

وفي جانب نقد المصادر، يتتبع العدد صورة جبل نفوسة في المصادر الإسلامية الوسيطة، ويكشف طبقات انتقال الأخبار بين المؤلفين، ويميز بين الشهادة المستقلة والنقل عن المصادر السابقة. كما يناقش العلاقة التاريخية بين الأمازيغية والمذهب الإباضي، ودور هذا التفاعل في تشكيل الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية في جبل نفوسة والمجال المغاربي.

ويختتم العدد بقراءة نقدية في كتاب «الوقف الجربي في مصر»، تبرز دور وكالة الجاموس في إيواء الطلبة والعلماء المغاربة، ومن بينهم عدد من النفوسيين، وفي نسخ المخطوطات وتداول المعرفة. وبذلك يقدم العدد رؤية متكاملة تدعو إلى الجمع بين النص والأثر والوثيقة والذاكرة والمعطيات العلمية الحديثة من أجل كتابة تاريخ أكثر دقة واتساعًا لجبل نفوسة.